هيثم حسين

عُشبة ضارّة في الفردوس

رواية

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

عُشبَة ضَارّة فِي الفردَوس

هيثم حسين

عشبة ضارة في الفردوس

رواية

المؤلّف. هيثم حسين
عنوان الكتاب. عشبة ضارة في الفردوس

خط الغلاف. الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف. الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك. 978-9938-880-78-6
الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

دار ميّارة للنشر والتوزيع
محضنة المؤسّسات برقّادة، المكتب عدد1، القيروان
الهاتف. 21880445/99095008(216+)
الإيميل. mayara.editions@gmail.com

مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف. 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل. maschiana_editions@yahoo.com

إلى مَن يبدّدن غربتي وعتمتي:

نسرين، هيفي، وروز.

ترويض الشياطين

لا أريد أن ينتشلني أحدٌ من غرقي.

هذه هي لحظة الانعتاق المطلقة التي ظللتُ أرنو إليها، أستمتع بهذا الغرق، بهذه العتمة الجديدة، أحظى بحُريّةٍ ما فتئت أحلم بها. أتخيّل الأسماك تنهش جسدي، ثمّ أتخيّل تلك الأسماك بين أيدي البشر ينهشونها، ويستمتعون بها. هل سيدرك أيّ واحد منهم أنّه ينهش جسدي بطريقة ما..! هل عشتُ حقًّا ذات يوم في مكان ما؟ أين عشتُ؟ كيف عشتُ؟ أين سأكمل دائرة العبث وكيف؟

أفكار الدقائق الأخيرة غريبةٌ غرابةَ الحياة نفسها، عبثيّة مثلها. طيلة سنوات كان الصمت ملاذي، والحلم ملعبي، وهأنذا في غرقي أغيّر عاداتي، وأكاد أصرخ بأفكاري. هل هذا الغرق مرآة لاكتشاف جوانب خفيّة من ذاتي؟ هل تكون لحظة الانعتاق هي نفسها لحظة التحوّل في دور الفريسة المزمن؟

لا يهمّني كثيرًا إن تمّ تصنيف اختياري الغرق على أنّه نوع من الانتحار أم لا، ولا رغبة لي في محاسبة ذاتي في هذه اللحظات، أودّ فقط الاستمتاع بهذه الرحلة نحو أكثر المناطق عُمقًا في ذاتي. يجتاح البرد أوصالي. أشعر براحة غريبة وسكينة مفاجئة. أشعر بأحاسيس متناقضة في اللحظة نفسها.

لا أريد أن ينتشلني أحدٌ من هذا الغرق المريح.

أودّ أن أقهقه بأعلى صوتي، أن أصرخ، لا رغبة في أن يمدّ أحدهم يد العون إليّ، بل حبًّا في الصرخة نفسها، وإرواءً لحنيني إلى صوتي الذي افتقدته، حتّى أدمنت الشعور بالانكسار والفقد، ووصلت إلى قناعة أنّي بكماء، أو متلعثمة، يجرح صوتُها أسماعَ الآخرين، ويخدش طبلات آذانهم ويثقبها.

أتخيّل نساء الحارة يتجمّعن في غرفة أمّي، تنتظر كلّ واحدة منهنّ دورها لنتف حواجبها أو إزالة الشعر من المناطق الحسّاسة في جسدها. كنت أتحرّك بخفّة بينهنّ. ألبّي طلبات أمّي. أعدّ لها الخيوط التي تستخدمها للنتف. وأحضّر لها الخلطات اللاّزمة لدَهْن الأجساد وإزالة الشعر.

حفظت رسوم الحواجب وأشكالها، حفظت حركات النساء وضجيجهنّ المفتعل أثناء إزالة الشعر عن أجسادهنّ، حتّى أنّني كنت أعرف المنطقة التي تنتف منها أمّي من دون أن أرى، بناء على صرخات المرأة الماثلة بين يديها، واعتمادًا على نوع الضحكة التي تطلقها.

لا أدري إن كنت قد ورثت تلك الميزة عن أبي أم لا، فأنا لا أذكر أنّي ظننتُ يومًا أنّ لديّ مزايا ما.

تضحك الوردة بكبرياء وشموخ. تقهقه وتضرب بيدها جانبًا على الأرض، تقول إنّها تتكركر من الملامسة وإنّ السكّر يذوب من شدّة سخونتها. تعلن كلّ مرّة أنّها تتحسّس من تلك المنطقة، ولا تخفي استغرابها من ذلك، وحين تنهي أمّي إزالة الشعر عن جسدها،

وتختم بضربة خفيفة على مؤخّرتها، قائلة لها: «هيّا إلى رجالك الملاعين»، تبتهج، وتشعل سيجارة لأمّي، وأخرى لها، ثمّ تخرج محفظتها القماشية وتنقد أمّي أكثر ممّا تفعل نساء الحارّة كلّهن.

الوردة كريمة جدًّا. أستعيد كلمات أبي ورجال الحارة عنها، وما تناهى إلى ذاكرتي بشأنها من غمز ولمز، ومن توصيفٍ لكرمها بأنّه مبالغ فيه، وزائد عن حدّه، وتفسير ذلك بأنّها تحاول أن تغطّي به على تصرّفاتها الأخرى التي تسيء إلى سمعتها.

زوجة توفيقو تكبت ضحكتها، تشكو من عدم اكتراث زوجها للشعر الزائد على جسدها، وتقول إنّها فقدت الرغبة في النتف، ويكاد يغمرها الشعور بأنّها بصدد التحوّل إلى رجل لفرط إهمال هذا الجسد، لكنّ أمّي تخفّف من مشاعر الأسى لديها، وتهدّئ من روعها وهي تنتف حواجبها، وتزيل الشعر عن جسدها، وبين المنطقة والأخرى تدغدغها وتقول لها إنّها بالتأكيد تشتاق إلى تلك الأيّام التي كان توفيقو يدلّلها فيها ويغنّجها.

ومن وقت إلى آخر كنّا نزور برازق في بيتها. فتسدل الستائر، وتحرص على أن يكون البيت خاليًا تمامًا، لأنّها لم تكن تتمالك نفسها بين يدي أمّي، فتنزلق بجسدها مُحاوِلَةً الإفلات من خيوطها وسكّرها كطفلة صغيرة تهرب من يدي أمها في الحمّام، لكنّها سرعان ما تستجمع طاقتها وتعود متلوّية مقرّرة البدء من جديد بعد كلّ نوبة ضحك هستيريّ يتلبّسها جراء إزالة جزء من شعر عانتها.

كانت ضربةُ الكفّ المازحة من أمّي على المؤخّرة إشارةً إلى انتهاء عمليات النتف والإزالة، وإيذانًا بإشعال سيجارة والاستمتاع بكأس

شاي، وتمهيدًا للخوض في نقاشات جانبيّة أو مواضيع وأخبار تتعلّق بأهل الحارة، والمتردّدين عليها.

أخبار المرأة الغائبة هي ميدان تخمين زبونات أمّي كلّ مرّة. والوردة مركز تلك الأخبار والإشاعات، لكنّها كانت تتجاهل كلّ ما يُشاع عنها، وتكتفي بالقول إنّ النساء يغرن منها، وإنّهن يخشين على أزواجهنّ، وتعلن كلّ مرّة أنّها قد غسلت يدها من رجال الحارة، وأنّهم بالنسبة إليها مثل إخوتها، فلا داعي إلى خوف النّسوة على رجالهنّ منها. ثمّ تتساءل بتعجّب: «هؤلاء رجال..!». وتطلق ضحكتها الشهيرة.

لا أريد أن ينتشلني أحدٌ من قعر حياتي، فلا شكّ أنّ العتمة التي عشتها أقسى من تلك التي أنا بصدد المضيّ إليها والغرق فيها.

لا أبحث لنفسي عن إجابةٍ لسؤال ما إذا كنتُ عشبةً ضارّةً في فردوس مخادِع مُضلّل أم لا، فمعظم من أتذكّرهم كان يَعُدّ الآخر عشبةً ضارّة في فردوسه. يلقي عليه باللوم لأنّه عكّر صفو أيّامه، ولولا حضوره الباهت لكانت حياته فردوسًا دائمًا متجدّدًا.

في عُرف مَن حولي كنت شيئًا، لا شخصًا. اعتاد الجميع على حضوري كقطعة أثاث تكمّل ديكور المكان لا غير. كنت عكّازة أمّي، وعيون أبي، وبعدها أصبحت ظلّ أختي اللامرئيّ، أسيح معها في أفكارها، فأشعر بأن قوّتها تعوّض انكساري وضعفي.

بمرافقتي لأبي أثناء جولاته في البلدة سابقًا، وحضوري مجالس الرجال معه، في السوق والمقهى والجامع وباقي الأمكنة، دخلتُ عالم الرجال باكرًا، ففقد هيبته وغرابته في عينيّ، كنت أتذكّر، وأنا في

مجالس الرجال أحاديث النساء التي لا تتوقّف عن أولئك الرجال، وأسأل نفسي، مستغربةً، عن سرّ عدائهنّ الشديد لذلك العالم من جهة، واهتمامهنّ بكلّ تفاصيله من جهة أخرى.

لا أنسى يوم الجمعة المشؤوم ذاك، حين أشار إليّ الشيخ بعصاه وهو يستقيم على المنبر آمرًا بإخراجي من الجامع وهو يقول مستنكرًا: «ماذا تفعل هذه العشبة الضارّة في هذا المكان الطاهر..؟» توجّه الحشد إليّ بأنظاره إلّا والدي موروي الأعمى، فقد ظلّ وحده تائهًا يدير رأسه إلى حيث لا يدري، يحرّك جسده ويبحث عن عصاه، يهمهم باحثًا عن كلمات تبدّد الموقف فيتعذّر عليه إيجادها، وهو الذي كان يكرّر دومًا أنّه لا يخجل من شيء أو من أحد، وأنّ الله سلبه نعمة الحياء مع ما سلبه من بصر. بادر عدد منهم لإخراجي من الجامع بازدراء. التقط الصوفي محو عكّازة أبي، وضعها في رقبتي وهو يسحبني إلى الخارج، ويستعيذ بالله من شيطاني، منبّها المصلّين إلى ضرورة الابتعاد عن طريقه كي لا ينقض وضوءهم، وأنا حائرة لا أدري ما أفعل. لعنت الشيخ الخبيث الذي سلّط عليّ الأضواء، ولفت إليّ الأنظار، وجعلني محور حديث الناس يوم الجمعة وما تلاه من أيّام.

كنت إذا عنّ لأبي أن أوصله إلى الجامع أقف عند بابه الخارجيّ، إلى جانب الشحّاذ داود كي فلا يتردّد في طردي بعيدًا عنه، كي لا يظنّ الناس أنّي أنافسه في الشحاذة، لا سيّما أنّ هيئتي المزرية كانت تثير شفقة من يلمحني بالمصادفة، فأنا عادة لا ألفت نظر أحد، لا حين أقف في مكان ما منتظرةً أبي، ولا حين أمضي في طريقي مرافقة إيّاه

كعكّازة أو كشيء لا غير.

ألملم أصداء الحكايات التي تجتاح شريط الذاكرة، وأنا أغوص أكثر فأكثر في أعماق هذه العتمة. الماء أثقل من كلّ الهموم، يوصَف بباعث الحياة، وهو ليس سوى بابٍ مشرع على الموت لا يكفّ عن الترحيب بالآتين.

إذن، أنا عشبة ضارّة، ولكن أين فردوسهم المتخيّل..؟!

وشوم

لم يقبل عناصر الحرس أن أرافق أبي إلى داخل المفرزة. طلبوا منّي أن أنتظره حذو المدخل. كنت أتلقّف نظرات المارّة كأنّها صفعات تتتالى على وجهي، حاولت أن أتكوّم على نفسي وأتّقي أشعّة الشمس اللاهبة، وتلك الأعين الحارقة المحتقِرة.

هناك أيضا اعتبروني عشبة ضارّة يجب ألّا تدنّس فردوسهم الموهوم.

كم وددتُ أن أكون لا مرئيّة حينها أيضًا. المفارقة العبثيّة بعد كلّ حادثة أجد نفسي متورّطةً فيها من غير رغبة أو دراية أو تخطيط هي أنّني أغدو مرئيّة بل وفي مرمى نيران الألسنة وجنون الإشاعات.

لعنت أبي الذي أراد أن يشتكي من أجل تقديم موعد تركيب خطّ الهاتف الأرضيّ. ثارت ثائرته حين أخبروه أنّ عليه ألّا يفكّر في خطّ الهاتف قبل مرور عشر سنوات على تقديمه الطلب. احتجّ وأراد أن يتشكّى عند «المساعد أوّل»، وكنت أنا وجه القباحة في تلك الحادثة أيضًا.

أعاودُ تركيب الحكايات المتداولة عن «المساعد أوّل». أحاول بناء حكايتي عنه. أعرف تفاصيل بيته، واطّلعت على بعض أوراقه التي يحتفظ بها في غرفته الخاصّة وعليها دوّن إشارات وملاحظات.

ساعدتني جولاتي مع أبي في عالم السوق، والمقاهي، ومجالس الرجال على اقتحام ذلك العالم والتعرّف إليه، وأنا أتمترس خلف عمى أبي وأتكوّر على ذاتي ككتلةٍ لا شكل لها. وقد كان صمتي أو ما تبدّى لهم خرسًا من أحدّ أسلحتي الدفاعيّة، والاستكشافيّة معًا.

كنت أكمل الصورة الناقصة أثناء جولاتي مع أمّي، وخلال مساعدتي لها، سواء في البيت أو في الخارج، فتتجلّى لي التفاصيل الكثيرة التي تشكّل بنيان ذلك الخراب وتشيّد له حصونًا في رمال الأوهام.

بدأت لعبتي المفضّلة ببناء الحكايات اعتمادًا على التفاصيل والشذرات التي ألملمها من هنا وهناك لأعيد مواجهة العالم بها. إنّها وسيلتي للاستمرار وسط ذلك الجحيم الذي يظنّه كلّ نزيل من نزلائه فردوسا أسطوريًا، ليس الآخر فيه سوى عشبة ضارّة ينبغي اجتثاثها وتطهير فردوسه منها.

لم أكن وحدي تلك العشبة الضارة، كلّ منهم كان بدوره عشبة ضارّة في فردوس الآخر المتوهّم. خفّف عنّي هذا اليقين قليلًا، وساعدني على ترتيب حكاياتي بما يوافق هندسة الذاكرة، لا سياق الواقع المسجّل أو التأريخ المفترض.

يحلو لي بناء حكايات «المساعد أوّل» وأفكاره عن ترويض أبناء البلدة، ومقترحاته وتوصياته العدوانيّة، أستعيد صورته الماضية، كما صوّرتها لي روايات كثيرين من أهل البلدة وبصيغ شتّى وتفاصيل متعدّدة، أمضي به ومعه إلى هاويته التي ينحدر إليها، وأقتفي أثره إلى عماه السحيق.

جرجر حقيبته خلفه، ونظرة الانكسار بادية في عينيه، انتابه شعور بالندم، لأنّه اصطحب معه زوجته إلى مكان غريب لا يعرف عنه شيئًا.

كانت نحيلةً، خجولًا، يغطي النمش الأحمر وجهها الشاحب. لقّبتها النسوة ببرازق، وطغى اللقب على كلّ ما عداه، حتّى بات زوجها يُعرف بزوج برازق.

استأجر غرفة في حوش العجوز نازة، وحاول مرّة أن يخبرها بأنّه سيدفع لها الأجرة بعد أسبوع، فلم تفهم منه ما كان يقول ويقصد، لأنّها لم تكن تعرف من العربيّة إلا التحيّة والفاتحة التي تقرؤها مبتورة في صلواتها، وما إن حاول أن يشرح لها بالإشارات أنّ راتبه تأخّر، وأنّه لن يستطيع دفع الأجرة في موعدها المحدّد، بل قد يتأخّر أيّامًا، حتّى وجد نفسه ملقًى على الأرض، ونازة تنكّل به.

ظنّت نازة أنّه لن يدفع الأجرة مطلقا وبلمحة بصر انقضّت عليه، خمّشت وجهه، ألقت به أرضًا، وبدأت تولول وتصيح، حتّى تجمهر أهل الحارة في حوشها، فرأوا الدماء تغطّي وجهه، وثيابه ملطّخة بالوحل، ودمعة تمور في عينيه، وهو مرعوب، فيما زوجته منكمشة على نفسها ترتجف ذعرًا من نازة والمتجمهرين هناك.

لم تفسح نازة لزوج برازق أيّ مجال ليتكلّم، سارعت بإخبار أهل الحارة بأنّه لم يدفع لها أجرة إيجار غرفتها، وهي التي تعتمد عليه في تدبّر معيشتها. وبعد أن أنهت كلامها بصقت عليه أمام الجميع، وطلبت منه أن يلملم أشياءه ويخرج من بيتها بأقصى سرعة.

أخذ أبو محمود المرزبانيّ بيد زوج برازق، أشفق عليه حين رآه

مخمّش الوجه، كسيرًا، ذليلًا، مرعوبًا، في تلك الحالة البائسة، استفهم منه عن سبب عراكهما، وفهم أنّ هناك سوء تفاهم بينهما. شرح لنازة أنّه لا يقصدُ عدم إعطائها الأجرة، بل إنّه سيفعل ولكن بعد أيّام لأنّ راتبه قد يتأخّر.

لم تعتذر نازة عن انقضاضها عليه وتخميشها وجهه، بل بصقت عليه مرّة ثانية، وقالت أمام الجميع إنّها ستصبر عليه من أجل خاطر زوجته برازق.

سرَت حينذاك همهمة وعلت ضحكات متقطّعة بين الحشد.

لطّف أبو محمود المرزبانيّ لزوج برازق ما قالته نازة، أخبره بأنّ الأمر بسيط. سيدفع لنازة بدلًا منه، ويمكنه تسديد المبلغ حين يستلم راتبه، وهو مستعدّ فوق ذلك لإعطائه أيّ مال يحتاج إليه. قال له: «إنّك غريب يا بني، وضيف بلدنا، ونحن نحترم الغرباء والضيوف».

لم ينسَ «المساعد أوّل» تلك الحادثة، ظلّ يستعيدها بين الفينة والأخرى كلّما تذكّر أيّامَهُ الأولى في البلدة، وذُعرَهُ الملازم له، وبُكاءَ زوجته الدائم وشكواها من حملها على مرافقته إلى مكان غريب لا تفهم شيئًا من لغة أهله.

كان يدرك أن كلّ الناس في البلدة ينظرون إلى عناصر الأمن بريبة، ويرفضون إدماجهم أو -اندماجهم- في نسيج المدينة الاجتماعيّ، لأنّهم يظلّون غرباء عنها، يتجاوزون حدود الضيوف بالتعدّي على الأهالي، ورغم إتقان بعضهم بمرور الأيّام اللغة الكرديّة، وإتقان أبنائهم لها تبعا لذلك بطلاقة، وتمكّنهم من عقد علاقات صداقة مع بعض أبناء البلدة، فإنّهم ظلّوا غرباء عن روحها. جيل الأبناء

كان يشعر بانتمائه إليها، وكلّما زار مدينته الساحلية أو الداخلية يشعر بالغربة عنها، وبالحنين إلى البلدة.

يستعيد «المساعد أوّل» ليالي منع التجوّل في البلدة في الثمانينيات من القرن العشرين، وكان عوده حينذاك قد اشتدّ، إذ مرّ على مكوثه هناك أكثر من عشر سنوات، تعرّف خلالها على أسرار البلدة وأهلها، وتغلغل في تفاصيلها وكشف خباياها أكثر من أهلها أنفسهم.

يتذكّر كيف دخل إلى بيت نازة تلك الليلة، وكان يحفظ الحوش شبرًا شبرًا، ظلّ محتفظًا بتفاصيله في ذاكرته، رآها بائسة في غرفتها الموحشة الباردة التي لم يتبدّل فيها أيّ شيء. كانت في زاويتها المعتادة مغطاة بلحافين من الصوف. سلّط عليها مصباحه اليدويّ، فأغمضت عينيها الواهنتين، ظانّة أنّ أحد الجيران قد جلب لها شيئًا للعشاء، فقد اعتادت تصدّقهم عليها بالغداء أو العشاء بشكل يوميّ تقريبًا.

قالت له: «ضعه هناك في الشبّاك يا بني».

لكنّ حزمة الضوء ظلّت مسلطة على وجهها المزيّن بوشوم على الأنف والذّقن والجبهة، وشوم بدت كرسوم غريبة من زمن غابر، أصبحت جزءًا منها، يستحيل تخيّل وجهها من دونها.

في البداية خاطبها بالعربيّة قائلًا إنّه لن يستطيع أن يعطيها الأجرة، ثمّ أردف بكرديّة ركيكة أنّه جاء ليدفع لها دَيْنًا قديمًا. عرّفها بنفسه أنّه «زوج برازق». فاجتاحتها رجفة سريعة ولم تسعفها قواها للتحرّك، كان ضعفها أقوى من أيّ مقاومة محتملة. لمس شعرها الشائب الخفيف، كانت جديلتاها الرقيقتان تعكسان ضعفها ووشومها

النافرة تلمع تحت تأثير ضوء المصباح المنعكس عليها. وبهدوء حمل المخدّة المجاورة لها ووضعها على وجهها. لبث دقائق حتّى تأكّد أنّها فارقت الحياة. ورتّب اللحاف بتوتّر وعجلة، بعد أن غطّى به وجها خشي أن يتفرّسه مليًّا. اجتاحه الذعر، شعر بها تخمّشه، سارع بالخروج من الغرفة، أطبق الباب وراءه، وذهب إلى سيّارته التي كان قد أوقفها على بُعد شارعين.

لم يخطر ببال أحد من أهل الحارة أنّ نازة ماتت مقتولة. فقد كان موتها احتمالًا واردًا بحكم مرضها وعجزها.

السلاسة التي تمّت بها عملية الانتقام من نازة أثارت لديه شهوة القتل، بدا وكأنّه تمرّن على تلك الطريقة وارتاح لها. ولم يجبر نفسه على البحث عن أسباب مقنعة لما سيقدم عليه من تصفيات بحقّ أبرياء لا ذنب لهم سوى أنّ المصادفات وضعتهم في طريقه.

في الأسبوع التالي استغلّ «المساعد أوّل» بقاء أبي محمود المرزبانيّ وحيدًا في بيته، بعد أن زوّج ابنه الذي استقلّ ببيت خاص قريب منه. كان يعرف أوقات ذهاب أبي محمود فجرًا إلى الجامع قبل غيره. العجائز لا ينامون، كأنّهم يستغلّون الوقت القليل المتبقّي لهم في الحياة.

في الأشهر الأخيرة بدأ المرزباني يعاني من نوبات ربو تجتاحه، فيضيق نفسه، ويسعل حدّ الاختناق أحيانًا.

كمن له «المساعد أوّل» في زاوية المقبرة المؤدّية إلى الجامع من الجهة الغربيّة، غافله من الخلف، وضع كيسًا على أنفه وفمه وضغط، لم يُرد أن يرى عينيه في ذاك الفجر. ارتعش الرجل لثوانٍ بين يديه ثمّ

همد وسقط أرضًا. وضع يده على صدره جاسًا نبضات قلبه، وبعد أن تأكّد من موته، سارع بالهروب إلى سيّارته والذهاب إلى مفرزته.

في تلك المرّة أيضا لم يثر خبر موت المرزبانيّ أيّ استغراب في البلدة، فقد كان عجوزًا هدّه المرض.

حرص «المساعد أوّل» على الانتقام من الماضي وشخصيّاته، لأنّه لم يستطع نسيان الإهانة التي لحقته. لم يغفر لنازة أنّها علّمت زوجته التحدّث بالكرديّة قليلًا، إذ ظلّت تحدّثها بها طيلة الأشهر التي مكثت معها، ولم تكن برازق تخالط أحدا، لذلك استفادت من نازة وتعلّمت منها عددًا من المفردات والجمل، وبدأت تفهم سياقات الأحاديث. ظلّ يشعر أنّ نازة لعنته التي تذكّره بالإهانة التي لن يستطيع الإفلات منها إلّا بقتلها.

أمّا المرزبانيّ فقد أهانه إهانة من نوع آخر. كان يشعر بأنّه أهانه بالشفقة عليه، كان يرى في شعور الشفقة إيذاء يفوق الإهانة نفسها، لذلك قرّر التخلّص منه، وقتل تلك المشاعر الدفينة التي تعاود التأثير فيه كلّ فترة، وتبقيه مقيّدًا بالإهانات واللعنات. ولن ينسى إهانة ابنه، ودفعه إياه إلى طلب استرحامه وإلى التوسّط له، على سبيل إعادة دَين أبيه يوم أشفق عليه، ولكن على طريقته الخاصّة.

بدأت ترقية زوج برازق فجأة، بعد أن غاب أيّامًا عن البلدة ولم ينتبه إلى ذلك أحدٌ. كان قد ذهب مع كفجال في مهمّة بإحدى القرى على الجهة الأخرى من الحدود. وهناك تقمّص شخصيّة شابّ مطلوب هارب من المخابرات. كان المطلوب تصفية أحد الشيوخ المعارضين والتخلص منه على أن تبدو العملية كأنّها تصفية حسابات

بين الشيوخ المتصارعين على زعامة الطريقة.

كان ذاك الشيخ قد استقرّ في قرية كري كُليا، فأقام في غرفة تابعة لمسجد القرية، وتكفّل الأهالي بمأكله ومشربه، وسعدوا بإقامته بينهم، وتغاضت السلطات التركية عن نشاطه المحصور في الجانب الدينيّ فقط، واحتفظت به ورقة من أوراق الضغط والتأليب على النظام، إذ أنّ آراءَهُ الدينيّة المغيّبة للجانب القوميّ تروق للسلطات التركيّة وتتقاطع معها في سياساتها وتعاطيها مع الكُرد هناك.

زعم «المساعد أوّل» وكَفجال اللجوء إلى الشيخ. وصلا إلى غرفته بعد منتصف الليل وقدّما نفسيهما على أنّهما هاربان من بطش النظام اجتازا الحدود خلسة، فاحتفى بهما الشيخ ووضع لهما بعض اللبن والجبن والبيض، وبعد أن أكلا وشربا الشاي، طلب منهما أن يمدّا لنفسيهما الفراش في الغرفة نفسها.

بعد أن مكثا في الفراش قليلًا، انقضّ «المساعد أوّل» في لمح البصر على الشيخ، وضع المخدّة على وجهه، وجثم على صدره، ومن ثمة ساعده كَفجال في تثبيت جسد الشيخ بمسك يده ومنعه من الحركة. حرصا على أن يظهر الأمر وكأنّه ميتة طبيعيّة، ثمّ بعد أن تأكّدا من موت الرّجل، أعادا الفراشين إلى محلّيهما، وسارعا بالخروج قبل الفجر.

وبعد أن عبرا الحدود من النّقطة نفسها التي سبق أن دخلا منها تخلّص «المساعد أوّل» من كفجال بطلقة في ظهره ليبدو الأمر وكأن حرس الحدود هم من فعل ذلك.

وهكذا بدأت ترقية «المساعد أوّل»، وبدأت سلسلة إنجازاته.

بيت الشعب

كنت أستمتع بمرافقة أبي إلى المقهى. أستمتع بلامبالاة الرجال بي وبتمكّني من قراءة الجريدة المرمية هناك. أقضي الساعات التي يستغرقها والدي مثرثرا مع العاطلين في قراءة ما يقع تحت يدي. وأكتشف في تلك الأخبار عالمًا رحبًا غير عالم البلدة.

هل هذا ضوء يتسرّب إلى عينيّ؟ ألم أغرق بعد؟ هل عدتُ من غرقي؟ هل أقدم أحدهم على انتشالي من الحلم والغرق؟

أشعرني الحضور الآسر لجيمي بسلطة معنويّة في داخلي، كنت أراقب عيون الرجال تكاد تلتهمها وهي تتمايل على الشاشة. كم استمتعت وأنا أسمع أبا مأمون يلعن غباءه، ويرثي فقدانه لجيمي مؤكّدا أنّها كانت تعشقه، وأنّه رضخ للضغوطات التي مورست عليه من قِبَل شركةِ الإنتاج ومديرِها المخرج الشهير بـ«ضابط أمن الدراما»، إذ كان يستمدّ سلطاته من نفوذه الأمنيّ.

حين هندس والدي موروي الأعمى بلدة المنارة بطريقة دورانيّة كان بذلك يصمّم فردوسه الخاصّ به، معتبرًا الأمكنة الأخرى جحيمًا له ولجيمي. وفردوسه هذا متاهة حقيقيّة، أبوابٌ مطلّة على ساحة صغيرة، وبعدها ممرات طويلة إلى البيوت. ولقد رفض الخروج من تلك البلدة التي لُقّبت بالمغارة، وكنت أسمّيها منارة الخراب. اختصر

مستقبله هناك، وطلب منّي المغادرة وملازمة أختي، أمّا أمي فبقيت هي أيضًا رافضة ترك مملكتها.

حقّقت أمّي بهو في المنارة حضورها المنشود. لطالما اعتبرت نفسها سيّدة راقية، ذات مال وجمال، في حين كان يتمّ التعامل معها بوصفها العرجاء زوجة الأعمى. وغالبًا ما كانت تضافُ إلى صفة العرجاء صفات أخرى تنال منها.

وحين استلمت الدكّان وأدارته وهي جالسة على كرسيّها. كانت تلقي تعليماتها وأنا أنفّذها بدقّة. هي تستلم النقود من الزبائن، وأنا أسلّم لهم البضاعة، دون أن يسمع أحدهم صوتي، حتى ظنّني الجميع خرساء، وتعاملوا معي على هذا الأساس. لم أكن أكترث لظنونهم، عشتُ ظلًّا لحركات أمي وأبي وجيمي وصدى لرغباتهم، ولم أفكّر في التمرّد أو تغيير الدور الموكول إليّ في دائرة العبث التي ألقيت في أتونها.

وكانت إذا ما استلمت أقساط بعض البيوت أو أيّ أجرة أخرى، تجمعها وتعيد إحصاءها مرّة بعد مرّة، وأنا أدوّن لها في الدفتر ما حصلت عليه، وبعد أن تؤمّن على النقود، وتصنّفها وفق فئاتها، تُربّت عليها بحنان وعشق، كأنّها تُربّت على ظهر طفلها الصغير، ثمّ تجتاحها نوبة رقص هستيريّة وهي في مطرحها على الأرض، تتلوّى كأفعى، وإذ يسري تيّار الهزّ من الأكتاف إلى الصدر فإلى الخصر، تستند إلى يديها، وترفع مؤخّرتها وتهزّها يمنة ويسرة، لتعود بعدها إلى تحريك صدرها وتتبّع حركات نهديها وهي تسرّع الإيقاع، قبل أن ترتمي على ظهرها مطلقة شهقة طويلة، متبوعة بضحكة رضى وسرور.

كنت أسمع كلمات أهل المنارة عن انعدام الشَبَه بيني وبين أختي، وكأنّ الواحدة منّا غريبة عن الأخرى، هي بملامحها الساحرة اللافتة وأنا بقامتي القصيرة وجسمي الممزوج من الطفولة والذكورة، الخالي من أيّ تفاصيل أنثويّة مميّزة، وبشرتي السمراء، وربطة شعري التي لم أغيّرها لسنوات. وكأنّ الزمن عندي معطّل.

أذكر أصداء الحكايات وبقايا القصص، نثار البدايات وسراب النهايات. لا أكترث لتسلسل منطقيّ، لا أتقيّد بالزمن والمكان. أنتقل من هذه الشخصيّة إلى أخرى دون أيّ شعور بالذنب أو إحساس بالغبن تجاهها.

الذاكرة ميدان حرّيّتي، أعيد ترتيب العالم حسب رغبتي، وحسب الصور التي تتواتر عليّ، من دون أن أستدلّ على أسباب انهمارها من مختلف زوايا الذاكرة، ومن عتماتها التي كنت أظنّها مدفونة في صحراء حياتي الماضية. كنت مقبرة متنقّلة.

مع تحسّن الأمور، وتضاعف عدد المهاجرين إلى المنارة، بدأ الوافدون الجدد يقدّمون خدماتهم لأبي حتى استغنى عن خدماتي خارج البيت، وبدأ يتعكّز عليهم في تنقّلاته داخل المنارة، مع أنّه لم يعد في حاجة كبيرة إلى أحد، فقد حفظ تفاصيل المكان بدقّة متناهية، ويمكنه أن يمشي دون حاجة إلى مرشد أو عكّازة، لكنّ افتقاده الرفقة أثناء المشي، جعله يحرص على وجود أحدهم معه، لينقل له مشاهد الخارج، كان يحتاج إلى عيون يتكئ عليها، أكثر من حاجته إلى أيّ عكّازة.

لم يكن دكّان أمّي يخلو من نساء يحاولن تقديم خدماتهنّ لها، ويتحرّكن تبعًا لأوامرها. وكان ذلك يخفّف عنّي كثيرا، ويفسح لي

مجالًا للانعزال أكثر، والانكباب على القراءة.

بعد أن حصلت وجيمي على شهادتيْ التاسع والبكالوريا، اخترت قسم الفلسفة، القسم الذي كان يوصَف من قِبَل كثير من الطلبة والناس بأنّه قسم تخريج المجانين. هناك أيضا كنت أنسلّ من دون إشعار أحد بوجودي، ومرّة أخرى ساعدني حضوري الباهت الذي لم يكن ليلفت انتباه أحد وسط جموع الطالبات الفاتنات.

اكتفيت بعالم الكتاب والقراءة وشكّلت المكتبة ملاذًا آمنًا لي. فأمضيتُ فيها معظم وقتي، ولم أحتج إلى اختبار صوتي، وكأنّني ركنتُ إلى فرضيّة أنّني خرساء، وارتحت للدور. كنت أتساءل: ما الذي سيضيفه صوتي إلى آلاف الأصوات التي تعكّر الهدوء من حولي؟ بدأ عالمي يتبلور تدريجيًّا بعيدًا عن المنارة، وعن أبي وأمّي المشغولين بمتاهاتهما، وبالمهاجرين الجدد، وقد عثرا على ما كانا يفتقدانه من حضور وسلطة.

جيمي التي كان يقال عنها في البلدة إنّها ابنة خورتو، وليست ابنة موروي، بدأت هي الأخرى تعيد صياغة عالمها. تدخل أنفاقًا جديدة، وتبدّد العتمات التي نشأت فيها بعتمات جديدة تحجبها الأضواء وتخفيها عن الأعين.

لم أكن أتأسّف على تساوي غيابي وحضوري لدى أسرتي. كلّ واحد عثر على ما يبقيه مشغولًا عن ذاته ومحيطه، وأنا بدوري عثرت على ما كنت أبحث عنه. عثرت على صوتي الذي ينبغي أن أكتبه، والدرب الذي يفترض أن أسلكه للتعبير عن حكايات المقبرة، وعن صور ما انفكّت تداهم الذاكرة.

سأستعير أصوات الآخرين، سأستنطقهم، وأتحدّث بلسانهم، سأتقمّص شخصيّاتهم، وسأبوح بجانب من مكنونانتهم، اعتمادًا على معرفتي بهم وبتفاصيل حياتهم. كنت الشاهد اللامرئيّ على كلّ ما من حولي. كنت شيطان الحكايات أتخلّل المجالس دون أن ينتبه أحدٌ لوجودي.

كان محجوب مشغولا بالبحث عن منصب في البلدية. يواظب على تشمّم المستجدّات وتسقّط الأخبار وكتابة التقارير، ليقوم بإرسالها إلى عدّة فروع أمنيّة.

«إن لم يعثر على مَن يشي به فسيشي بنفسه». هذا ما يقال عنه لشدّة تفانيه في عمله، مخبرًا صغيرًا وخادمًا للمفارز الأمنيّة، كوفئ على أعماله وتقاريره بوظيفة مؤقّتة، كانت عبارة عن عقد مع مؤسّسة الحبوب يجدّد كلّ بضعة أشهر. كان يضطر للبقاء بعيدًا عن البيت وحين يعود لا يلبث أن يتناول طعامه ويستحمّ ثمّ يسارع بالذهاب إلى المقهى ليستكمل عمله وهوايته: جمع الأخبار وكتابة التقارير.

«المقهى الأكبر في بيته وسوق الأخبار والمستجدّات في مطبخ زوجته فلماذا يتعب نفسه بالبحث عنها..!». ذاك ما كان يتندّر به بعض الزبائن، وبعضهم عناصر من المفرزة ممّن يرفع إليهم تقاريره.

كانت سيّارات الأمن والشرطة ودرّاجات العناصر الناريّة دائمة الزيارة إلى بيته، سواء في وجوده أو في غيابه. حتى صار بيته يوصَف بأنّه مرآب عموميّ للدولة. وإن لم يجهر بذلك أحد من الجيران ففي العلن كانوا يكظمون انتقاداتهم المبطّنة، ويرسمون الابتسامات إذا ما صادفوا أحد الداخلين إلى بيت جارهم، أو أحد الخارجين

منه. شأنهم مع الجارة الكريمة التي كانت تسدّ أفواههم بأعطياتها. فتشتري صمتهم، وتؤجّل التصادم معهم، وتفرض عليهم احترامها وتقديرها.

بريندار وحده كان يحظى بمتعه الفريدة، يحكي لأصحابه قصصه الساحرة، وكأنّه عائد من عالم آخر. كان يختصر لهم أجواء «بيت الشعب» كما بات يطلق عليه، بقوله: «إنّه سوق يا شباب.. سوق بكلّ معنى الكلمة.. يعرف فيه الناس بعضهم بعضًا.. الأسعار معلومة، والمساومات ممنوعة.. وكلّ طرف يعرف حدوده، وما له وما عليه. سوق يحتاج إلى معرفة وخبرة وتجربة ومغامرة، وإلّا ستخسرون كثيرًا وقد تحلّ عليكم كوارث قاتلة».

كنت أشعر بأنّه يفضّل ألّا يحكي قصّة الأمّ وبناتها كثيرًا، إذ أنّها، على الرغم من واقعيّتها، قد تؤذي مشاعر الناس الراغبين في إغماض أعينهم عمّا يجري من حولهم. أو قد تقرن حكايته بخدش الحياء. وإزاء ذلك كان يقهقه وهو يقول: «يا لطبقة الحياء الرقيقة الشفّافة التي يخدشها التصريح بجزء ممّا يعجّ به واقع السوق..!».

تتحوّل الحكاية إلى أداة لتشريح الذّات والمجتمع، تتخلّص من أعباء تقييدها بالمتعة والفائدة. تدخل عتمة الدواخل، تزيح النقاب عن المخبوء الكامن في التفاصيل. تروّض الشياطين وتطلقها في فضاء الخيال. هل يكون المرء أمام امتحان المواجهة وهو يشهر سكّينه ويشرّح داخله..؟!

بيت الكرم

لا أنسى مُطلقًا تلك الفسحة القصيرة على درّاجة بريندار الناريّة. أركب أبي خلفه، ووضعني أمامه لأنّ حجمي الصغير لن يعيق تحكّمه في الدرّاجة ولن يحجب الرؤية عنه. أعتقد أنّه لم يفكّر فيّ كأنثى البتّة وليس مهمًا إن فعل أو لم يفعل. المهمّ أنّني استرقت من غير تخطيط نشوة سحريّة داهمة، سرَت في جسدي وكادت تفقدني وعيي.

هل كنت طفلة حينها؟ وهل لي أن أحدّد عمري وأنا بهذا الشكل الغريب؟ مَن قال إنّ الأطفال مجرّدون من تلك الرغبة التي لا يعرفون لها تسمية أو عنوانًا؟

ظللتُ أتخيّل نفسي في حضنه وهو يقود درّاجته الناريّة بين حقول القمح والدروب الترابيّة على تخوم البلدة. كنت أراقب نظراته الشهوانيّة لجميلة، ومحاولته لفت نظرها بين الحين والآخر وكأنّه يخفّف من وطأة شغفه المكتوم بها عبر اقتحام غابة الوردة وبناتها.

كنت أتعجّب من سلوكه إذ بدا لي متناقضا تمامًا. فهو مع الوردة وبناتها شهوانيّ مغامر مجنون، ومع جميلة متردّد حائر خجول. وطبعا لم أكن ضمن سلسلة النساء اللاتي يثرن انتباهه.

بدأ بريندار بالصغرى، أقنعها بأنّه يعبدها ولا يطيق البعد عنها. أغرقها بهداياه البسيطة وكلماته الشهوانية. وهي أيضا كانت رغباتها

الجسديّة وغرائزها تضغط عليها، ترى ما حولها وتتأثّر بمشاهد كثيرة تحرّضها على دخول السوق الصغير، وعرض البضاعة، ومن ثمة الإيقاع بالزبون وجني الثمار.

اعتبر الصغرى بوّابته إلى أمّها وأختيها، دخل من الحلقة الأضعف، عن طريق المهرة التي يسهل ترويضها، أراد أن ينقذها بحبّه المفترض، قبل أن تتهيّأ لدخول السوق، فمصيرها أن تُصدم بحبّ أوّل يبرّر لها طريقها التالي، ويساعدها على فهم الرجال، وترويضهم.

كان يصف أمّها بالكريمة ويبرّر وصفه ذاك بقوله إنّها لو لم تكن كريمة لما منحت الرجال هذه المتع الرهيبة. ويشدّد على اعتبارها منقذة نساء الحارة. فهي تهدّئ غضب الرجال، وتعيدهم إلى بيوتهم وأسرهم مبتسمين هادئين.

الركوب عملية دارجة في سوق الجنس، كلّ طرف يتبادل الركوب مع الآخر، والكلّ مراكب نحو إرواء الشهوات، سواء كانت شهوة للمال أو للجنس أو للجنون. في عملية الركوب تتقاطع الغاية والوسيلة، ومنها يخرج مختلف الأطراف راضين سعيدين.

لا يدري سرّ وصفِ الفعل الجنسيّ بالفتك، أو بالهتك، طالما هو لذّة متبادلة لا يتأذّى منها أحد، وطالما هو اتّفاق بين طرفين راغبين في إتمام الصفقة. لمَ إذن يوصَف أحدهما بأنّه يفتك بالآخر، وكلاهما يغترف من بئر اللذّة نفسها، البئر التي لا قرار لها، الموصوفة تارة بالفردوس الجهنّميّ وتارة بالويل المقدّس.

بعد تمكّنه من الظفر بثقة أمّها عبر أكياس من الخضار والفواكه،

وعلبة عطر بدت غالية الثمن، تلاها زوج من الألبسة الداخلية المثيرة. كاشفها برغبته المستعرة، مؤكدا على أنّها أكثر أنوثةً وإغراءً من بناتها، وأنّ نضجها يفتك به، وينهشه جسدُها المشدود، وصدرُها المجسَّمُ لصورة الشموخ والسطوة، تلك الصورة التي يسميها رأس الهرّ، حيث ينتصب الصدر ويرتفع. عاد إلى الفتك في رحلة معاكسة.

لزجاجة العطر التي أهداها إيّاها حكاية أخرى.

كان جاره فَيْزي العامل في بيروت، قد جلب معه زجاجة عطر لاستعماله الشخصي، وحين لمحها بريندار استحلفه أن يعطيه إيّاها حين تفرغ.

لا يخفي بريندار شكّه في أن يكون فَيْزي قد سرق الزجاجة من سيّارة ما، أو من أحد المحلّات، ولعلّه عثر عليها صدفة، لاسيّما أنّه كان دائم القهقهة وهو يحكي له عن ثمنها الباهظ، دون ذكر قصّة حصوله عليها، مكتفيًا بالقول إنّها قصّة طويلة. وإنّها كانت مغامرة بطوليّة منه، ممجّدا شجاعته وتهوّره اللذين دفعاه إلى إتيان ما أتى، ولكنّ عطره كان يستحقّ المجازفة.

وما زجاجة العطر سوى مثالٍ بسيطٍ عن حركية السرقات في أسواق العالم. هي واحدة من أدوات الفتك في دائرة اللصوصيّة البرّاقة والسطو الأنيق. وكلّها في فلك السوق تدور.

قصد بريندار محلّ العطور الوحيد في البلدة. لم تكلّفه تعبئة زجاجة العطر سوى مبلغ صغير، لكنّه أبقى سعرها، المكتوب بالدولار، عليها. رمز الدولار يُغري، يعمي، يلهب، يثير، ويفتح الأبواب المغلقة.. هو محرّك الدواخل ومحرّض الأسواق.

كان الرقم كفيلًا بتأكيد فرادة العطر وقيمة الهدية. أهداها إيّاها بلا تغليف كي يستمتع بتأثير السعر الغالي المثبّت عليها. ثمّ أردف أنّه يتحرّق لاستنشاقه على جسدها الساحر.

قال جملته مرفوقة بإشاراتٍ من يده، وتحريكٍ لرأسه، وغمزٍ من عينه، وتمثيلٍ للشهيق والزفير ترك آثاره على صدره وفتحتي أنفه بل وعلى عينيه حتى بدتا كأنّهما تغزوان ثدييها وجسدها، وتجرّدانها من ثيابها كلّها.

زارها في الصّباح الباكر. فهو يعلم أنّ بناتها يتأخّرن في النوم، وأنّها تفيق قبلهنّ بساعات، لتؤدّي بعض المهمّات المنزليّة. وبينما كانت في المطبخ تتهيّأ لإعداد الفطور، انسلّ وراءها وشدّها من وسطها، ضمّها إليه ضاغطًا على مؤخّرتها، ممسكًا بصدرها من الخلف. لم يمنحها أيّ مجال لتتملّص من بين يديه.

«رائحة جسمك أروع من كلّ عطور الأرض.. عطر الجنّة يفوح منك.. أنت جنّتي..». يقول لها ثمّ، يضيّق عليها حصاره، من دون أن يفسح لها أي مجال لتقاوم أو ترفض. أشار إليها بالصمت، وهو في ثورته تلك، بين اضطرابه وتأجّجه واستنفاره. فرك ثدييها واحتكّ بمؤخّرتها في حركة عشوائيّة، مركّزًا الضغط عليها بعضوه المنتصب.

ألهبها بحركاته تلك. تنشّقت بعمق، تأوّهت وهي تقول له: العرق يزخّ منّي، لم يحدث لي مثل هذا منذ مدّة طويلة.

كلماتها تلك أثارته أكثر فأكثر. كان يصرخ من شدّة الشهوة واللذّة. انكبّ على عنقها يقبّلها قبلات عشوائيّة أيضًا. أدارها إلى الأمام. أخرج صدرها النافر ومصّ حلمتها، عضّها بقوّة أوجعتها.

صاحت به وهي مستثارة، كي يخفّف من عضّاته المجنونة لأنّه يكاد يقطع حلمتها. أسند ظهرها إلى الحائط، رفع فستانها، ودخل بها في عتمة اللذّة الصباحيّة المُسترقة من مطبخ سوق الأمّ.

شعر أنّه محارب عاد منتصرًا من غزوة خاطفة. عبّر عن امتنانه لها بقبل أخرى بعد أن أعاد ترتيب ثيابه. شكرته بدورها على ضخّه دماء جديدة في ثناياها. بعد ذلك أصبحت المعادلة واضحة، وغدا اللعب على المكشوف.

قسّم الأدوار والأوقات، في الصباح دور الأمّ، وفي الظهيرة والليل يتنقّل بين الأخوات بحسب وجودهنّ في البيت. ظلّ مستحوذًا على الصغرى أكثر من أختيها الأخريين اللتين لهما علاقات كثيرة، وزبائن دائمون.

غيّر فكرته الأولى بخصوص انتشال الصغرى من مستنقع أسرتها، وبدأ يكرّر المثل الذي يقول إنّ صغار الأفاعي لا تخلو من السموم.

بيوت

ستمضي ذواتي المتعدّدة بحكاياتي في متاهات الواقع وأنفاق الخيال. سأسند لأبطالي وشياطيني أدوارًا معيّنة وأسلبها منهم في الوقت الذي أريد. هنا فقط أمارس ترويضي لجنوني وأهدّئ من براكيني. هنا أمنح نفسي سلطة القرار وأكون حرّة في اللعب بالحيوات والمصائر.

أضع نفسي مع الشخصيات التي أحكي عنها، يحضر أبي بصورته في عيون الآخرين، وسيرته الواردة على ألسنتهم. هم أيضًا أحرار في رسم مصائرنا. يبدو أنّ الحكايات هي وحدها ميادين الحرّيّة في هذا العالم المعتم.

يسترجع بريندار سيرة البيوت وحكايات تعاقب سكّانها عليها. وكيف كان ذلك يصاحَب بإبقاء الأبواب مشرعة للفت الأنظار وللتنبيه إلى تغيّر الأصحاب وتغير المكان وأهله. ثمّ كيف بدأ الشباب يأخذون صويحباتهم إلى هناك، محوّلين المكان وكرًا للسكارى وللحيوانات الضالّة. حتّى أنّ أهل الحارة فضّلوا أن تسكنه قحابه السابقات على أن يخلو من أصحابه المؤقّتين.

البيوت كالبشر، لها ذاكرة تحتفظ بالجدران والحكايات والأسرار، تتحفّظ على الخبايا، ولا تنكشف بسهولة للمقتحم أو المتسرّع. في كلّ

زاوية سيرة، وفي كلّ تفصيل حكاية.

اشترى موروي الأعمى البيت بسعر مناسب، اعتبره صيدًا ثمينًا، فرصة. وكلّما روى قصّة شرائه البيت، شدّد على توصيف صفقته بأنّها «لُقطة»، للتدليل على أنّه صيد ثمين التقطه، سواء كان مردّ ذلك إلى المصادفة أو الحظّ، أو إلى اجتهاده في بحثه ونشاطه في التجوال والسؤال.

والقصّة أنّ ابن كلوكي، أو ابن القصيرة، حسب ما اشتهر به قد اضطرّ لمغادرة البلدة بعد الفضيحة المدوّية التي لحقته. ولنفهم الأمر علينا أن نعلم أنه كان يعمل طيلة النهار في حقل لخورتو مقابل نسبة من المحصول. وأحيانًا يجبر على المبيت هناك لحراسة الصناديق المملوءة في انتظار شحنها. زد عليه أنّه كان طيّبا حدّ السذاجة في تعامله مع مالك الأرض الدّائم التعطّر والاهتمام بهندامه، والمواضب على وضع كمّيات من المثبّت والملمّع على شعره. في تلك الليلة ترك صناديق البندورة والخيار في محلّها وغادر.

ومن أجل ذلك يتندّر موروي الأعمى بأنّه اشترى البيت من خورتو، لأنّ ابن كلوكي لم يكن يرى بيته إلّا كضيف، أمّا خورتو فهو المقيم شبه الدائم فيه. ويواصل ساخرا: يذكر أنّ أولاد ابن كلوكي يشبهون خورتو أكثر منه. وأنّ ناديكا هي كأرض خورتو بالنسبة لابن كلوكي، له فيها نسبة لا تتجاوز الخمس عشرة بالمئة ثمّ يقهقه وهو يقول: «وتلك المساحة لا تشمل وسطها».

وإذا سأله أحدهم كيف يعرف شبه أبناء ناديكا بخورتو أكثر من ابن كلوكي. يردّ بشيء من الاحتقان: «أمّك أخبرتني». ففي إجابته

تلك سبّة مضمرة تليق بتعبير سائله له بالعمى تورية حتى وإن تظاهر بالجرأة ولكن يحدث أيضا أن يستقبل موروي السؤال ببسمة أو ضحكة، فالأمر يعود إلى حالته النفسيّة، وإلى مقام السائل.

تختلف الردود باختلاف السائل، لكنّها تدور في فلك الغمز واللمز إلى الأمّ أو الأخت. وقد تكون مباشرة وصادمة حين يستفزّه أحدهم، فيردّ: «ألا ترى أنّي أرى بعضو أمّك..! اسألها عن ذلك».

لم يكن موروي يستحي، ولطالما كرّر على مسامع الحضور ديباجته الشهيرة:

«الحياء في العينين وأنا لا أرى أحدًا ما يعني أنّي لا أستحي من أحد أو شيء. مَن يستحي يجب أن يرى. أنا الذي حرمت من نعمة البصر، تخلّيت عن الحياء والخجل طوعًا كي أستطيع الدفاع عن نفسي في عالم الوحوش، وفي سوق اللصوص. حيثما أريد أتبوّل. أقول ما أريد. مَن يودّ التلصّص عليّ ومراقبتي فليفعل. أنا أعلن للجميع بأنّي أسترق السمع. ألا يقال إنّ كلّ ذي عاهة جبّار؟ لقد عوّضني الله عن الرؤية باللسان والسمع. والطريف أنّ هناك أغبياء يصفونني، أنا الأعمى، بذي العين الضاربة، القاتلة، في غمز من قناة الحسد، وأنّني أصيبهم بالعين. وأيّ عين..!» ويختم الأعمى لحظات بوحه بضحكة تهكّم ثم يعود إلى قصته يكملها:

«كانت ناديكا هبة شباب الحارة ورجالها، لكنّ خورتو احتكرها لنفسه، كما احتكر البندورة والخيار. ومع ذلك ظلت تجود على بعضهم بين الفترة والأخرى من منطلق الوفاء لذاتها وجسدها ولأيّامها السالفة معهم كعشّاق سابقين وزبائن موسميّين.

غادر ابن كلوكي إذن في تلك الليلة، والشاحنة التي يفترض أن تنقل صناديق الخضار نقلت أثاث بيته، وأولاده. طلب مني أن أعطي المبلغ المتبقّي للخضرجيّ نمرودو الذي سيتكفّل بإيصاله إليه.»

لم يسأل أحد من أهل الحارة الأعمى عن مصدر استقائه معلوماته، ولا عن التفاصيل التي يسردها، كما لم يسألوه عن مكان قدومه وأسباب انتقاله إلى حارتهم، لأنّ الأخبار لم تكن تنتظر لتصل، بل كانت تسبق صاحبها. والخلاصة أن أهل حارته السابقة تشاطروا عليه، واتّهموه بعرضه، ثم أجبروه على المغادرة والرحيل. «تصوّروا أنّهم اتّهموا بهو العرجاء المسكينة المغلوبة على أمرها بأنّها قحبة. اللّعنة عليهم. حارة القذارات كلّها». يقول ساخطا ثم يشرع في إيضاح ما يصفه بالأسباب الحقيقيّة للاتّهامات التي طالته: «كانت هناك مؤامرة حيكت ضدّي من جاري الطامع بوضع يده على بيتي، لتحويله إلى دكاكين وعيادات، نظرا لموقعه المميز». ثمّ لا يخفي أنّ جاره دفع ثمن البيت كاملًا، ولم يستغلّ الاتّهامات ليسترخص أو ليدفع له نصف قيمته. فيمدحه ويذمّه في الوقت نفسه قائلا: «إنّ الجشع يعمي البصر والبصيرة. الطّماع هو الأعمى الحقيقيّ ولست أنا. أنا الأعمى المجازيّ لا غير».

وفي النهاية يشير إلى أنّ الله عوّضه عن بيته السابق بيتًا أكبر مساحة وأرخص سعرًا. وفي تملّق لأهل الحارة ومداهنة لهم يضيف: «وبجيران طيّبين كرام مثلكم».

سمسرة

ما كان يحكيه موروي الأعمى سيُحكى عنه لاحقًا مع تعديلات وإضافات تناسب حكايته وضجيجه في الحارة.

«الجزاء من جنس العمل يا موروي. احذر اتّهام الناس في أعراضهم من دون أدلّة. استر عيوب الناس ستر الله عيوبك. لا تشهّر بالمحصّنات حتّى ولو رأيت بعينك».

لم يكن يلتفت إلى تحذيرات نمرودو وهو الذي كان يحظى لديه بتقدير خاصّ حدّ السماح له بنقده من دون أن يردّ عليه أيّ سباب أو وقاحة. كان يتجاهل وصاياه ويتناساها مكرّرا المثل الرائج «رجعت حليمة لعادتها القديمة». أو «الطبع يغلب التطبّع». أو «الطبع تحت الجلد». وأمثال أخرى بالكرديّة والعربيّة كي يسدّ الطريق على منتقديه، ويظهر لهم معرفته بما يفكّرون فيه.

-كأنّ هذا البيت منذور للقحاب.

-القحبة ضرورة للحارة تحفظ توازنها وتبقي رجالها متوازنين. فهي مجال لإفراغ شحناتهم وإلقاء أوساخهم في مراحيض عمومية.

-بيت القحبة محطة الحارة. وكر الأفعى المفرّغة للسموم. ملتقى الشهوات والغرائز.

-الحقير خورتو خلق إرباكا وبلبلة بحرمانه شباب الحارة من ناديكا واحتكاره لها.

كان كلّ امرئ يطلق تصريحه ويمضي، زاعمًا الدقّة وصواب الرّأي. وجلّ التعليقات عن ضرورة وجود متنفّس دائم لرجال الحارة وشبابها، كي لا يتعدى بعضهم على بعض.

أما مقولة «تسع وتسعون بالمئة من نساء البلدة شراميط» التي سمعها موروي من أحدهم، فهي آخر ما يستنجد به حين يشعر بالمحاصرة من قبل منتقديه، مؤكدا على أنّ الواحد بالمئة التي لم يشملها بالشرمطة هي كوّة أمل كي يشعر كلّ رجل بأنّ نساءه من ضمن تلك النسبة.

العرجاء أكرم من ناديكا. صحيح أنّها لا تستطيع التحرّك كثيرًا، أو المشي من دون الاتّكاء على عكّازاتها الحديدية، إلّا أنّها تفحّ وتتلوّى كأفعى أثناء المضاجعة، تحسن الاستلقاء والالتواء والأنين والتأوّه. إنّها خبيرة وخبيثة. تهيمن على مَن يقترب منها بأسلوب ماكر. تتشمّم روائح الجسم وإفرازاته بعد الجنس. لا ترتوي من استنزاف زائرها. تصرخ شهوة وانتشاء في ما يشبه عواء ذئبة جريحة. تتحكّم بجسمها أكثر من أيّ امرأة أخرى. تحرّك صدرها بجنون وتميّز، ترقّص ثدييها، تمثّل الدوران في مكانها على يديها. تسدل شعرها الأسود على وجهها وتحارب بنظراتها المغوية.

بدأت الحكايات عنها تتفشّى في البلدة كالأوبئة، منتقلة من فم إلى آخر. أقسم أكثر من شخص على أنّها مختلفة في الجنس عن كلّ النساء اللائي مارس معهنّ. وأكّد بعضهم أنّها هربت مع عشيقها السابق

لطيفو باجاري بعد أن اقتفى أثرها وتقصّى عنها وأُرشد إلى بيتها الجديد. ويقال إنّ موروي برغم حساسيته الشديدة وتيقّظه الدائم وقوّة سمعه لم يتمكّن من السيطرة على العرجاء التي غافلته وهربت.

البيوت أسرار وألغاز وحكايات. براكين متفجّرة. مكامن شهوات متأجّجة. حقول ألغام موقوتة. البيوت كالبشر.

إنّه زمنك يا بريندار.

يستعيد تدرّجه في التّنقل من سوق الهال وضغوطاته، من نشاطه ومرحه، وسهراته وأنسه في سوق الجنس ودهاليزه. ثمّ تركه ذلك، وانتقاله إلى سوق السلاح. هو يؤكّد أنّ السمسرة أفضل من التهريب، وأكثر ربحًا. يضحك حين يقال له: «أنت كالمنشار تأخذ نصيبك من الجميع».

يلفت الأنظار إلى أنّها حقًّا تحتاج قلبا ميّتا، وجرأة تختلط بالتهوّر، وروح مغامرة لا تكترث لأيّ تبعات أو احتمالات.

«المجازفة أساس الوجود في هذه السوق السوداء. حين يغفو الناس ليلًا ينشط السوق. تنمو التعاملات وتزدهر الصفقات. أنت في حرب عصابات مع الزمن، ومع كلّ ما حولك ومَن حولك. اضرب واهرب. لا تمنح ثقتك لأحد في هذه السوق. لا عداوات ولا صداقات في هذا الميدان. بيع وشراء فقط. نوصَف بأنّنا بحّارة البراري والسابحون في الجبال.

تبحر بين الحدود، تشتري صمت البنادق أو غضّ أعين القنّاصة وتعمية عدسات الكاميرات المنصوبة في كلّ مكان. الليل خير ستار والعتمة خير حجاب.»

لا علاقة لبريندار بما يحاك من قوى كبرى وصغرى. لا يهمّه التفكير في أنّ قرار العبور لا يحتاج إلى أيّ جرأة أو مغامرة من النوع الذي يتصوّرون، ولا يأبه إلى أنّ الأمر يرتبط بالإرادات والرغبات والسياسات والمصالح. يعرف أنّ هناك مقنّعين مجهولين يقودون السوق ويتحكّمون في الحدود.

له بطولاته التي يقوم بها، يحقّق إنجازاته الشخصيّة بعيدًا عن تدابير المتآمرين أو مكائد المتواطئين. المعادلة بسيطة لديه ولا تحتمل التعقيدات. هو وسيط وله عمولة مناسبة في كلّ مرّة.

جسر

اعتاد الناس على السير في الطرق نفسها، هم لا يكلّفون أنفسهم عناء البحث عن دروب جديدة. العادة تقتل الإبداع. كيف للحكايات أن تهدأ، وتخبو نيرانها في جحيم العادة. حكايات المتاهة هي ميداني الأرحب هنا.

لا أبحث عن بدايات محدّدة ونهايات معلومة، ولا عن خطوط مألوفة ومسارات مطروقة، أمضي في المتاهة، أتنقل في جزر الخيال، أقتفي شياطين الذاكرة، أتبعها وهي تمضي بي إلى ذاتي عساني أبدّد عتمتي المديدة.

ما بين البداية والنهاية، ما يبقى معلّقًا، مصائر الراحلين والغائبين والمنسيّين، شرارات تغريني بالرحيل إليها، تستدرجني إلى تلك النقطة التي تبقى معلّقة بين الواقع والخيال، بين الحياة والموت، بين الضوء والعتمة، هي وحدها تهدّئ ثورة الدّواخل وتحفظ الأمل في العثور على طريقة لترويض الشياطين الراقدة فيها.

يصل إلى نقطة الاستلام والتسليم في الموعد المحدّد، ينقل بضاعة ويستلم أخرى، يحتاج أحيانًا إلى قطع مسافة بضع مئات من الأمتار من الشارع العامّ حتّى المرصد التركيّ. وكان المساعد يبقي سيارته في مكان معتاد، كأنّه يعمد إلى التخفّي في ظلّ شجرة التوت الكبيرة من

باب الإمعان في الحذر والاحتياط.

كان بريندار قد حفظ بعض أغاني المطرب التركيّ إبراهيم تاتليس، وحين يقترب من الضابط، وبعد أن يلقي التحيّة الاعتياديّة، يكرّر على مسمعه كلمات الأغاني التي حفظها، وأحيانًا يغنّيها بصوت خافت يبديه سكون الليل وهدوؤه حنونًا.

له مع المطربات التركيّات قصص وحكايات. لم يكن جزدانه يخلو من صورة بالحجم الكامل للفنّانة التركية الشهيرة سيبل جان، اقتطعها من إحدى المجلّات، وكم من مرّة مارس العادة السرّيّة وهو يتمعّن في تفاصيلها. كان يشعر بأنّها تدقّق النظر في عينيه. عيناها الخضراوان تغويه وتسلب منه الراحة، تبقيه قلقًا متوتّرًا مشتاقًا إليها، وتبثّ في جسده لذّة وانتعاشًا فيضغطُ على "المايو" الذي يغطّي مثلّثها حتى يكاد يقطع ذاك الجزء من الصورة لشدة اشتهائه له.

كان بريندار يحرص على متابعة القنوات الفضائيّة التركيّة التي بدأت تجتاح البلدة وقتها وتحظى بالاهتمام والمتابعة، إلى أن غدت حديث الجميع. وفي ليالي الثلاثاء والخميس كان يتحرّق لرؤية النقطة الحمراء أسفل الشاشة، وعلامة + 18 منقوشة عليها وكأنّها تحفة فنيّة.

كثيرة هي المرات التي شكره فيها الضابط التركي وأثنى عليه. وفي جميعها، كانت طاقيته العسكريّة تغطّي جبهته، وكأنّه بصدد إخفاء ملامحه عنه. استمتع بريندار بتلك المغامرات، شعر بأنّ «المساعد أوّل» والضابط يتواطآن معه. أحسّ أنّه شخص مهمّ لا غنى عنه. وبدأت الأموال تتراكم لديه، فاشترى للوردة ثيابًا داخليّة أهداها

إيّاها. وقد حرص على أن تكون ذات ألوان حمراء وسوداء شبيهة بثياب معشوقته سيبل جان، فيضاجع الوردة ويتخيّل سيبل جان.

كان الضابط يصطحب معه في بعض الأحيان شابًّا يتحدّث الكرديّة، يبلغ بريندار بما يودّ إيصاله إلى «المساعد أوّل» من طلبات أو رغبات، وأحيانًا يعطيه ظروفا فيها بعض الأوراق. وبريندار يترجم الرسائل الشفويّة ويخبر «المساعد أوّل» بمضمونها وفحواها، وأغلبها عن البضاعة المطلوبة أو الكمّيّات.

بين ضابط تركيّ ومساعد أوّل عربيّ كان هناك شابّان كرديّان يترجمان الرسائل المتبادلة وينقلانها. هما جسر التواصل والعبور ومادّة للمتاجرة وبضاعة مهرّبة في الوقت نفسه.

اعتاد بريندار الخروج مع «المساعد أوّل» في جولاته الليليّة. وكان «المساعد أوّل» قد دأب على إيقاف دوريّة في مدخل البلدة من الجهة الغربيّة حين ينقل شحناته وبضاعته ويجلب أخرى. هذه الدوريّة عادة من عنصرين يحظيان بثقة «المساعد أوّل». عرف بريندار بعد ذلك أنّه قد أطلق أيديهما أكثر من غيرهما في البلدة للفتك بها. وأنهما من زوّار الوردة أيضًا، لكن من غير المداومين، إذ لم يكن يلمحهما إلاّ بين الفينة والأخرى.

نشأ نوع من التواطؤ بين الجميع فراح «المساعد أوّل» ورجلاه يغضّون النظر عن صولات بريندار وجولاته وتردّده على بيت الوردة، ويغطّون عليه في توزيعه الدخان المهرّب، ويحمونه حين يطالبه أحد من الشرطة بأوراق درّاجته الناريّة التي كان يوزّع بها بضاعته ويؤدّي بها مشاويره وخدماته لبعض الأصدقاء والمعارف.

وتنامى التواطؤ رويدًا رويدًا، كثرت أسئلة النسناس عن بعض البنات، كان ينجح أحيانًا بتمثيله البساطة والسّذاجة في استدراج بريندار وإيهامهإنّما يخمّن ليفسح المجال أمامه كي يبوح بما لديه ويفصح عمّا يعرفه من أخبار ومعلومات.

كان النسناس مكلّفا بمفرزة البريد، يشرف عليها، يراقب الاتّصالات، ويقوم بتسجيلها ليستعملها للابتزاز والتهديد، يحملها كأدلّة ووثائق للإيقاع بالناس. احترف تهديد الفتيات اللاتي يلفتن انتباهه، ينصب لهنّ الكمائن، يحوم حول ثانوية البنات الوحيدة في البلدة صباحا وحين الانصراف، يحدّد أهدافه ويشتغل عليها، ليقوم بعد ذلك بابتزازهنّ جنسيًّا، أو ابتزاز عشّاقهنّ ماديًّا وتجنيدهم مخبرين لديه، وكانت تلك المراقبة الدائمة مصدرًا للثراء، ونفقًا للجنس بالنسبة إليه، نافذة على خفايا البلدة وعتمتها، بها يوسّع من شبكة عملائه ويكسب رضى رؤسائه.

بعد تحوّل مقسم البريد من الخطوط اليدويّة إلى الآليّة، وما أوحت به من سرّيّة مفترضة، والحال أنها لم تزد النسناس إلاّ راحة، أصبح الرجل أخطبوطا للاتّصالات، يتغلغل بأذرعه المسمومة في دهاليز البلدة وغرفها السرّيّة.

الخنجر

لا أسعى إلى ممارسة دور الرقيب على واقع الحكايات المنسيّة، أو المستعادة، ولست بصدد لعب دور المخرج الذي يعيد مونتاجها، يقصّ من هنا ليلصق هناك، ويكمل دائرة عبثه بطريقته الخاصّة.

في حكايات الواقع، كلّ واحد شيطان الآخر وخنجر مسموم مغروز في روحه.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«لابدّ من السعي للفتك بالبلدة، والحرص على تعزيز مشاعر الدونيّة في نفوس أهلها، والاستماتة في تكريس أحاسيس الاضطهاد في أرواحهم، ليجدوا أنفسهم دومًا أسرى هويّة تائهة. علينا العمل على تحديث المقترحات والتوصيات التي من شأنها تعميم نزعة الوصاية لدى الآخرين والتبعية لدى الأكراد. علينا دفعهم إلى الاستسلام وإقناعهم بأنهم لا يصلحون لقيادة أنفسهم أو إدارة شؤونهم. نعمل على التشكيك في الأصول والعروق، ونجهد لتعميم نظريات الهوية الضبابيّة الهاربة إلى حضن السيّد المتجسّد في الدولة».

اعتبر نفسه المخرج الموكول إليه توزيع الأدوار على أهل البلدة. لم يكلف نفسه عناء تجنيد موروي للتلصّص على الناس، ونقل الأخبار إليه، في البداية كان يعتبره نموذجًا جيدًا للتجنيد واستغلال العاهة

والنقص لديه، ثم إنّ هرب زوجته وعودتها، وما تخلّل ذلك من إهانات تعرّض لها، كان يجعله من أنسب مَن يمكن تجنيده مخبرًا. لكنّه بعد لقائه عدّة مرّات، اعتبره مخبرًا مجّانيًّا لا يحتاج إلى أيّ تطويع أو تجنيد، فهو يتكلّف من تلقاء نفسه بمهمّة بثّ سمومه من حوله وتصديرها إلى غيره.

تبسّم وهو يتخيل موروي يتلصّص، فمع أنّ التلصّص بالعين أكثر جدوى، لأنه ينقل الحركات المصاحبة للأقوال. كان خيال موروي يسعفه إذا أراد أن يملأ أي فراغ محتمل في الأقوال المنقولة بالظنون. في المقابل هو لم يستطع ترويض جموح بريندار وشراسته والجانب البرّيّ فيه، بل استثمره في إيهامه بالشراكة في التهريب، وظلّ على احتياطه وحذره منه، مكرّرا له أنّه ثمّة المئات من نساء البلدة ورجالها يعملون مخبرين لديه. ليزعزع ثقته بكلّ مَن حوله، ويبقيه تائهًا في شكوكه، ومحتاطًا من الجميع، فلا ضير من أن يبثّ سمّ النقمة والغضب والكراهية في روحه.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«لا بدّ من استغلال الرّوح القتاليّة العاليّة عند الكرديّ، وحماسته الزائدة، واستعداده الدائم للتضحية في سبيل الآخرين، وانسياقه وراء الشعارات العاطفيّة، مثله في ذلك مثل العربي وأكثر، ما يؤهّله لدور نموذجيّ يمكنه القيام به وتأديته على أكمل وجه. لا شكّ في أنّ استغلال هذا الجانب سيحتاج إلى إجراء نوع من التقاطع بين المصالح، يوهم الآخر وبأنّه يمارس ضربا من استغلال الدولة، وبأنّه يوظّفها في مغامراته السياسيّة ومشاريعه الخياليّة، فيتفانى في

دوره، محاولًا الحفاظ على امتيازاته. المطلوب تعميم دعاية مفادها أنّ الكرديّ خنجر في خاصرة الأمّة العربيّة، وترويع العرب من اسمه وصفته وحضوره، وعلى الصعيد الكرديّ الواقعيّ لا بدّ من العمل على تصميم الكرديّ بحيث يكون خنجرًا في خاصرة شعبه، ودفعه إلى أداء دوره بتفانٍ.

لا بدّ من إبقاء شعار «تحرير كردستان وتوحيدها» حيًّا نظريًّا، وتدويله خارج الحدود، لأنّ الشعار العابر للأزمنة والأمكنة يحتاج إلى تذكية دائمة له، لإبقاء جذوته التأثيريّة متّقدة، ومن ثمة مراقبة الحلم المضخّم المعظّم وهو يمارس تعمية على الواقع، ويؤجّل الاستحقاقات باطّراد، بحجّة أنّ الأهمّ هو تحقيق الحلم، وفي الطريق إلى تحقيقه يتمّ نسف البنى كلّها، كي يكون الارتباط تاريخيًّا، يصعب معه أيّ انفصال أو استقلال.

يجب أن تظلّ البندقيّة في يد الكرديّ ملقّمة، مهيأة للتصويب. يجب أن تبقى إصبعه على الزناد. وأهمّ ما في هذه الخطوة إتقان وضع الأهداف لها وتوجيهها نحو هذه الوجهة أو تلك. يجب أن نبقي البوصلة بيدنا، وأن نوهمهم بأنّهم يتحكّمون بزمام اللعبة ليتفنن بعضهم في إيذاء بعض وليفتكوا بأنفسهم، ولندفعهم إلى أيّ ملعب نريده لهم».

يستمتع «المساعد أوّل» وهو يكتب توصياته، ينتابه شعور بالعظمة وهو يدوّنها بصيغة الآمر، وينتشي وهو يخطّ كلمة يجب، يشعر معها بأنّه يأمر الرؤساء والقادة من الضبّاط الأغبياء الذين لا

يملّون إعطاء التعليمات والأوامر وتوزيع التعميمات البليدة.

أكسبته سنوات عمله الطويلة ثقة بنفسه، ومعرفة بقوّة الضبّاط الذين يخدمون في الفروع الأمنيّة. فهو يعلم علم اليقين أنّه ثمّة أفراد في المخابرات لديهم نفوذ أقوى من رؤساء الفروع أنفسهم، قراءاته الكثيرة والمتواصلة عمّقت معرفته بالنفوس فضلا عن المجتمع والتاريخ والجغرافيا والأدب.

نفوذ عناصر الأمن لا يخضع للرتب العسكريّة، بل يرتبط بجوانب كثيرة، من ضمنها نفوذ للمنطقة التي ينحدر منها، وفي المنطقة نفسها هناك توازنات ومحسوبيّات، فالأمر يعتمد على علاقات القربى، ودائرة المعارف والدعم. هناك أيضا تبعيّة الولاء، أي أن يخدم عنصر في فرع أمنيّ ويكون ولاؤه للفرع الآخر، فيزوّده بتقارير عن تحرّكات الفرع الذي يخدم فيه وممارساته، في لعبة المستمسكات الدارجة بين المخابرات. فلدى كلّ فرع ملفّات ووثائق تدين الفرع الآخر، وتوثّق انتهاكاته الكثيرة.

والانتهاكات لدى المخابرات لا تشير بالضرورة إلى المعنى نفسه الذي يذهب إليه الآخرون في سياقات مختلفة، فهي في عرفهم، ما يتمّ التهاون بشأنه مع الناس، أي كلّ تصرّف أو فعل يوحي بأنّ هناك مقاصد من ورائه قد تنال من هيبة الدولة، أو تثير شبهة التآمر ولو بالنيّة ضدّها، ولم يتعامل معه الفرع بالمسؤولية الواجبة، فتغاضى عنه، ومرّره بعد أن تقاضى المسؤول وأتباعه نصيبهم من الصفقة.

عادة ما تكون الصفقات الكبرى من نصيب رؤساء الفروع بالتوافق والمحاصصة، يجتمعون على طاولة مستديرة، يقسّمون

الحصص في ما بينهم، يوزّعون أماكن السيطرة والنفوذ، ويتبادلونها بعد مُدد معيّنة متّفق عليها. وهكذا يكون التحكّم بالتراضي، وأيّ تراخٍ من قبل أيّ طرف يحرّض الآخرين ضدّه، ويتسبّب في نشوب صراع بينهم، وحينها يقع الإعلان عن شبكات فساد في السلطة على الملإ. يتمّ تقديم بعضهم كبش فداء لتلميع صور الآخرين، وإظهار عدم تهاون السلطة حتّى مع كبار مسؤوليها. وهي سياسة درجت عليها السلطة لسنوات، فبعد كلّ مدّة هناك كبش فداء على مذبحها، تقدّمه عبرة لأبنائها ولبقيّة أفراد الشعب، أيّ تقدّمه عبرة مزدوجة.

خلال عمله الطويل أدرك المساعد أوّل تلك الألاعيب كلّها، وحاول أن يظلّ بعيدًا عن تقديمه ككبش فداء في أيّ مرحلة، حافظ على ولائه لمهمّته، كان ينجز ما يكلّف به بتفانٍ وإتقان، ويواظب على تقديم توصيات ومقترحات ودراسات حتّى لو لم يطلب منه ذلك. يأتي بمبادرات في التفتيت، يعدّ لنفسه الخطط التي تستهدف سحق أعدائه، ويستمتع بأنّ لديه منسوبًا من الحقد يكفي لحمايته وتدمير مَن قد يفكّر في الدنوّ والنيل منه.

صحيح أنّ محمّد طلب هلال كان يسبقه زمنيًّا، وأعلى منه رتبة عسكريّة، لكنّه لم يكن بدهائه. هكذا كان يكرّر لنفسه. أمّا المشترك بينهما فهو أنّ كليهما أوّل، ذاك ملازم وهو مساعد. وهو يؤمن بأنّ المساعد أهمّ من الملازم ومن أيّ ضابط آخر، فالدولة قائمة على ظهور المساعدين، وهم وحدهم من يحملون الأعباء حقيقة.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«لدى الكرديّ استعداد فطريّ للتضحية، يمكن استغلاله

والاشتغال به، يمكن توجيهه وقيادته. إنّه يفتقر إلى إدراك قوّته، ويجب علينا تجيير تلك القوّة وتوظيفها. هو يعشق لقطات البطولة ومشاهد العظمة، فلنوهمه بأنّه يقوم بها من أجل تحقيق أحلامه، وفي الحقيقة سيكون عجلة في حافلة مصالحنا.

إذا كانت السياسة فعل التحايل والمواربة والتضليل والخداع والنفاق والكذب فإنّ الاستخبارات فعل الصراحة المطلقة، لا مكان للترقيع أو الإخفاء في عملنا. نحتاج إلى نقل الوقائع في تقاريرنا كما هي، دون أي تجميل أو تخييل، فقط الوقائع. ولا بدّ من التذييل بالمقترح أو التوصية أو الرأي، ويجب أن يكون في عمق المسألة، بعيدًا عن القشور.

التخمين أساس عمل عنصر المخابرات، يجب عليه أن يخمّن المشكلة قبل وقوعها، أن يكون مستعدًّا للإجهاز على أعدائه، أن يطلع رؤساءه على الصورة الواقعيّة بكلّ فجاجتها. ومع التخمين يجب التأكيد على التوثيق، لا بدّ أن توثّق ذاكرته كلّ التفاصيل، عليه تنمية خياله وقدراته الكتابيّة كي يكون وفيًّا لما يكتبه، فالمصداقيّة في التقارير هي الأهمّ، وحين يحتاج إلى الفتك بأحدهم أو النيل منه، لا بأس بتمرير كلمات اتّهاميّة ضدّه، وإسقاط النيّات عليه فتُلصق به المؤامرات التي كان يدبّرها في خياله، ووجد لها صدى في زلّة لسان أو هفوة هنا أو هناك».

يكتب آراءه في لحظات صفائه، يشعر بأنّه أهمّ من كلّ الكتّاب والأدباء، يراهم صغارًا في مساعيهم إلى الشهرة وبحثهم عن القوت. يؤكّد لنفسه ذلك بعد كلّ استجواب لأحد الشعراء أو الكتّاب في

البلدة، يستمتع بإفاداتهم وارتباكهم وتهرّبهم ممّا يكتبون أو ممّا توحي به كتاباتهم، هو خبير بالتأويل وقراءة ما في الصدور وما بين السطور، لكنّه ينتشي بإرباكهم ويستمتع بإحراجهم وتنصّلهم من كلماتهم.

يدوّن ملاحظاته لإحكام الهيمنة على المنطقة كلّها، ينطلق من تجاربه في البلدة التي أمضى فيها قرابة ثلاثة عقود من عمره. وصل إليها شابًّا، تمّ نقله إليها بعد إنهائه دورة الإعداد والتدريب العسكريّة، وبقي فيها منذ ذلك الوقت.

استقى خبراته من واقعه الميدانيّ وعمله، لذلك هو يعتبر نفسه أهمّ من مدرسة الإعداد والتدريب، فالتجارب التي خاضها فريدة من نوعها، ولم تُدرج بعد في مناهج تلك المدارس التي تقدّم نصائح للمبتدئين، وتقوم بتخريج الأغبياء ممّن ينحصر همّهم في جمع النقود فقط، وإظهار المسدّسات المعلّقة على خصورهم، أما هو فبارع في إعطاء الأشياء حقّها، إيمانا منه بمقولة «لكلّ مقام مقال»، ويجب التلوّن بحسب الجوّ والزمان والمكان والمواقف.

يتوقّف كثيرًا عند شخصيّة محمّد طلب هلال وتوصياته ومقترحاته التي وضعها في دراسة عن الجزيرة أعدّها للقيادة سنة 1963. لا يخفي إعجابه بمنسوب ولائه للسلطة والوظيفة، وبمنسوب المشاعر التي كانت تقوده وتدفعه إلى الفتك بأعدائه المفترضين، كما لا يخفي إعجابه، الذي قد يبلغ حد الحسد والغيرة، بتلك الروح المتعصّبة لمنصبها ودورها الأمنيّ، المحافظة على ولائها لأسيادها والحريصة على سلامتهم من أيّ أخطار مستقبليّة.

يتحسّر «المساعد أوّل» على تلك الدراسة ويؤكّد في قرارة نفسه

أنّ هناك مساعدًا أوّل مثله وضعها للملازم أوّل هلال الذي ذيّلها باسمه وتوقيعه وكأنه هو من أعدّها. وهو يغبطه أيضا على دخوله التاريخ الحديث للبلد، فمن جهة يمعن النظام في تكريمه بترقيته مرارا، وتنقيله بين المناصب، والاعتماد عليه في أدوار ومهامّ خاصّة. فيبدو أحد أركان النظام الأشباح الذين يحيون في الظلّ، ومن جهة أخرى، يعرفه الجميع، ويكرّرون توصياته، ولا يدرون أنّهم ما انفكوا ينفّذونها بطريقة أو بأخرى.

يؤلمه ما يعترف به لنفسه من أنّ الدولة تنهض على جهود ضبّاط الصفّ، وخاصة على خدمات المساعدين الأوائل، ويستدرك معترفا أنّ كلّ المساعدين الأوائل ليسوا بالتميّز عينه، فهناك مَن يحترفون تضخيم الكروش ويقبلون الرشاوى الصغيرة كعلبة دخان أو متّة أو هديّة بائسة من هذا الشخص أو ذاك. ولأجل ذلك هو ينعتهم بالعالة على المهنة والجيش والدولة، ويصفهم بديدان الدولة.

لا يشكّ «المساعد أوّل» في أنّ تأثيره في تاريخ البلد وأكراده أعظم وأكبر من تأثير الملازم أوّل، لكنّ استمرار الملازم أوّل في السلطة يمنعه من الجهر برأيه حتّى لنفسه. فلا يشير إلى ذلك إلاّ في كتاباته التي يحتفظ بها، ويعيد تذكير نفسه بأنّه قائد ميدانيّ، يد ضاربة وعقل مدبّر في الوقت نفسه.

يضع مقترحات محمّد طلب هلال في ذهنه وهو يستكمل مشروعه، يؤكّد لنفسه أنّه سيكون أشدّ فتكًا وتأثيرًا منه. لا يهتمّ للترتيب في المسألة، لأنّه يسير في شتّى الاتجاهات في الوقت نفسه. يغبط هلال على روحه العدوانيّة، ويحسده عليها. لكنّه كان يرى

نفسه أكثر قدرة على تطوير تلك المقترحات بما يوافق المراحل الموالية والظروف المستجدّة.

ينتابه شعور بالرضى وهو يرى عمله يثمر. فها إنّ بعض الناس قد بدؤوا يبحثون لأنفسهم عن جذور عربيّة، في مسعى للانسلاخ عن أصولهم الكرديّة. وها إنّه يقهقه ويثني عليهم إذ يسمعهم يرطنون بالعربية وهم لا يعرفونها جيّدًا، يذكّرون المؤنّث ويؤنّثون المذكّر، ويغيّرون تركيب الجمل.

وثمّة أمر آخر مهمّ هو يعادي الدين أشدّ العداء، لكنّه يعتبره ضرورة لا غنى عنها للسيطرة على الناس، ويكفي في هذا المجال أن يسيطر على رجال الدين، ليضمن ولاء تابعيهم. ولأنّه وجد استحالة في نزع الدين من نفوس الناس، فقد التفت إلى واجب اتّخاذه وسيلة لشكر القيادة من منطلق الوفاء لوليّ الأمر.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«لا بدّ من الإشادة بمسألة اتّخاذ الإسلام وسيلة لتعريب الناس، والتأكيد على أولويّة العروبة في الحياة. وبالتوازي مع ذلك التأكيد على أنّ لغة أهل الجنّة هي العربيّة، ويحتاج الأمر إلى تكرار كي يزرع في وجدان الناس، ويكرهوا لغتهم بالفطرة.

التأكيد على سياسة التصفية المباشرة لمَن يشكّل خطرًا محتملًا على السلطة. وعدم الاقتناع بأيّ حوار، يزعم أحدنا تمثيله الظاهر أنّه مرن ويصغي إلى المختلفين معه، لكنّه يبيّت لهم المكائد بعد أن يحصل منهم على ما يضمرونه، أو يمسك بخيوط أفكارهم. الناس في البلدة عراة أمامي، أعرف ما يدور في خلدهم، ولا تخفى عليّ خافية في نفوسهم».

لعن عازفي الطبل والزرناية حين قرأ تقريرًا كتبه إليه زوج الوردة مفاده أنّهم كانوا يعزفون النشيد القوميّ الكرديّ «أي رقيب» أثناء استقبال رئيس الفرع. وأنّ الناس اندمجوا مع الموسيقى لسابق معرفتهم بأنّها موسيقى نشيدهم القوميّ.

يستعيد تفاصيل الاستقبال، وصورة جموع الناس وهي تصفّق وتهتف، بينما يوزع رئيس الفرع ابتساماته عليهم، وأمامه يمشي الموسيقيون الجوّالون ثمّ يجثون على ركبهم احترامًا له، فيعطيهم قطعًا من النقود. يلعن تلك الشريحة التي لا تملّ من التسوّل حتّى في أحلك الظروف. يلوم نفسه على أنّه لم ينبّه قارع الطبل ونافخ الزرناية أنّه لا يجوز لهما الجلوس أمام رئيس الفرع تلك الجلسة المستجدية للنقود، ولكنّه يغفر لنفسه مادام رئيس الفرع قد تعاطى مع الحركة بعفوية وكرم.

وكلّما صرّح لنفسه بأنّه أصبح خبيرًا في المجتمع الكرديّ والحركة السياسيّة الكرديّة، تفاجأ ببعض الأفعال التي تؤكد له أشياء ما تزال مستغلقة عليه.

عيون وبنادق

هي ذي عيون بنادق القنّاصة تترصّده من وجهات عديدة. أحد القنّاصين مختبئ خلف كومة أحجار. بالقرب من تلّة الفلك، هناك اتخذ موضعه ليقنص طريدته، كلّفه أحد الشركاء بذلك. قنّاص آخر يربض في مرصده من جهة الحدود التركيّة، يلقّم بارودته ويبقيها مصوّبة نحوه، يختار رقبته لتكون هدفًا لرصاصته. أتاه أمر تصفيته من الضابط المناوب وهو الآن ينتظر منه الإذن لتنفيذ العملية.

عين أخرى تكمن له على مسافة أبعد من الآخرين. قنّاص يختبئ في بستان الأميرة وقد اِختار رأسه ليكون هدفًا لطلقته التي تنتظر دورها.

ضغط عدّة قنّاصين الأزندة في وقت واحد مصوّبين رصاصاتهم إليه، من الأمام ومن الخلف. ها إنه يقع فريسة عالم السوق بعد أن ظنّه ميدانه الذي يتلاعب من خلاله بزبائنه. تجاوز حدوده فتمّ وضع الحدود له، بالإجهاز عليه، ليصبح عبرة لغيره.

في هذا السوق، الورقة التي ينتهي مفعولها ينبغي حرقها والتخلّص منها. ولذا فالأوراق المحروقة كثيرة، تتداعى وتتهاوى من الشجرة المسمومة.

في اللحظة نفسها أصابته ثلاث طلقات اخترقت أماكن متفرّقة

من جسده، صدره وجبهته، وظهره أيضًا. تهاوى وهو ينزف. لم يتسنّ له التفكير في ثروته التي راكمها، ولا في صفقاته التي تنتظر وضع اللمسات الأخيرة كي تكتمل ويقبض حصصه الضخمة منها.

فجأة أفاق بريندار فزعا لاعنا الكابوس الذي عكر نومه.

كان لبيت الوردة دور في تعرفه على «المساعد أوّل»، ذاك الذي يوصَف بأنّه مختار البلدة، وحاكمها العسكريّ، ومدمّرها العارف بأهلها كلّهم، من الصغير إلى الكبير. يقال إنّه يحتفظ في مكتبه بكتب ألّفها عن العشائر في المنطقة، وإنّه وضع نظريته لإركاع الأهالي وإذلالهم. ويقال إنّ آراءه عند السلطة تؤخذ بعين الاعتبار، وإنّ كلامه مسموع أكثر من كلام المحافظ نفسه، لأنّ العقود التي أمضاها في الخدمة كفلت له معرفة مفصّلة بكلّ دقائق الأمور وقراءة أفكار الناس ونفسيّاتهم.

تنسب إليه أيضا انشقاقات طالت أحزابًا وتجمّعات وجمعيّات في المنطقة، كما تنسب إليه قصص مريعة عن وسائل التعذيب التي يستخدم، إنّه لا يحمل معه نقودا مطلقا طالما هو في البلدة والمناطق المجاورة لها. فهو أشهر من أن يدفع نقودًا لأحد، زد على ذلك أنّه لا يحتاج إلى شراء أيّ شيء، فكلّ شيء يرسَل إليه، وإن اشتهى شيئًا مصادفة وهو في تنقّلاته فإنّ صاحب المحلّ يضطرّ لرسم ابتسامة عريضة على وجهه، ويكرّر له أنّ يتشرّف بأن يجرّب سيادة «المساعد أوّل» بضاعته. أما هو فلا يملّ من تكرار حركته المتمثّلة في مدّ يده إلى جيبه، واصطناع إخراج النقود منها، ثم لا يلبث أن يرسم ملامح الرضى على وجهه، بعد أن يسمع قسم صاحب المحلّ بعدم قبول

أيّ نقود منه. ولا ينسى أن يقول له: «سامحك الله.. لا أستطيع كسر يمينك». ولا يغفل عن الغمز في إشارة إلى أنّه أصبح سنده. موهما إيّاه بتنامي نوع من التواطؤ بينهما.

حين خرج بريندار من بيت الوردة صباحًا. التقى «المساعد أوّل» الذي كان يقوم بجولة صباحية يزور خلالها الوردة، ليستقصي منها بعض أخباره، وربّما ليسترق منها بعض المداعبات التي كان غالبًا ما يكتفي بها. على أنّه بين الفينة والأخرى يطالبها بالاستلقاء، يرفع فستانها، يلهث وهو يحاول تحريك جسده وكأنّه يضاجعها، لكنّه لا يفلح في إكمال عمليته لأنّ الانتصاب لديه لا يكتمل، على حدّ تعبير الوردة لاحقا.

كانت الوردة في مثل تلك الأوقات تشفق عليه، تداريه، تلبّي له طلباته ورغباته بتقبيل جسدها وشمّه في محاولة لاستثارة جسده وضخّ الدماء في عروق قضيبه المتيبّسة. يشعر بين ساقيها بالخذلان، لكنّه يحميها، ينفّذ لها طلباتها ورغباتها هو أيضا، ما يساهم في سدّ أفواه أهل الحارة وإبقائهم رهائن حاجاتهم إليها، ويبقي رهبتها متعاظمة في قلوبهم، حتّى أنّ البعض لا يتوانى عن تلقيبها بسيادة الوردة، أو سيادة الأميرة.

بريندار يشبع جسد الوردة النهم، أحيانا يرويها مرّتين أو ثلاثًا في صباح واحد، وفي ما عدا ذلك فالجنس لديها سوق قوامه العرض والطلب، ومصدر رزق وبوّابة للمصالح.

استدعى المساعدُ أوّل بريندارَ إلى المفرزة مساء، كلّف أحد عناصره باستجوابه بخصوص السوق وعلاقته بأصحاب الدكاكين

والعربات المتجوّلة، والعمّال والعتّالين، حاول تهديده والضغط عليه وضربه، أخذه إلى غرفة التعذيب، هدّده بتجريب تلك الأدوات عليه. حقّق معه بشأن علاقته بالوردة وبناتها، وأخبره أنّ سيرته في الحارة أصبحت على كلّ شفة ولسان، لذلك فإنّ السلطة لا تستطيع التعامي عن الفساد وارتكاب الموبقات على مرأى من الجميع، ولأنّ تصرّفاته تصبّ في خانة تشويه المجتمع وبثّ الانحراف بين الناس، ولا بدّ من وضع حدّ لها.

طالبه العنصر بالعودة لاحقًا لاستكمال التحقيق، طلب منه التفاصيل الدقيقة لبداية العلاقة الجنسيّة بينه وبين الوردة وبناتها. ثمّ طالبه بمعلومات عن السوق وحركته، لكنّ بريندار رفض الإقرار بأيّ شيء وظلّ يراوغ، ولم يدلِ بأيّ معلومة عن أحد، وكلّما واجهه المحقّق بالأخبار والمعلومات، وبأنّ هناك كثيرين ينقلون لهم كلّ شيء يجري في كلّ شبر، أجابه: «طالما هناك كثيرون يأتونكم بالأخبار فما حاجتكم إليّ». مشدّدا على أنّ كلّ شيء في البلدة مكشوف للكلّ.

أدرك «المساعد أوّل» أنّ بريندار لن يعمل لديه مخبرا متعاونا، فعنّ له تجريبه في أمر آخر، استدعاه عدّة مرّات، وبعد الاستجوابات التي كانت تكرّر نفسها، وبعد مراقبته لردود أفعاله وإجاباته، قرّر إشراكه في مهمّات خاصّة سيكلّفه بها كنوع من الشراكة التي يحتاج فيها إلى فتى مغامر. اختاره للتهريب رفقة ضابط تركيّ يستلم الحقائب ويسلّمها. كبرت دوائر المواد التي يقوم بتهريبها، انتقلت من البضائع الصغيرة والشاي والدخان والمازوت والبنزين، إلى الآثار التي أصبحت هي الأهمّ بالنسبة إلى «المساعد أوّل» وشريكه الضابط التركيّ.

التحفة الأثيرة

كنت إذا ماانتهيتُ من إعداد العدّة لأمي وبدأت بالعزف على جسد برازق وتنتيفها، أستغلّ عدم الحاجة إليّ وأنسلّ إلى غرفة «المساعد أوّل»، أتصفّح أوراقه الموضوعة في مكانها المعتاد.

ساعدتني دراسة الفلسفة على استعادة فحوى تلك الأوراق، ولا بأس من أن أدّعي أنّني حصلت عليها وسرقتها، فحيل الحكايات دروب إلى كشف متاهات الواقع، ومحاولات بائسة لالتقاط مشاهد هاربة من تلك الدائرة الناريّة.

أنا عشبة ضارّة؟ أنا شيطان يستحيل ترويضي؟ أنا عتمة متجدّدة لا تستدلّ إلى أسرار تبدّدها؟

حين نقل إليه النسناس وشاية رسيلو بزوج أخته، انتابته نشوة مفاجئة. استرخى على كرسيّه وأغمض عينيه بمتعة.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«يوم أوصل أحدهم إلى أن يكتب تقريرًا في أخيه، أو أبيه، من دون أن يشعر بتأنيب ضمير أو خزي، فإنّني أكون قد وصلت إلى مبتغاي، ووفيت حقّ خدمتي ووظيفتي عليّ. حين أوصل عملائي إلى درجة إدمان كتابة التقارير وتزويدي بالوشايات، أكون قد أدّيتُ واجبي تجاه منصبي الأمني وحفظتُ له الاعتبار والتقدير. لا بدّ من

العمل على بثّ الضغائن بين الجميع، لا عملًا بسياسة «فرّق تسدْ» القديمة، لأنّ ما تفرّق يمكن لملمته بعد حين من العمل وبشيء من الرغبة، بل سعيًا وراء اللحظة التي يفضّل فيها أحدهم قطع أوردته، وبتر أعضائه، وفقء عينيه، على أن يصالح الآخر الذي سيعامله بالمثل وأكثر».

هو يدرك أنّ الناس تنظر إلى عناصر الأمن نظرة تمتزج فيها مشاعر الازدراء بالخشية، إذ يعتبرونهم بعيدين عن الاهتمام بالفكر والأدب، ومنحصري الثقافة في صيغ جاهزة يرومون عبرها سدّ الفراغ وملء الشواغر وتلبية الطلبات. ولا ينفي تفهمه لتلك النظرة التي راكمتها التجارب والأيام، لكنّه لا يغفلُ الإشارة إلى خصوصيات بعضهم، فيجدُ نفسه بشخصيته المتفرّدة الخبير الأمنيّ المتمايز والعقل المفكّر للمخابرات، وسيّد البلدة من دون منازع.

لرئيس الفرع علاقات مع مَن يعتبرون أنفسهم قيادات، والحال أنّهم عاجزون عن النهوض بأعبائهم الشخصيّة. ويعتمدُ بشكل أساسي على تقارير «المساعد أوّل» في علاقاته ولقاءاته، يستند إليها في استجواباته، وأحيانًا حتّى في مزاحه الرائج عنه مع بعضهم لاكتشاف أمور سرّيّة، أو حتى على علاقات غراميّة، تكفي الإشارة فيها للابتزاز، وتقديم فروض الطاعة والولاء.

حتى خطب الجمعة تمرّ عليه، توضع على مكتبه مساء الخميس، فيراجعها، ويضع عليها ملاحظاته بالقلم الأحمر، يأمر بحذف بعض الكلمات وبإضافة أخرى، ويطالب بالإكثار من تلك الآيات التي تحضّ على تقديم الطاعة والولاء لأولي الأمر، وينصح بالعودة إلى

قصص الصحابة والأولياء، لاسيّما تلك المتعلّقة بالزهد والتصوّف، ذلك أنّ تشجيع الطرق الصوفيّة كان من بين توصياته المتعلّقة بالمنطقة.

يلتزم بطقوس المناسبات كي يؤكّد أنّ السلطة حاضرة مع الناس في أفراحهم وأتراحهم، فلا عرس يقام، ولا ميت يُدفن إلّا بعد توقيعه وموافقته. هكذا هي الإجراءات، ودائما ما يربط الأمور بالالتزام بالتعليمات الواردة من فوق للحفاظ على السّلم الاجتماعيّة وأمن الناس وسلامتهم.

يحرص على حضور المناسبات الاجتماعيّة، وبالأخصّ مجالس العزاء، وينتشي حين يدخل الخيم المنصوبة للعزاء، ويقوم المعزّون جميعهم احتفاء به وتقديرًا له، فيضطرّ لتحيّة الكلّ أحيانًا، ويكتفي بأهل الفقيد أحيانًا أخرى، وحين يجلس، يتهافت إليه بعضهم لتحيّته، فيمدّ إليهم يدًا لا مبالية، ويبتسم ابتسامته الشهيرة لهم، وتبديه حركة يده المتكرّرة إلى خصره كما لو أنّه يهمّ بالوقوف كلّ مرّة، ما يبقي الجميع متأهّبين في انتظاره.

يستمتع بالصمت الذي يسود الخيمة بمجيئه، يطلق تعليقاته البسيطة، وأسئلته عن الأوضاع الصّحية لمجالسيه وعن أحوالهم، ويطرب لسماع كلمات الشكر المنهالة عليه، والمؤيّدة للقيادة والدولة. يشعر بالرضى أكثر، يستزيد من القهوة المرّة، ويستعذب المديح المَكيل له.

إنّ هيبته من هيبة الدولة، ومن لا يحترمه فإنّه يستهين بالدولة ويستخفّ بها. هذا ما يوحي به دومًا عبر الحديث عن المسؤول في

الدولة وواجب احترامه لما يقوم به من خدمات للناس، ويراوح بلؤم بين المفاهيم والمصطلحات، حتى يحيل الحديث إليه، فيكون مركز السلطة الذي يختصر القيادة في منصبه وشخصه.

حين تستدعي مناسبة ما حضور رئيس الفرع، فإنّ «المساعد أوّل» يظلّ متوتّرًا، يوزّع عناصره في كلّ مداخل البلدة ومخارجها، يعلن النفير العام بين عملائه ومخبريه، يعمّم على دوائر الدولة والمؤسّسات والمدارس وجوب تنظيم أدوار المناوبة، يخشى أن يظهر تفصيل ما يبديه مقصّرًا في عمله أمام رئيسه، فيؤثّر على مستقبله الأمنيّ ومكانته الاعتباريّة مرجعًا وخبيرًا.

اختار اللون الأسود لأغلفة دفاتره التي سبق وجلّدها تجليدًا فنيًّا لافتًا، صمّم أربعة مجلّدات، كتب عليها باللون الذهبيّ «التحفة الأثيرة.. درر «المساعد أوّل» الفكريّة والسياسيّة والأمنيّة». هو لا يرضى عنوانا غير ذلك لدفاتر كتب فيها ملاحظاته وتصوّراته وآراءَه ودراساته للبلدة وشخصيّاتها، للأحزاب وقياداتها وتشعّباتها وصراعاتها بل إنّه يعتبر تحليله وتأريخه وتفسيره أهمّ من أيّ دراسة عن الكُرد، فيصف نفسه أحيانًا في لحظات الصفاء والنشوة بأنّه مؤرّخ الكُرد والشخص الأكثر تأثيرًا في تاريخهم الحديث في سوريا.

يرى نفسه درّة المخابرات، لكنّه لا يعلن عن ذلك لغيره، فقد علّمته خبرته الطويلة أن يحذر الجميع، وألّا يمنح ثقته لأحد، وأن يكون دائم التيقّظ، فالخطأ في عرف المخابرات لا يغتفر، قد تؤجّل المحاسبة والمساءلة، ولكنّها لا تلغى.

خيبته الكبرى هي أولاده، فهم متخلّفون في دراستهم عن

مجايليهم، وعلى الرّغم من أنّهم يوضعون في المراتب الأولى في صفوفهم، فإنّ مستواهم الضعيف يفضحهم عند أوّل اختبار. يتمنّى لو أنّ له ابنًا مثل بريندار، بفهلوته ويقظته ودأبه، يشعر بأنّ مملكته التي شيّدها بذكائه ووفائه لأسياده معرّضة للسطو عليها من قبل أولاد أخيه في بلدته الساحليّة، بينما أبناؤه الثلاثة تائهون في مستنقع غبائهم، على حدّ وصفه لهم.

يشعر بأنّ أطفاله هم جحيمه، وعقوبته الدنيوية، ويتحسّر على ذكائه ودهائه، ثمّ يندب حظّه على نسله وعلى التشوّهات الخلقية التي لم تستثنِ أيّ طفل من أطفاله بطريقة ما. يقول لنفسه إنّه لو أكملها الله معه وأعطاه أولادًا أذكياء كما يريد لاستطاع أن يجعلهم يحكمون البلد كلّه، ولما نافسه أحد على الزعامة والقيادة، لكنّه يظلّ مَهيض الجناح من جهتهم.

ابنه الأكبر يشبه أمّه برازق، وجهه مليء بالنمش، لم تنفعه قوّة والده وسطوته في أن يحمي نفسه من طيش الأطفال ومشاكساتهم في المدرسة. ظلّ وجهه يحمل سمات المرعوب، حتى يخال من يشاهده أنّه تلقّى صفعات أفقدته ملامحه. عينان غائرتان، أنف بارز، وجسد نحيف ضعيف. راجع والده أكثر من طبيب، لكنّ الجميع أكّد له أنّه يعاني خللًا خلقيًا غير معروف، ليس هناك ما يمكن عمله من أجل تلافيه أو تصحيحه.

ابنته أيضا أخذت ملامح أمّها، لكنّها أفضل من أخويها من حيث الاهتمام بدراستها، يحبّها ويتحرّق لأنّها ليست ولدًا بدل أخويها الغبيّين، لكنّه يشفق عليها لقصر قامتها الواضح، ويتمنّى لو يتمكن

من مساعدتها على التحلّي بجسد جميل كغيرها من الأطفال.

ابنه الآخر يكره الدراسة كرهًا شديدًا، يمضي معظم وقته خارج البيت مع الأطفال في ساحة الحارة، لا يتقن لعب كرة القدم لكنّه يواظب على الحضور في مختلف الأوقات، يشارك مع هذا الفريق أو ذاك، كلّ طرف يشركه بعض الوقت أو شوطًا، فتراه يلعب قليلًا مع فريق، ثمّ يلعب بعد ذلك ضده، ويحتار في توزيع الكرات النادرة التي تصله بالصدفة، ما يعرّضه لتأنيب الفريقين وتوبيخهما.

حين يقول له بعضهم من باب التدليس والنفاق، إنّه يستحقّ أن يكون لديه جيش من الأولاد الذكور، كي يرثوا علمه وقوّته وبراعته، تراه يردّ بابتسامة فيها من الأسى والقهر أكثر مما فيها من الامتنان، إنّه يرضى بما قسمه الله له، وإنّ المجد لا يكتمل للإنسان في دنياه. يجتاحه تمزّق داخليّ ويشعر بأن جلدة عضوه تزداد انكماشا على نفسها وتنسلّ متقلّصة باتجاه الداخل، ما يدعوه إلى التّحجج بالتّبوّل والمسارعة إلى الحمّام لتفقد ما بين ساقيه وتلمّسه.

وكثيرا ما يواسي نفسه بأنّه يملك أولادا على أيّ حال، وإن كانوا مشوّهين أو مختلّين أو غير مكتملي النضج والوعي، فرئيس الفرع ليس لديه لا أنثى ولا ذكر، لأنّه لم يتزوّج بعد، وقد تجاوز الخمسين من عمره، حتى أشيع عنه أنّه تزوّج وظيفته، من منطلق الوفاء للمهنة والواجب، ولأنّ الزوجة والحياة الأسريّة تضعف الرجل وتأخذ من وقته واهتمامه حيّزًا كبيرًا، ما قد يؤثّر في عمله الأمنيّ الخطير، ويشغله بأمور ثانويّة، لذلك اختار الرهبنة في سبيل السلك الأمنيّ، مكتفيا بأن يعيش حياة بذخ في قصره.

التقرير الوحيد الذي كتبه وخشي أن يرفعه إلى رئيس فرعه هو ما تداوله بعضهم خفية عن إشاعة طالته شخصيًا، وكانت تقول أنّ لديه عبدًا أسود ذا عضو ضخم يخترقه كلّ ليلة قبل أن ينام، وإنّه لا يستطيع النوم من دون ذلك، وإنّ ما يحيط نفسه به من مظاهر القوّة والجبروت ما هي إلّا للتعمية على شذوذه الجنسيّ. لعن خيال الناس المريض ونيلهم من شخصيّة قياديّة مثل رئيسه وتطاولهم على سمعته، معتبرا خيانة الدولة تبدأ عبر النيل من رموزها وسيادتها.

احتفظ بالتقرير بين التقارير السرّيّة الهامّة، وبيّت تقوية النزعات الجنسيّة في البلدة، والدفع إلى التفسّخ رويدًا رويدًا، ليجد الجميع أنفسهم في مستنقع الملذّات المحرّمة. استعان من أجل ذلك بالنسناس وأبي اللطخة البيضاء، وطلب منهما أن يجمعا الملفّات الجنسيّة للناس.

تجمّع لديه بعد أشهر كمّ كبير من الملفّات والصور والمحادثات والتسجيلات، انتشى وهو يراجعها، وقرّر أن يخصّص فصلًا كاملًا عنها في دفاتره، ويضعها في أولويّات مشروع السيطرة والهيمنة والتحكّم. ولأنّ لديه أوامر بمراعاة بعض الأعراف الاجتماعيّة وعدم استثارة الجوانب المتعارضة مع التعاليم الدينيّة بشكل معلَن، فإنّه أجّل الخوض في تلك الملفّات، لكنّه ظلّ يرتّبها بحسب أهمّيتها في نظره.

أما التقرير الوحيدُ الذي احتفظ به النسناس وأبو اللطخة البيضاء لنفسيهما، ولم يجرؤا على رفعه إلى «المساعد أوّل» فهو ذاك الذي ذكر تفاصيل اغتصاب دبّوزك لابنه الكبير وابنته وجاء فيه أنّ دبّوزك مارس معهما الجنس بعد تهديد وتخويف، ثمّ لم يعجبه الأمر

فتركهما بعد ذلك، وانتقل للفتك بغيرهما من أولاد المخابرات، حتّى أتى على معظمهم. فآثرا الانتقام منه بصمت، والتخلّص منه، دون أن يخبرا «المساعد أوّل» بالتفاصيل.

وهكذا تمّ العثور على جثّة دبّوزك على طريق قرية أخواله الشرقيّة، وقيل إنّ سيّارة دهسته ولاذت بالفرار، وقد تكون من سيّارات قرية أخواله أنفسهم. ولقد قام النسناس وأبو اللطخة البيضاء بنفسيهما بالتحقيق في الحادثة التي قيّدت في النهاية ضدّ مجهول.

كوخ الخواجة

ألجأ إلى تلفيق الاعترافات، فأنا أعتمدها وسائلَ لتلفيق الحكايات، وإظهارها على أنّها أسرار تلقّفها الراوي لينشرها زاعما أنه إنّما يطلقها في فضاء الحكايات لتكون دروبًا إلى الآخرين وومضانا لكشف العتمة التي أحاطوا أنفسهم بها.

يعترف بريندار لنفسه:

لم أطق نفسي في بيروت، لولا تلك الزيارات الضروريّة لاختنقت من أجوائها، كلّ شيء فيها مُكهرَب ومتوتّر ومعرّض ليشكّل شرارة تشعل حربًا لا تنتهي. الناس يترصّد بعضهم بعضا لأدنى زلّة أو هفوة. قاموس السباب فضفاض منفوخ فيه ليل نهار. ولعلّ الجميل فيها هو تلك المسبّات الذكوريّة التي تبدو غريبة ولذيذة حين تخرج من أفواه فتيات فاتنات مغريات.

«أبو الحبَش.. الكنية الجديدة لجارك فَيْزي». ببسمة ماكرة أخبرني حسكو بالمستجدّات التي يغرق فيها فَيْزي. ولم يتمهّل ولو دقائق لإثارة تشويقي، بل سارع إلى إخباري بقصّة فَيْزي وجديده الذي يتحفنا به دومًا.

تنقّل فَيْزي بين مهن عديدة، عمل في الخياطة أكثر من عشر سنوات، لكنّه تركها وهو يكفر بها، ويلعنها، ويلعن الرزق الذي يأتيه

من خرم إبرة. ولقد كان حديثه في كلّ مرّة عن أسباب تركه للخياطة يثير الكثير من الضحك، ويبعث على التأمّل في الوقت نفسه.

قصد فَيْزي ككثيرين غيره بيروت ليشتغل ويموّل أسرته، وهناك تمّ اعتباره عاملًا عاديًّا، اشتغل أيّامًا في البرد والشمس، يفيق في الصباح الباكر، ويعود في المساء منهوكًا، وأقام في غرفة تغرقها العفونة، وتغصّ بالعمّال أمثاله. ولأنّه لم يعتد هذه الشرشحة وهو ما عبّر عنه مرارا بصوت عالٍ، فارق معظم مَن معه لعشرين سنة على الأقلّ، فقد أعفي من واجب التنظيف واعتبر كأنه غير موجود.

يوم الأحد يلبس فَيْزي بنطاله القماش الأسود بعد أن يكون قد حرص على إبقائه مكويًّا لمّاعًا، حرصه على تلميع كلّ شيء، ابتداء من ذقنه وصولًا إلى حذائه، حتى صار يطلق على "يوم العطلة"، يوم التلميع. ويقهقه وهو يخبر الشباب المقيمين معه بأنّه في كلّ يوم عطلة يلمّع عانته أيضا تحسبا لأيّ مداهمة أنثويّة، أو لأيّ صيد قد يغافله ويقتنصه في أحد الأزقة أو تحت إحدى صخور الشاطئ أو بين ركام أبنية مهدّمة. «بيروت كريمة ونحن نستاهل». كان يقول موضّحا بين الحين والآخر، ثمّ ما لبثت جملته أن تحوّلت إلى لازمة له في الفترة الأخيرة.

فَيْزي يختلف عن غيره من العمّال، جاء ملمّعا، كعادته يوم العطلة، مع أنّنا كنّا في منتصف الأسبوع، جلس معنا قرابة الساعة، ثمّ استأذننا بالذهاب لأنّ لديه موعدًا هامًّا. أشار إلى ساعة هاتفه الجوال، وحرّك كتفه حركته المعهودة التي تجعله يبدو كطائر ينفض ريشه استعدادا للتحليق. وقال لي أحتاج إلى قعدة خاصّة معك. لديّ الكثير لنتكلّم فيه.

أخبرني حسكو بأنّ فَيْزي سيذهب إلى صاحبته، وحين أبديت إعجابي بمهارات الرّجل، قال لي إنّه تزوّج من امرأة حبشيّة، تعمل في تنظيف البيوت، وفي تفريغ بيضاته أيضًا.. وراح يقهقه وهو يردّد: «بيضات، بيوض.. بيض.. أبيض وأسود.. فَيْزي وزوجته الحبشيّة يمثّلان حوار الحضارات في هذه المدينة التي تحترف الحوار بالسلاح».

في البداية أخذني الاستغراب، لكنّ حسكو أبدى حسده من فَيْزي ومن مقدرته على التأقلم مع الأجواء وتطويع الظروف. بل وقال إنّه يترجّاه أن يدله على صديقة لزوجته الحبشيّة كي يتزوّجها هو أيضًا.

«يا جاري العزيز». استهلّ فَيْزي حديثه معي في مساء اليوم الموالي بهذه اللازمة التي ظلّ يكرّرها بالموازاة مع لازمته الأخرى: «بيروت كريمة ونحن نستاهل».

"يا جاري العزيز.. سأفضفض لك. أنا لا أستطيع الإقامة مع العمّال، ولا أطيق عفونتهم ووسخهم ورائحة عرقهم وجواربهم وعراكهم المستمرّ على أمور سخيفة. هم لا يعرفون طعم الحياة الحقيقيّة. «بالنسبة إلي أعزب دهر ولا أرمل شهر». لم أستطع البقاء بعيدًا عن امرأة. حرصت في يوم العطلة أن ألمّع ثيابي وجسدي، وأخرج إلى صيد الفاتنات. وكما تعلم بيروت كريمة ونحن نستاهل. غمزت لها، ابتسمت، سألتها عن الساعة، فأوضحت بعربيّة خلبت لبّي أنّها لا تعرف، وكانت تلك الدردشة بداية تعارفنا. رأيت أنّها مثلي وحيدة غريبة تحنّ إلى مَن يؤنسها. قلت لها إنّني أريد رقم هاتفها لأتواصل معها، وهي لم تمانع.

هكذا كانت البداية. أمّا ما قبل ذلك فهو حديث آخر.

تصوّر أنّني في الورشة تدرّجت في الأسبوع الثالث من عامل عاديّ إلى مراسل للمهندس المشرف علينا الأستاذ أكرم. وحين ذكر اسم الأستاذ أكرم تهلّلت ملامحه، أشرق بالشوق إليه، تحدّث عنه بكلّ تعظيم وأبّهة. قال إنّه خواجة يخاف الله، وإنّه اسم على مسمّى. وإنّه أكرمه بتعيينه مراسلًا له، يحضّر له القهوة والشاي ويرتّب له أوراقه وغرفته، وإنّه سلّمه مفاتيح الغرفة التي استأذنه للنوم فيها، ووافق بشرط ألّا ينام فيها أحد معه.

بعد أسبوع من عملي في مكتب الأستاذ أكرم طلب منّي أن أحضّر فنجان قهوة وأجلس معه، بدأ دردشة بسيطة، سألني عن مدينتي وزوجتي وأولادي، وحثّني على ألّا أخجل منه، وأطلب أيّ مساعدة أحتاجها. واستحلفني بالله أن أخبره بحقيقتي واعدا إياي بأنّه سيتكتّم عليها. استغربت طلبه. أخبرته بما كنت قد كرّرت على مسامعه سابقًا من تنقّلي بين المهن وانعدام فرص العمل في البلد نتيجة سوء الأوضاع والتدمير الحاصل. لكنّه كان يبحث عن إجابة أخرى.

قال لي إنّ مشيتي تشبه مِشية الضبّاط، وإنّ شكلي يوحي بأنّني لست عاملا عاديًا، وإنّ ذكائي وحديثي يُنبئان بأنّني رجل مخابرات.

كان يقول لي ذلك وهو يداري صراحته ورغبته في معرفة الحقيقة. رأيت أنّ التهرّب من الاتّهام أو النظرة التي قيّدني بها لن يجدي، فاهتديت إلى مَهْرب آخر، يفضي إلى ظنّه ويتملّص منه في الوقت نفسه. أخبرته أنّني خدمت في المخابرات في العسكريّة الإلزاميّة، لكنّني رفضت التطوّع فيها، لأنّ مهنة المخابرات قذرة، وأنا رجل

يبحث عن لقمة عيشه وعيش أولاده بأمانة ونظافة.

سرّه بوحي له بالسرّ الذي خمّنه. فابتسم مطمئنًا لاعترافي.

أردفت أنّني أفضّل أن أكون عاملًا في النظافة أو متسوّلًا على أن أكون رجل مخابرات. وكما تعلم يا جاري العزيز، فالناس هنا لا يرون فينا إلّا عمّالًا أو مخابراتٍ، وما عدا ذلك دائر بدوره في فلك هاتين النظرتين الضيّقتين. وهذه الأيّام أضيفت إليهما نظرة اللاجئ وهي تجمع كلتيهما. كلّ طرف يرى في القادم تهديدًا لنسبته ومستقبله، لذلك يتقاذفوننا في سياق توازناتهم وتوجّساتهم ووساوسهم.

أمام إلحاح الأستاذ أكرم، ورغبته في إلصاق الصفة بي، أرحته بأن مثّلت الدور كما يشاء. اختلقت له ماضيًا لم أعشه في أقبية المخابرات. رويت له ما علق في ذاكرتي من قصص التعذيب التي لم تكن بعيدة عن ذاكرته هو أيضًا. ارتاح لتحليلاتي، وبدأ يكثر من الجلوس معي عند كلّ استراحة، ويستطلع رأيي في ما يجري في البلد، وحين أصدقه القول "إنّني لا أعلم على وجه الدقّة"، يبتسم وهو يصفني بالمخابرات المتخفّي، فأبادله الابتسام وأرضخ لرغبته في أن أبدي له رأيي حول بعض الأمور، وإذا به يستصوب ما أتفوّه به من تحليلات سياسيّة، هي نتاج ما اختزلت ذاكرتي من الأحاديث والنقاشات التي كانت تدور في دكّاني حين كنت خيّاطًا أو على رصيف المقهى المجاور لي.

أراحني الأستاذ أكرم، لا أدري إن كان يخاف منّي أو يودّ تحييدي وإرضائي ليقينه أنّني ما زلت أعمل في سلك المخابرات. أراحتني نظرته لي وتخمينه المتشكّك فيّ، فرحت أتكلّف بعض الغموض، كأن أستأذنه بين الفينة والأخرى في بعض الإجازات لأجل قضاء أمور

ضروريّة، وعادة ما يأتي طلبي بعد أن أتلقّى اتّصالًا هاتفيًّا أو رنّة على موبايلي، أرفض أن أبوح له بمصدرها، رفضي الدّائم لعرضه أن يوصلني بسيّارته، وكم تعمّدت أن أمثّل أمامه الانزلاق بكلمة أو بتعبير أبديه كزلّة لسان، فأقول مثلا إنّ الشباب ينتظرونني. أو عليّ أن ألتقي ببعض الشباب. ولكلمة الشباب دلالات في قاموسه وقاموسي، وقاموس كلّ مَن عانى من ويلات المخابرات وموبقاتها.

طبعا كانت تلك الإجازات لاستراق وقت أقضيه مع فتاتي الحبشيّة في غرفتها، تهاتفني حين تعود باكرًا، أسارع إليها، أستمتع برفقتها، أفرغ احتقاني، آكل ما لذّ وطاب من المأكولات الشهيّة والحلوى التي إمّا قد جاءت بها من أحد البيوت التي عملت فيها أو أعدّتها بنفسها. لم تهمّني التفاصيل كثيرًا، ما كان يهمّني هو أنّ أعيش اللذّة والمتعة وأشبع بطني وعضوي.

ولأنّ زياراتي المسائيّة كثرت، وأصبحت شبه يوميّة، حتّى كدت أدخل في عِراك مجّاني مع بعض صبية الحارة التي تقيم فيها جيسيكا؛ فتاتي الحبشيّة، ارتأيت أن أعقد عليها القران، بموجب ورقة زواج عرفيّ تبقى بحوزتي، أمزّقها حين أشاء أو حين أملّ منها، لكنّني في هذه الفترة أحتاجها، وهي تلبي احتياجاتي كلّها كأعظم زوجة. تعشقني وتستميت في سبيل إرضائي. وأنا أيضًا لا أقصّر معها. وعند الحاجة أستعين ببعض الحبوب".

صمت لحظة وأخرج من جيبه نوعًا من الحبوب قال إنّها تنفعه وقت اللزوم ثمّ تابع.

«تركت معها الورقة كي تشهرها في وجه مَن يتكلّم أو يتمادى

من أولئك العجيان. وأخبرت الدكّنجي القابع في رأس الحارة أنّني تزوّجت وأنّ زوجتي تقيم في تلك الغرفة وأنني أتردّد عليها، كي يشيع الخبر ويوقف أيّ تمادٍ محتمَل».

وصف فتاته الحبشيّة بأنّها ربّة بيت أنيقة، وأنّها تلمع لمعانًا مميّزًا في العتمة، وسوادها يأسره. وأنّها لا ترتوي مثله، من الممارسة الجنسيّة.

كان يقهقه فرحًا قائلًا: «تطعمني وأطعمها فنشبع معًا وننام نومًا عميقًا بعيدًا عن بلادة العمّال وروائحهم المدمّرة».

باح لي بأنّ جيسيكا تعشق شقرته ومشيته، وتناديه خواجة، وتخاطبه خواجة لأنّ اسمه ثقيل على لسانها، فترى في مداعبتها «بهواجة» أو كواجة تدليلًا له واحتفاء به، مؤكّدا أنّه يستمتع بهذه الصفة التي تدغدغ وهمه بأن يكون خواجة حقيقيًّا.

«الخواجة أبو الحبش». بات جارك حسكو يا جاري العزيز يطلق عليّ هذا اللقب، لغيرته منّي، والحالُ أنّهُ ما انفكّ يتوسّلُ إليّ أن أسعفه بفتاة ترضى به، لكن المشكلة أنّه كالغصن الذابل، لا شيء فيه يدعو الفتاة إلى الإعجاب به. أنا شقرتي ساعدتني وزد عليها أسلوبي وبراعتي في الحديث وإبداعي في الفراش. أمّا هو فلا شيء فيه يبعث على التفاؤل. ثيابه بائسة وذقنه غير حليقة وشعره جافّ كأنّه خارج من دوّامة غبار. وعلى الرغم من ذلك، أخذته معي حين جاءت صديقة جيسيكا إلينا قبل أيّام، لكنّه كان فاشلًا في التواصل، ظلّ عابسًا متجهّمًا طيلة السهرة، يراكم احتقانه ويراقب ميركانا بنظرات حادّة، رأت فيها الفتاة عدائيّة أكثر من شهوة وشبق، ولم تقبل بأن يقربها.

حكى لي فَيْزي تطوّره المتسارع في بيروت، كرّر لي حديثه عن

كرَم بيروت، وأنّها مدينة الفرص والأحلام، كان ينضح سعادة، ثيابه ملمّعة كذقنه وحذائه، تفوح منه رائحة العطور، وعلى وجهه بسمة لا تفارقه.

يرسل النقود لأسرته، ويعتاش على عضوه بتباهٍ وفخر.

العناد مراد

حين نطّلع على حكاياتنا في عيون الآخرين، فنسمع سيرنا الجارية بها ألسنتهم، ونرى صورنا المرسومة بريشاتهم، وعيوبنا في نظرهم، لا بدّ أن نعيد التفكير في حكاياتنا وسيرنا وعيوبنا وأنفسنا. وأن نعيد ترتيب الحكايات والوقائع، نخفّف من جموحنا، ونهدّئ ثورات شياطيننا الداخليّة.

أنا الغارقة؟ أنا الهاربة؟ أنا التابعة؟ أنا التي لا عمرَ مُحدّدَ لي؟

عُرفت بأنّني ابنة موروي الصغرى لكن لا أحد يعلم حقيقة عمري وأمري، فحتّى أمّي نفسها تبدو جاهلة بذلك.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«عناد الكرديّ هو الاستثمار الرابح بالنسبة إلينا، فقد ركّزت في دراستي لشخصيّة الكرديّ على عناده الفظيع، واستلهمت تذكية ذاك العناد بأمثلة تؤيّده وتحضّ على التشبّث به كغاية محمودة، ومنها المثل الدّارج «العناد مُراد».

هذا العناد هو سلاح ذو حدّين، متعدّد التأثيرات والمفاعيل، يمكن استثماره لخدمة السلطة، وعدم تركه في حالته الفوضويّة العفويّة كي لا ينقلب ذات يوم ضدّها، فحينذاك سيكون من الصعب السيطرة عليها وإعادة هندستها وترتيبها وتوجيهها بما يخدم أهداف

السلطة في إرساء أعمدة النظام وتكريس الحالة القائمة أكثر فأكثر».

يقوم «المساعد أوّل» بتجاربه في استثمار العناد لدى أهل البلدة، ففضلا عن إعجابه بذاك العناد هو يخشاه، لذلك يبحث عن بؤر لإبقائه مُوجّهًا ضدّ صاحبه. يحاول أن يكتسب بعضًا منه، وأحيانًا يشعر بأنّه متفوّق على الجميع في عناده، لتظلّ نقطة ضعفه متمثلّة في رضوخه لتعليمات القيادة، تلك التي يجدها في كثير من الأحيان مفتقرة إلى الوعي والخبرة.

تشاجر الأطفال في الملعب، ضرب ابن صَلْحو ابنَ شَفْرشكو بالحجر على رأسه فأدماه، ما أدّى إلى تلاسن بين والدتي الطفلين تلاه اشتباك صَلْحو وشَفْرشكو إثر رجوعهما إلى البيت مساء، فاشتعلت الحارة وانقسم أهلها بين الطرفين، وانضمّ آخرون إليهما في مشاجرتهما، فتدخّل عناصر «المساعد أوّل» بحجّة حلّ المسألة.

أوهم «المساعد أوّل» كلًا من صَلْحو وشَفْرشكو على حدة أنّه محقّ في دفاعه عن ابنه وزوجته، وأبدى إعجابه بعناده وثباته على موقفه، وعدم التنازل للآخر كي لا يكرّر اعتداءه عليه أو يستخفّ به. لم يحلّ المشكلة، بل أجّجها أكثر، وأجّل تفجّرها وإعادة تجدّدها واستعارها أيّامًا، فكان كلّ مرّة يفاقم النزاع بين صلحو وأهله وعشيرته من جهة، وشَفْرشكو وجماعته من جهة أخرى.

لم يكن بحاجة إلى إقناع أيّ منهما بالإسراع إلى إخباره بأنشطة الآخر، ومع ذلك أصبح كلّ منهما مشغولًا بتسقّط أخبار غريمه وأهله ومراقبتهم، وكلّه استعداد أن ينقل للمساعد أوّل أيّ شيء من أجل الإيقاع بهم،وتبعا لذلك ظلّ الجوّ المشحون مهيمنا على الحارة،

ومن ورائها البلدة بأكملها.

كانت جلسات التحكيم الاجتماعيّ التي عُقدت لحلّ المشكلة تخرج من دون أيّ حلول، فتؤجّل القرارات من جلسة إلى أخرى لأنّه ثمّة خلافات لم تجد طريقها إلى الحلّ، وجذر الخلاف يكمن في أنّ كلّ امرئ يعاند ويحتفظ برأيه، ويرفض أيّ إقرار بأنّه ليس على صواب تامّ.

حرص «المساعد أوّل» على استغلال العناد في مختلف المجالات، ولاسيّما في الجوانب الحزبية، وكانت صدى للعلاقات الاجتماعية التي نخرت حتّى بات كلّ امرئ يرى في الآخر مهدّدا لبقائه. أيقظ شياطين النفوس الغافية ووجّه دفّة الأحقاد نحو السّبل التي يريد.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«إنّ مفتاح تفكيك شيفرة العناد يكمن في إيهام الشخص بأنّه محقّ، وبأنّه عنيد بشكل لافت في تشبّثه برأيه وموقفه، وبأنّ قناعته تلك يستحيل تغييرها وتبديدها، حينذاك تنسف جدار حمايته الأوّل.

العناد هو الخنجر الذي ينبغي إبقاؤه مستلًّا كي يطعن به صاحبه نفسه وأهله في كلّ مرّة. يريق دماءه وهو يضحك متوهّما تحقيق إنجازات خارقة. ينبغي تفريغ تلك الشحنات القاتلة في تفاصيل يوميّة، ليتعاظم العناد ويظلّ فيّاضا هادرًا، ينتقل من الكلام إلى التحيّة، فيتمسّك كلّ امرئ بعدم مبادرة الآخر بالتحيّة، ويحدّث نفسه أنّ عناد الآخر وتكبّره يمنعانه من مبادرته بالسلام، وهكذا تكون دورة العناد مولّدة لدورة تباغض ثمّ عنف تالٍ مرصود».

يحتفظ في ذاكرته ببعض الحكايات التراثيّة التي تؤرّخ لسلطة العناد وحماقة المتعاندين، كتلك الحكاية التي تذكر أنّ عددًا من الرجال اقتتلوا وتعاركوا وقتل بعضهم بعضًا على خلفيّة مشادّة كلاميّة جرّاء رأي أحدهم في ذنب الكلب هل لامس مياه النهر حين قفز إليها، أو لم يلامسها؟ وهل ابتلّ جرّاء ذلك أم لا؟

وبين مؤكّد لملامسة الذنب الماء ونافٍ له، وإصرار كلّ واحد على موقفه، واتّهام الآخر بقصور النظر، فاتّهامه بالغباء، يتطوّر الخلاف وتقع مجزرة ذهب ضحيّتها خمسة رجال من هذا الطرف وسبعة من الطرف الآخر، واشتهرت الحادثة بـ«واقعة ذيل الكلب». حتّى بات كلّ احتدام للنقاش حول مسألة مّا يوصف بأنّه ذيل الكلب، في إشارة إلى استحالة استقامة الأحوال، وإلى أنّ ذلك بات من المحال، ويتمّ التذكير بالمثل الذي مفاده أنّهم وضعوا ذيل الكلب أربعين سنة في القالب لكنّه لم يستقم قطّ.

حادثة الملعب أيضًا من حوادث العناد الشهيرة في البلدة، ذلك أنّ حكم مباراة كان يودّ إشهار الإنذار الأصفر في وجه أحد اللاعبين فأخطأ وأشهر الإنذار الأحمر، ولم يقبل بتغيير رأيه، أو الاعتراف بخطئه، وفي المقابل رفض اللاعب الخروج والامتثال للطرد التعسّفي الجائر بحقّه، ومن ثمّة تلاسن الفريقان، ثمّ تدافع بعض اللاعبين وانهال آخرون على الحكم، وفي النهاية تدخّل الجمهور فكانت مقتلة قضى فيها ثلاثة أشخاص ولم يُعرف مَن قتلهم بالضبط، لأنّ الكلّ كان يقاتل ويشاجر ويضرب.

انقسمت البلدة بين مؤيّد لموقف الحكم ومعارض له، منهم مَن

أدانه لأنّه كان السبب في مقتل ثلاثة شبّان، ومنهم مَن برّأه من أيّ اتّهام، وذكر أنّه كان يقوم بتحكيمه بشكل مناسب، وهكذا ظلّت حادثة الملعب مثيرة للخلافات وبؤرة مرشّحة للإنفجار في كلّ مرّة.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«كلّ فرد يشعر بالقوّة والأنفة والشموخ حين يتمسّك برأيه، ويحتاج إلى الشعور بأهمّيته على ذاك الأساس، وكي يتمّ الحفاظ على سقف العناد في بركته الاجتماعيّة والتحزّبيّة لا بدّ من الاشتغال على مسألة اقتران التنازل عن الموقف بالحطّ من كرامة الرجل وشرفه.

هناك بعض الحكايات التي ترشح فتكًا بالشخصية، وتنطلق من رغبة العنيد في مقارعة الجميع، وإبراز أنّه على حقّ، وكأنّ الاقتناع برأي مّا أو التنازل عن موقف إهانة كبرى. هكذا يتمّ تصوير الأمر، والخيال المتربّص بالآخر يظلّ متأهّبًا للنهوض بدور المحرّض على تسخيف الجميع وتعظيم صاحبه وموقفه فقط.

لا بُدّ من التنبيه إلى وجوب تقاطع العناد مع الرعونة كي يكون التاج مثمرًا، بحيث يتهافت كلّ شخص على الثأر لما لحقه من استخفاف على يد طرف آخر، وكأنّ الانتهاك الذي تمّ بحقّه هو عبث بثروته واستهانة بشخصه وكرامته وتكمن مسؤوليّته في نظريته التي يطلق عليها توصيف «مُراد الكرديّ»، عبر إيقاد جذوة الاختلاف ليتّخذ طريقه إلى الخلاف، وسيكفل عناد كلّ طرف الانتقال إلى مرحلة المشاحنة ثمّ المشاجرة فالعداء، كي يشعر بأنّه نال مراده من الآخر.

يجب إبقاء ذاك العناد جمرًا تحت رماد الضغائن، ونيرانًا على أهبة التوجيه والتسيير والتدمير. ولا بدّ من التركيز على استغلاله كطاقة

كامنة مبدّدة، لتكون القوّة الفاعلة في ترسيخ التقسيم الاجتماعيّ والحزبيّ وفي خلق تكتّلات داخل التجمّعات، بالإضافة إلى إبقاء جذور الخلافات على أهبّة التفجّر في أيّ وقت، ولا سيّما إذا ما اقتضت الحاجة ذلك».

نظرية النسب

كثيرة هي المجالات التي يمكن للمساعد أوّل أن يستثمر فيها. منها تلك التي تتعلّق بشخصيّة الكرديّ، ومنها ما يتعلّق بطبيعة حياته وعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والعنف الكامن أحد أوجه استثماره الرابح ولا شكّ.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«يحتاج الكرديّ إلى أن يفرغ عنفه في أحد أو شيء، ويجب استغلال تلك الحاجة الماسّة في شخصيّته، وتوجيهها إلى ما من شأنه أن ينصبّ في خدمة النظام وسياساته.

كيف يمكن تحويل نقطة القوّة إلى نقطة ضعف وهلاك؟ تلك هي الجدلية التي يجب أن نبني عليها افتراضاتنا، وأن نسعى إلى إجراء تجاربنا الميدانيّة من منطلقها.

إذا فتحت صندوق الذاكرة يمكنك العثور على بؤر كثيرة مرشّحة للتفجّر، تلك المدرجة في سياق ما يعرف بالنكايات. وتلك هي المناطق التي علينا أن نتحرّك فيها فنختبر أدواتنا ونرصد نتائجها المتتالية».

هو ليس بذاك الحاصد المتسرّع التوّاق لجني ثمار بذوره في موسم أو موسمين، فهو يدرك أنّه يحتاج إلى بعض الوقت لتؤتي قنابله

الموقوتة أُكُلها في البلدة والقرى التابعة لها، ثمّ لتنتقل عبر الارتباطات العشائريّة إلى البلدات والمناطق المجاورة القريبة والبعيدة.

«النقاط السوداء الغائرة في القلوب، والقارّة في النفوس تلعب دورًا مصيريًّا في تعاملات الناس في ما بينهم، فقد تنشب خلافات عميقة وتتطوّر وتتشعّب دوائرها انطلاقًا من حكايات وحوادث تعود إلى عشرات السنين، ذلك أنّ الناس يتوارثون الأحقاد كما يتوارثون الأملاك والعقارات، لكنّ هذه تختلف عن تلك بأنّها تكبر بعد التوارث ولا تهتدي إلى سبيل التلاشي أو الاندثار. تتوزّع الضغائن الباحثة عن سبل الانتقام على الورثة، ويكون لكلّ وريث حصّته، وتكبر الأحقاد بمرور السنين، وتنتقل وصايا الآباء للأبناء».

في قرية كر نوح نشب عِراك بين الجارين رسيلو وعبدكي على أحقّيّة كلّ منهما في وضع القشّ الذي يجمعه في بيدر السّاحة التي يشرف عليها بيتاهما، ولأنّ كلّ واحد كان يسابق الآخر في جمع كمّية أكبر من جاره، بإرسال زوجته أكثر من مرّة في اليوم لجمع القشّ، فقد اشتدّ بينهما العراك، ووصل حدّ الاشتباك مرّتين في اليوم، ولم يفلح أحد من أهل القرية في تهدئة الخواطر أو عقد مصالحة أو اتّفاق بينهما.

في اللّيل استفاق رسيلو وعبدكي على نيران تلتهم قشّهما، اتّهم كلٌّ منهما الآخر بافتعال الحريق، وأنّه نكاية بالآخر أحرق بيدره أيضًا للانتقام منه، وكان الاستشهاد بحكاية مَن عُرض عليه أن يطلب ما يشاء، على أن يكون لصاحبه ضعف ما يطلب، فاختار فقء واحدة من عينيه كي يتمّ فقء عينَيْ الآخر.

راح كلّ واحد يتّهم الآخر بأنّ الحقد قد أعمى قلبه وأفقده رشده، حتّى بات مستعدًا لفعل أيّ شيء مهما كان شائنًا لإيذاء جاره.

بل إنّ كلاً منهما زرع في باحة منزله بمحاذاة جدار الآخر مشاتل خضار بالغ في سقايتها عسى أن يتسرّب الماء من شقوق الأرض إلى أساسات بيت جاره فيسبّب تشقّقات في جدرانه تشغل بال صاحب الدّار وتقضّ مضجعه، فتنقص من عمره.

لا أحد يدري من أين خرجت تلك الإشاعة التي فحواها أنّ رسيلو يراود زوجة عبدكي عن نفسها، وينظر إليها نظرات خبيثة، وأنّه بذلك يردّ دَيْنًا قديمًا لعبدكي الذي كان قد فتك ببشيرة أخت رسيلو فأجبرت على الزواج برجل هرم بعد أن لحقتها سمعة سيّئة جرّاء تلفيقات عبدكي.

انتشرت في القرية حمّى التصارع والاختلاف، فمن الخلاف على أدوار السقاية إلى الخلاف على إطعام ملّا القرية ومعلّمها. ثمّ يتمّ تغليف الخلافات بأردية حزبيّة، ما دام كلّ من في قرية كر نوح صار زعيما لحزب مّا، وكأنّ تلك القرية أصبحت ملتقى الأحزاب، ولا أحد يقبل أن يكون تابعًا للآخر، حتّى أنّهم حاروا في أسماء الأحزاب التي كانوا ينتسبون إليها، والبعض منهم كاد ينسى اسم حزبه في أكثر من مناسبة.

كبرت قضية الحدود في قرية كر نوح، اختلف الأهالي على الحدود التي تفصل بين بيوتهم المتحاذية والمتجاورة، كما اختلفوا على الحدود التي تفصل بين أراضيهم الزراعيّة، وهنا أتى دور «المساعد أوّل» في تأجيج الخلافات وتذكية الصراعات. رفع مقترحًا إلى رئيس

فرعه يقول فيه أنّ الوقت حان لإعادة تقسيم أراضي البلدة والقرى المحيطة بها، وإنّه يمكن تعميم المشروع ليكون حلقة أخرى في سلسلة الإجراءات الثوريّة التي قام بها النظام سابقًا.

«ترسيم الحدود بين البيوت والقرى سيساعد على إلهاء أهل المنطقة لسنوات، وسيقوم بتلغيم كلّ مكان بالخلافات التي لن تنتهي، وستحصد السلطة نتائج غير متوقّعة، لأنّ الترسيم سيثير كثيرًا من النقاط والأمور، ويأخذ التراضي بين الأطراف بعين الاعتبار، وأنّه لن يكون هناك أيّ تراضٍ بين الناس بحسب معرفتي بهم ودراستي لشخصيّاتهم. وعليه، أؤكّد أنّ العملية حلقة ناجحة في دورة إرساء كراسي الحكم، وإضعاف الأعداء».

انتسب رسيلو نكاية بعبدكي إلى حزب البعث، وتم تعيينه أمينًا لحلقة القرية، وأصبحت كلمته مسموعة عند السلطة، ما دفع عبدكي إلى تلفيق تهمة له، من خلال إخبار النسناس بتصريحات رسيلو المعادية للسلطة واتّهامه بأنّه سبّ السيّد الرئيس في بيته ليلة عَرض التلفزيون مقابلة مع الرئيس ألغت حلقة من مسلسله المفضّل. وقد تسبّب ذلك في إجراء تحقيق مع رسيلو، اكتفى فيه النسناس بتوجيه بعض الإهانات والصّفعات إليه، ثمّ تمرير المسألة، بعدّة أكياس حنطة وشعير وعدس.

أصبح تنافس رسيلو وعبدكي مداره نقل تقاريرهما الشفهيّة إلى النسناس، فضلا عن تنافسهما في الإغداق عليه بنسبة من زراعتهما، فكان يستدعي كلّ واحد منهما بشكل دوريّ ليوهم الآخر بأنّه يقوم بحصاره والضغط عليه، وبذلك يكسب نسبته منهما معًا.

«يجب أن يشمل الإحصاء الموازي كلّ شيء، ما يملك الناس من عقارات وبيوت وحيوانات، كي يكون لدى السلطة تصوّر شامل عن كلّ أسرة ومواردها وسبل الضغط عليها، ما يسمح باستغلال نقاط الضعف والتسلّل من خلالها وتطويعها لصالح الدولة.

النسبة هي النقطة التي أشدّد عليها، ولا بدّ من السعي إلى جعلها عرفا اجتماعيًا، أرصد استعداد الناس في البلدة وقراها لدفع نسب دائمة إلى عناصر المخابرات كي يغضّوا الطرف عن بعض ممارساتهم، ويسمحوا لهم ببعض التجاوزات في المناسبات، كإطلاق بعض الأعيرة الناريّة أو تأخير العرس لعدّة ساعات، أو التدخّل لصالح أحدهم ومساعدته على أخذ حصّته من التموين المخصّص لأسرته، أو تسريع دوره في الفرن..».

الواضح أنّ نظرية النسبيّة لدى «المساعد أوّل» تختلف عن نظرية أنشتاين، فنسبيّته تعتمد ما يسمّيه عقد شراكة بين المواطن والسلطة، وتقوم على أخذ حصص من الناس لصالح المخابرات، والحصّة تتراوح بين عشرة وخمس عشرة بالمئة، ومجمل المبالغ المحصّلة يُرصد للمفرزة، كي تغطّي بها نفقاتها، ومن سمات هذه النّسب أنّها متحوّلة، لا تلبث أن تتضاعف. صارت نظرية النسبيّة للمساعد أوّل ممارسة مخابراتيّة مكرّسة، وعرفًا متّبعًا في كلّ الفروع والمفارز، وبذلك أصبح أيّ عنصر من عناصر المخابرات شريكًا مساهمًا في كلّ الأعمال.

ومع تطوّر النظرية والممارسات المتعلّقة بها، سمح لكلّ العناصر بالعمل لصالحهم الخاصّ، وغُضّ النظر عن أنشطتهم في تأمين النِّسب، والعمل على توسيعها، فكثرت البسطات على الشوارع،

وانتشر باعة الدخان المهرّب على امتداد الشارع العام، كثرت الدرّاجات الناريّة المهرّبة، وأصبح الاستثمار رائجًا، وتأكّدت إمكانية توسيع التعاون المشترك بين الدولة والشعب، فيكون الربط عضويًا يشتدّ متانة مع الزمن.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«هذا شعب ينظر أفراده بعضهم إلى بعض بعين العداء، يحترفون النّيل من أنفسهم، ويجيد الواحد منهم الفتك بالآخر لإتقانهم فنون الإيذاء، يفتدون الغريب ويفضّلونه على أنفسهم، فيثقون فيه حكمًا بينهم، والحال أنّهم لا يقبلون بتحكيم أنفسهم، يكمن بعضهم لبعض باستمرار ويفخّخون أحاديثهم بالإشارات والتوريات. هم شعب ينظر أبناؤه إلى إخوتهم عبر العدسات المقرّبة للبنادق وأصابعهم ضاغطة على زناد تؤجّجه الأحقاد التاريخيّة المتوارثة».

البؤر المعتمة

قاد الاستثمار في البؤر المعتمة «المساعد أوّل» إلى حادثة وقعت أيّام الوحدة السوريّة المصريّة، حين أقدم ثلاثة من أهل البلدة بإيعاز من مدير الناحية على كتابة شعارات مناهضة للسلطة على جدران المدارس، تهتف بحياة الملّا مصطفى بارزاني الذي كان مستمرًّا في ثورته ضدّ الأنظمة العراقية المتعاقبة. وقد أدّت الحادثة إلى تغييرات في موازين القوى في البلدة.

إنّ لعبة الخادم المخدوم هي النموذج الذي عمل على ترجمته واقعيًّا. فكان أن أكثر من تنصيب أتباعه الذين يرى فيهم خدمًا للسلطة في مراكز ومناصب يعتبرونها عظيمة، كأن يعيّن أحدهم مدير مدرسة، أو مدير دائرة صغيرة في البلدة، فيتوهّم الخادم أنّه أصبح سيّدًا، ما دام قد أصبح لديه عدد من المخدومين يحتاجون إلى خدماته. كان يفتخر بترويج اللعبة التي يغلّفها بشعار «خدمة الدولة واجب مقدّس على الجميع»، ملحّا على أنّ في ذلك شرفا للمواطن الصالح، ودليلا على ولائه العميق وأحقّيّته تبعا لذلك بالتنعّم بخيرات الوطن.

قام بعضهم بتلطيخ العلم الوطنيّ بالبراز والطين، وجرى ذلك بتخطيط ومراقبة ومتابعة من مدير الناحية حينذاك، واتُّخذ ذريعة

للفتك بالبلدة التي كان تململها من النظام متصاعدًا ومستعرًا. اعتقل مئات الشباب والرجال من أجل التحقيق معهم، تعرّضوا لأشدّ صنوف التعذيب، وأخيرًا تمّ تلفيق التهمة لعدد منهم، فأُلقوا في السجون وفصلوا من مدارسهم، ثمّ أخذت أراضي أهلهم ووزّعت على مَن شكّلوا فئة الأذيال وهم أولئك الذين هيّؤوا الأرضيّة لضرب البنية الاجتماعية وتغيير التوازنات ومراكز الثقل والتأثير في البلدة.

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«أوصي بأهمّيّة استمرار العمل بقاعدة إذلال العزيز وإعزاز الذليل، القاعدة التي ظلّت محتفظة بتجدّدها وفعاليتها، وتتجلّى في تجريد أولئك الذين يعتبرون قيادات تقليدية للمجتمع من امتيازاتهم تباعًا وبالتدريج، والخطوة الأولى هي تجفيف منابع دعمهم الاقتصاديّ وتمويلهم الذاتيّ، ليجدوا أنفسهم في ضائقة ماديّة تمنعهم من أداء واجباتهم بالشكل الذي واظبوا عليه، وَعُرفوا به، ويترافق ذلك مع بثّ إشاعات عنهم، وإثارة الشبهات من حولهم، وإجراء تحقيقات دائمة معهم بعد افتعال المشاكل واتّهامهم بأنّ لهم فيها دورًا، ثمّ إبقائهم موضع شكّ لتبدأ الدوائر القريبة منهم بالانفضاض من حولهم، وتجنّبهم خشية أن يعود عليهم القرب منهم بما يسمّونه وجع الرأس».

كان المختار هداية الملقّب شعبيًّا بخربو واحدا من الذين استمرّت المفارز الأمنية في الاعتماد عليهم، واشتغلت بصناعة أمثاله وتصديرهم وإبرازهم كوجوه اجتماعية للمدينة، لتشكيل تلك الفئة التي تعرف عند السلطة والناس معًا بأنّها وجوه القباحة.

وأمثال أولئك يحتاج إليهم الجميع ليقوموا بدور الوساطة وتسهيل التعاملات مع السلطة وتمرير بعض الأمور والمسائل، لما لهم من علاقات ونفوذ.

أصل الحكاية أنّ خربو واحد من الثّلاثة الذين كتبوا الشعارات على الجدران، وقد انتقل بولائه من سلطة إلى أخرى حتّى استقرّ تابعا أمينا للمساعد أوّل. كان في العشرينات من عمره حين أقدم على فعلته التي اعتُبرت نافذة السلطة للانتقام من المدينة لاشتهارها بأنّها معقل الحركة الوطنيّة الكرديّة في سوريا، وضمّها عددًا من المتنوّرين الكُرد، ممّن يتفانون في خدمة اللغة الكردية، وإن كان فيهم من يمازج بين الفكر الماركسي والقوميّ، ويتّخذ ماركسيّته دربًا إلى بلورة هويّته القوميّة، ومن يجمع بين الفكر الدينيّ والقوميّ، فيكون الدين لديه مَعبرًا إلى تحقيق ذاته القوميّة أيضًا.

كانت السلطة ترى في النوعين خطرًا عليها، لذلك قرّرت خلق تيّار مختلف، سعت لتوسيعه بالتقادم، فكان خربو حجر الأساس الذي أرست عليه مخطّطها وانطلقت منه. تيّار يذكي الأنانيّة في النفوس، ويوسّع من شريحة الانتهازيّين، بنوع من شراء الذمم.

عاش خربو في غرفة بائسة تابعة للكنيسة، لأنّ زوجة أبيه لم تقبل أن يمكث في البيت بعد وفاة أمّه، واتّهمته بالتحرّش بها، ما جرّ عليه غضب والده فنفاه من القرية، لتغدو البلدة ملاذه ومنفاه.

كان يجيد القراءة والكتابة، بالقدر الذي تعلّمه على يدي شيخ القرية. وكان يتنقّل في السوق من مكان إلى آخر ويجلس في المقهى طويلًا، يحبّ مراقبة النّاس وينخرط في الأنشطة الشعبيّة، فيحضر

المباريات ويشارك فيها، فضلا عن إكثاره من المرور في شوارع المسيحيّين، عساه يحظى بنظرة أو لفتة من نسائهم الفاتنات.

بعد تنفيذه لمهمّته التي كُلّف بها مُنِحَ المختار شهادة محو الأمّية، ثمّ تمكّن لاحقًا بعد أن قويت شوكته من تحصيل شهادة الكفاءة، وبعدها البكالوريا، إثر ذلك حرص على أن يقدّم نفسه بوصفه حاصلا على إجازة جامعيّة من إحدى الدول الاشتراكيّة، مع العلم أنّ جميع أهل البلدة كانوا يعرفون أنّه لم يُسافر إلى الخارج قطّ.

اعترف خربو بفعلته قبل موته بأسابيع، كان الشلل النصفيّ قد أنهكه، شعُر بدنّو أجله، واجتاحته موجة تديّن ما قبل الموت، فحاول التكفير عن ذنوبه بالاعتراف بها، وطلب الغفران ممّن أساء إليهم، عساه يشعر ببعض الاطمئنان. اعترف بأنّ مدير الناحية آنذاك استدعاه، وطلب منه تنفيذ المهمّة، وأغراه بأنّه سيجعله من وجوه البلدة، فيمنحه لقب المختار ويضعه في منصب رسميّ ويوصي بتقديره، واعدا إيّاه بحصّة مناسبة من الأراضي التي ستقوم الدولة بإعادة توزيعها، وبكلمة عليا في البلدة إذ أنّ الجميع سيحتاجون إليه في تعاملاتهم، ليتمكّن في ضوء ذلك من تأسيس أسرة، ويصبح من الشخصيات القياديّة المفاتيح في البلدة.

كان العرض مغريًا. ومن ثمّة قام خربو هو أيضا بتجنيد شلّمو وعدنانكي وإقناعهما بمشاركته المهمّة، مانحا إيّاهما الوعود نفسها التي مُنح، وكانا مثله على هامش الحياة والاهتمام في البلدة، يشعران بالذلّ من استعلاء بعض الأهالي عليهما، وعدم اهتمام الفتيات بهما.

لم يتطلّب تنفيذ المهمّة من خربو ومعاونيه جهدًا كبيرًا، فقد

ساعدهم منع التجوّل الذي فرضه مدير الناحية على تنفيذ مهمّتهما براحة، ثمّ كان المنعطف التالي في حياتهم، وفي سيرة البلدة.

لم تتأخّر التغييرات التي طرأت على هداية بالظهور، فقد أشاع أنّه سيقدّم طلبا للحصول على وظيفة في البلديّة، وساعده مدير الناحية ليعيّن فيها بدرجة موظّف من الفئة الخامسة، تحديدا: حارسًا ليليًّا، ولكنّه يداوم في الليل والنهار. وانتقل إلى السكن في غرفة تابعة للبلدية، ثمّ ما لبث أن اشترى أرضًا قريبة من السوق، وبدأ يسوّق لنفسه لقب المختار، على اعتبار أنّه كان يكتب لبعض الناس طلبات التوظيف، ويقرأ لآخرين أخبار الصحف في المقهى. ثمّ جاءت حيازته ختم المخترة لتُعتبر إنجازه الأبرز.

كان شلّمو وعدنانكي من أوّل ضحايا المختار خربو، إذ تمّ الزجّ بعدنانكي ضمن المعتقلين، ففقد عقله لفرط التعذيب الوحشيّ الذي لاقاه، وأصبح مجنونًا شهيرًا من مجانين البلدة، لا يكفّ عن ترديد شعارات تؤيد الحزب والنظام، وإنشاد الأغاني التي تمجّد الزعيم. أمّا شلّمو فقد وجد مقتولًا في غرفته بعد تنفيذ العملية بثلاثة أيّام.

وصف النّاس قلم خربو بأنّه يكتب بحبر مسموم، أو أنّه ينقّط سمًّا، لكنّهم لم يستطيعوا تحاشي اللّجوء إليه باعتباره موظّفًا في البلدية، ومختارًا من مخاتير البلدة، ومسموع الكلمة لدى مدير الناحية. فكان يتمّ توسيطه في السؤال عن بعض المعتقلين، أو لتمرير بعض الأمور، وختم بعض الأوراق، لأنّ الناس في البلدة بطبعها تكره زيارة الدوائر الرسميّة لما تشعر به فيها من الذلّ، ومن أنّها سلطات احتلال، لاسيّما وقد فرض على المراجعين أن يتكلّموا مع الموظّفين باللغة العربيّة التي

لم يكن يجيدها إلاّ قليلون من أهل البلدة.

كانت لخربو مساهمة كبرى في تجريد كثير من أهل البلدة والقرى المجاورة لها من جنسيّاتهم السوريّة إبّان إحصاء سنة 1963 الشهير، الذي نزع الجنسيّة عن ألوف النّاس، بحجّة أنّهم من تركيا، أو من بلد آخر. فنشأت تبعًا لذلك فئة أجانب محافظة الحسكة، وفئة مكتومي القيد. كانت مشكلة كبيرة تتوسّع مخلّفاتها وتتفاقم بالتقادم، وسببا لمشاكل اجتماعية واقتصادية لا تنتهي. ولكنّها ظلّت بالنسبة إلى خربو تبعًا للثراء لا ينضب.

اعتُبر خربو من وجوه السلطة في البلدة، أو وجوه القباحة على حدّ توصيف أهاليها. تستعين به مديرية الناحية والمفارز الأمنية، لمعرفته بخبايا البلدة وأهلها، وبالتشعّبات الاجتماعيّة والعشائريّة، اعتُمد مستشارا للمساعد أولّ، كما كان لمدير الناحية من قبله. مُنح لقب المختار، واتّخذ ختما يدرّ عليه ذهبًا. فجميع مَن صنّفوا ضمن أجانب محافظة الحسكة ومكتومي القيد بدؤوا يلجؤون إليه في تعاملاتهم، حتّى أنّه وضع أسعارا ثابتة للمعاملات التي يختمها، والوساطات التي يقوم بها.

أصبح من ملّاكي الأراضي، وبات يقدّم نفسه بوصف المختار وصاحب الأراضي والعقارات، والرجل المتنوّر العلمانيّ، وواضب على ارتداء الأطقم الرسمية حتى في الصيف، لأنّها تشعره بالثقة في النفس وتضفي عليه هيبة ووقارًا، على ما يظنّ.

كان المختار خربو من رجال «المساعد أوّل» الذين تمثّلت مهمّتهم لعقود في تفتيت البنية الاجتماعية للبلدة، وهو أوّل من طبّقت عليه

نظرية إعزاز الذليل، ونموذجها الصّالح للاستنساخ حسب «المساعد أوّل»، وقد حاول أن يجعل من السلطة الممنوحة له منظّفا لتاريخه، فعمل جاهدا على الاحتفاظ بمكتسباته وامتيازاته، وفي المقابل كان يجد نفسه باستمرار مطالبًا بتقديم إثباتات ولائه المطلق للسلطة بشتّى السبل.

اكتسب هداية لقب خربو في حادثة مشهورة بالبلدة. جرى ذلك أثناء الإحصاء، كان الحاجّ محمود قد تأخّر في التسجيل جرّاء سفره لأداء مناسك الحجّ، وحين عاد وجد نفسه مصنّفًا ضمن فئة الأجانب، وبعد أن راجع موظّفي السجلّ المدنيّ، أخبروه أنّه يستحيل استدراك المسألة، وأنّ الأمر قد تمّ وانتهى، ولا مجال للعودة عنه. فلم يكن من محمود إلّا أن لجأ إلى هداية الذي وعده بأن يجعل منه مواطنًا، واشترط عليه دفع مبلغ معيّن، عُدّ كبيرًا حينذاك.

بعد أقلّ من شهر تمكّن هداية من تحصيل الموافقة على تسجيله ضمن المواطنين، وأخرج له هويّة شخصيّة. وبين استغراب محمود وبهجته بالأمر، أخبر هداية بأنّه بالفعل يستحقّ أن يعطيه هدية كبيرة لقاء ذلك.

وأمام مثل ذلك الثناء شعر هداية بالنشوة، فوضع يده على صدره ممثّلًا حركة مسرحيّة تجسّد قدرته على تيسير الصعوبات، وتشير إلى أنّه رجل ذو علاقات قويّة، وأنّه ليس كما يظنّ البعض عديم النفع، أو خربو، حسب المصطلح الشعبيّ الذي يرمز إلى هامشيّة مَن يوصف به، ويعني مزيجًا من الغباء والسذاجة واللامسؤوليّة. ومنذ ذلك الحين اشتهر هداية بلقب خربو، ثمّ بالمختار خربو.

الفائدة الكبرى الإضافية التي غنمها المختار خربو جسّدها تهافت الطلبات عليه لاستخراج بعض الأوراق الخاصة بأجانب الحسكة وختمها لعدد من المغتربين ممّن كانوا يطلبون اللّجوء في الدول الأوربية زاعمين أنّهم من المجرّدين من الجنسيّة، لأنّ ذلك قد يسرّع حصولهم على اللجوء، ويدعم قضيّتهم، ويزيد من فرص تمتّعهم بالإقامة والجنسيّة لاحقًا.

كان المختار خربو يكرّر لنفسه ولمن يطلب منه ختم بعض الأوراق أو استخراج بعض الهويّات الحمراء الخاصّة بأجانب الحسكة، وبطاقات التعريف المنقوصة من ختمه وشهادته فقط، بأنّه ثمّة من اتّهمه بالضررّ ببعض الناس الذين صنّفوا ضمن الأجانب، والحال أنّ المواطنين يترجّونه ويدفعون له المبالغ الكبيرة كي يعطيهم أوراقًا تدلّ على أنّهم أجانب، فيضحك للمفارقة في انتشاء.

والحقّ أنّ المختار علّم «المساعد أوّل» درسًا هامًّا من حيث لا يدري، إذ جسّد له مثال التلوّن بحسب السلطة، مكرّرًا على مسامعه أنّ السلطة تحتاج دومًا لرجالها الأوفياء، وأنّ البراعة تكمن في ألّا يكون المرء خمولًا، لأنّ عجلة السلطة الدائرة تحتاج دومًا إلى تجديد، والذي يقف في مكانه ستدوسه العجلة أثناء دورانها، لذلك يجب على ابن السلطة أن يبرع في إبقاء نفسه على جاهزية عالية دومًا، فلا يركن للكسل أو الملل.

الرجل البصّاق

كتب الطبيب الشرعيّ في تقريره أنّ توفيقو كان يهدّد أمن البلد وسلامة أهله، لذلك تمّ إطلاق النار عليه أثناء محاولته القيام بعمل إرهابيّ.

بعد إجراءات التنصيب الكركوزيّة، والطريقة المسرحية التي رتّب بها الأمر، سادت أجواء الترقّب والانتظار مرّة أخرى. والحكاية التي كانت عبارة عن نكتة حكاها توفيقو راجت في البلدة، وتداولها الناس بمرح واعتبار في الوقت نفسه، وكأنّهم وجدوا فيها تعبيرًا عن ماضيهم ومستقبلهم.

في الحالات الطبيعية يصعب اقتفاء أثر النكات أو الإشاعات، فتغدو معرفة مطلقيها ومروّجيها ضربا من الاستحالة فهي تلقى كقنبلة متفجّرة في مستنقع راكد، أمّا في دولة «المساعد أوّل» فقد دأبوا على تقديم أحدهم كأضحية كلّما كانت هناك قضية بحاجة إلى ذلك.

حين مات ذاك الذي كان ينبش قبور الموتى حديثًا ويسرق أكفانهم، والمشهور بلقب «سارق الكفن»، لم يترحّم عليه أو يشيّعه أحد من أهل قريته، فأقسم ابنه على أن يجبر الناس كلّهم على الترحّم عليه بشدّة، والأسف لرحيله فما كان منه إلاّ أن سلك درب أبيه في سرقة الأكفان، وزاد عليه خوزقة الموتى. ما دفع أهل القرية جميعًا إلى

التندّم على أبيه الذي كان يكتفي بسرقة الأكفان من دون أيّ تمثيل أو تنكيل بالموتى.

عبر الغربلة والاقتفاء والتحقيق مع عدد من الناس، ومن خلال إجراء تقاطعات بين أقوالهم وتقارير المخبرين، توصّل «المساعد أوّل» إلى افتراض أنّ توفيقو هو المروّج للنكتة، وكي لا يجعل منه بطلًا، أو يساهم في ترويج النكتة أكثر ممّا هي رائجة أساسًا، لفّق له تهمة محاولة النيل من هيبة الدولة، من دون أن يحدّد ما الذي قام به بالضبط.

«التأويل أساس عمل المخابرات، وقراءة ما في الصدور صلب ذاك التأويل».

كان العهد الجديد بحاجة إلى تقديم أضحيات في مختلف المجالات، وكان المسعى متأرجحًا بين الترغيب والترهيب. بحجّة أنّ هناك خطوطًا حمرًا ينبغي عدم تجاوزها. تلك الخطوط التي ستتحوّل بعد سنوات إلى نكتة عالمية هي أيضا، يقولها رئيس أعظم دولة، وإن كان كلامه سيوصف بأنّه ضراط على البلاط.

خرج توفيقو من السجن بعد سبعة أشهر، وكالعادة لم يخضع لأيّ محاكمة، بل عرض على القاضي قبل الإفراج عنه بأسبوع، من أجل إكمال سلسلة الإجراءات الروتينية لا غير، ومن ثمّة أفرج عنه بسند كفالة لتبقى قضيته مفتوحة معلّقة.

توفيقو الذي كان يتمتّع بقدرة على سرد النكات بأسلوب مميّز رشيق، أصبح شخصًا آخر مختلفًا عمّا كان عليه. هجر الكلام إلّا قليلًا، مقتصرا على التحيّات، لكنّه التزم البصق منهجًا جديدًا يسير عليه. بدأ بنثر بصاقه يمينًا ويسارًا. لا يكاد يسمع خبرًا في الشارع

حتّى يطلق بصاقه كالسهم على الأرض. يميل رأسه بحركة اعتيادية مكرّرة إلى اليمين مع شيء من الانحناء، وإنزال الكتف وإرجاعه إلى الوراء قليلًا، ثمّ البصق.

لم يكترث توفيقو للتحذيرات التي أُلقيت على مسامعه، بأنّ جسده سينشف، ولسانه سيصبح كغصن يابس، وحلقه سيتشقّق كتشقّق ساقية نضب ماؤها. فواظب على طريقته الجديدة في مواجهة العالم. وطبعا تمّ التلاعب باسمه ليوافق سلوكه الجديد وحالته الطارئة.

اختصر اسمه إلى توفو، أو طوفو، ثمّ اختصر أكثر إلى تفّو، في إشارة واضحة إلى بصاقه المستمرّ. ذلك أنّ البصق بالكردية «تيف»، وتأتي الواو لتكرّد الاسم وتحوّله إلى صفة، وتمنحه قدرة على التعدّي إلى ميدان تعبير آخر؛ لعبة الدالّ والمدلول والعبث بالمفردات وجذورها، واختراع ألقاب تناسب أصحابها أكثر من أسمائهم نفسها.

شيئا فشيئا بدأ المحيطون بتوفيقو يتفهمون بصقاته ويستوعبونها فلا يعاتبونه عليها، بل هناك مَن بدأ يقلّده، ولا سيّما عند الاستماع إلى أخبار المراسيم الصادرة تباعًا، والتي وصف صاحبها بأنّه مصاب بإسهال المراسيم وحمّى توقيعها. حتى أنّ زوجة توفيقو اضطرّت إلى أن تضع لاصقًا شفافًا على شاشة التلفزيون، لأنّ سعار البصق لدى زوجها كان يرتفع أثناء تفرّجه على البرامج المقدّمة. ثمّ بلغ بها الأمر أن وضعت على الشريط الإخباريّ لاصقًا أسود كي تخفيه عن الأعين، لأنّ الأخبار الواردة فيه كانت تؤذي عيني توفيقو، وتلهب شهية البصق لديه. ولأنّه لم يكن يستطيع أن يغضّ بصره عنه، لا

يبقى له مع تسلسل الأخبار إلاّ أن يزيد من حدّة بصاقه وكمّيته، فتراه يرجع ظهره إلى الخلف، يؤرجح رأسه قليلًا، يجمع بصاقه أكثر، مُحرّكًا فمه ولسانه وضامًّا شفتيه، ثمّ يشهق شهيقًا عميقًا من أنفه، ليقذف بصقته المراكمة صوب الشاشة ويغرقها. ثمّ يعيد الأمر مرّة تلو أخرى إلى حين إطفاء التيلفزيون من قبل زوجته، أو إلى حين شعوره بالإنهاك وغطّه في النوم حين يكون وحده.

تغيّرت حالته بضعة أيّام فقط أثناء الانتفاضة، استجاب للتظاهر، وخرج مع الناس. لم يهمّه الذهاب إلى مخفر الشرطة أو الدوائر الحكومية الأخرى. نسي حالته مؤقّتًا. واستمتع برؤية النيران تلتهم سيّارات المفرزة، وبالأخصّ سيّارة الشيفروليه التي نقلته إلى الفرع وهو معصّب العينين ذليلا، والقيود تعضّ يده وتدميها.

النيران وحدها كفيلة بتطهير الآثام، مفعولها التطهيريّ أكثر نجاعة من المياه. هي وحدها قادرة على تهدئة النار الداخليّة التي تفتك بالمرء الناقم الغاضب. فحين يراها وهي تلتهم ما تطاله، فتذيب المعدن، وتشوّه الأشياء، ينتابه نوع من الشعور بالراحة.

لم يكمل الطريق مع المتظاهرين حينها إلى المحكمة أو المصرف الزراعيّ أو إلى أيّ دائرة أخرى، كان شعور الانتقام يهيمن عليه بالتوازي مع النقمة والغضب والاندفاع والجنون. جلس على الرصيف يلفّ سيجارة، أشعلها من لهيب النيران التي كانت تبعث نشوة في روحه وجسده، راح يستمتع بسعيرها وألسنة لهبها وهي تذيب إحدى السيّارات، والدخان الأسود المنبعث من إطاراتها وفرشها يملأ سماء البلدة.

راقب مشهد إسقاط الصنم الذي ظلّ لسنين يشوّه مدخل البلدة. كان يمجّ سيجارته من فرط انتشائه بها. لا يكاد ينهي واحدة حتّى يلفّ أخرى، وكلّه حرص على إشعالها من النيران التي كانت تأكل السيارة وتتآكل نزرا فنزرا.

ارتاح من البصق ثلاثة أيام، ثمّ اجتاحته نوبة جديدة، أشدّ عنفًا من سابقتها. كانت رؤية المقنّعين تثير جنونه، فيطلق بصاقه بشكل متواصل حتّى يغمى عليه. وحين تمّت عسكرة البلدة أجبرت أسرته على حجزه في البيت، وعدم السماح له بالخروج، لأنّ العساكر الوافدين لم يكونوا يعرفون أحدًا من الأهالي. كان الجميع بالنسبة إليهم أعداء ينبغي تجنّبهم والحذر منهم. ولذا فإنّ أيّ حركة بصاق من توفيقو قد تدفع أحدهم إلى الضغط على زناده والتخلّص منه. لاسيّما وأنّ لديهم أوامر بإطلاق النيران على مَن يشتبهون بهم.

بدأ جسد توفيقو يذوي رويدًا رويدًا. اقتنع آخرون بعادته، ووجدوا أنّ البصق خير من الكلام في تلك الأوقات، وأنّه أكثر تعبيرًا عمّا في الصدور، ومبعث لراحة أعمق في النفس.

حين تمكّن توفيقو من مغافلة زوجته، والخروج إلى الشارع، مرّ من أمام المدرسة التي احتلّتها كتيبة تابعة للجيش منذ شهور، وحوّلتها إلى ثكنة عسكرية، رأى ألبسة العساكر الداخليّة تشوّه باحتها، وقرأ عبارات التعظيم للرئيس الابن، والتخليد والتمجيد لأبيه، فلم يتمالك نفسه، واجتاحته رغبة هستيرية في البصق. وضعها فورا موضع تنفيذ مراوحا بين البصق على الحيطان وإصدار أصوات أرعبت العسكريّ المنتصب في محرسه، فوجد نفسه في غمرة ارتباكه

يلقّم بندقيّته فجأة ويضغط على الزناد.

اختلط دم توفيقو ببصاقه، وحُمل إلى المستشفى.

سجناء

كثيرة هي التهم التي كان «المساعد أوّل»، يبدع في تلفيقها للآخرين، إلاّ أنّ تهما ثلاثا كانت تروقه أكثر من غيرها: العمل على انهيار الاقتصاد الوطني، والنّيل من هيبة الدّولة، وتحقير رمز الوطن. فأمّا أوّل من وجّهت إليه تهمة العمل على انهيار الاقتصاد فهو لقمان حفتو وتفاصيل ذلك بدأت من المقهى حين أخرج الرجل عملة ورقيّة، بقيمة خمس وعشرين ليرة، عليها صورة صلاح الدين الأيوبي وقال بين المزاح والجدّ، «إنّ قيمة صلاح الدين لديهم تساوي خمسًا وعشرين ليرة فقط، فهو عند الغرب القائد الكرديّ الذي طردهم من الشرق، وبسببه ما زالوا يعادوننا حتّى اليوم وهو عندنا العربيّ المسلم، أمّا في المناهج الدراسية فإنّه مثال العربيّ المخلص للعروبة والإسلام. تلك عاقبة مَن يخدم غيره وينسى قومه».

كانت سياسة دمج العروبة بالإسلام قد نشطت وتفعّلت في المناطق الكرديّة، يُروّج للمسلم النموذجيّ على أنّه ذاك الذي ينتصر للإسلام ولا يهتم لغيره من الانتماءات، غير أنّه تبعا لذلك سينتسب للعروبة على خلفيّة حذف حرف العطف الفاصل بينهما ليُصبحا وجهان لفكرة واحدة.

ومثال ذلك الأبرز انسلاخ شيوخ الطرق الصوفيّة الكرد عن

انتمائهم القوميّ لصالح الانتماء الدينيّ، وهو ما جرى عبر خطّة ممنهجة قوامها توصيات غير معلنة، كان «المساعد أوّل» أحد مقترحيها بعد تعرّفه على حياة المنطقة وأهلها، وبعد تخلّصه من ذاك الذي كان يقدّم نفسه مثالًا لرجل الدين المناهض للسلطة، ويتبجّح بالحديث القائل «إنّ أعظم الجهاد كلمة حقّ في وجه سلطان جائر».

من «أوراق «المساعد أوّل»»:

«يجب أن تركّز المساعي على خلق فجوة بين الكرديّ وتاريخه من جهة، وفجوة أكبر بينه وبين واقعه ومستقبله من جهة أخرى مع التأكيد على ضرورة الانتقاء في التعاطي مع المسألة، فحين يراد إعماء الكرديّ عن انتمائه وأحلامه، يقدّم صلاح الدين على أنّه الرمز التاريخيّ الأعظم في التسامي على انتمائه القوميّ لصالح الانتماء الدينيّ، وحين يراد دفعه إلى التضحية بنفسه في سبيل البلد تقدّم قائمة أسماء لعدّة رؤساء في الحقبة التي تلت الاستعمار بوصفهم أكرادا قادوا سوريا وكانوا رؤساءها، ومنهم شكري القوتلي، وفوزي سلو، وحسني الزعيم. أمّا إذا كان المطلوب هو التأكيد على هويّة المدينة فيكفي أن يُشار إلى الرئيس المسيحيّ سعيد إسحق ابن المدينة الذي ما زال اسمه منقوشًا على مبنى بلديتها التي تأسست في عهده.

علينا اختيار عدد من ذوي الأصول الكرديّة وإبرازهم واعتبار رجال الدين أكابر في الدولة، وتسليمهم المناصب الرسمية والاعتبارية، وتضخيمهم بغية خلق نماذج معاصرة تشكّل قدوة لغيرهم من الكرد في إقصاء انتمائهم ونسيان حقوقهم، فندفعهم إلى الانسلاخ عن أحلامهم والاستعاضة عنها بأحلام بديلة نهيئها لهم

وجميعها تنتمي إلى عالم الغيبيات، وما وراء الحياة. فيتمّ إهمال الحياة لصالح ما بعدها، والتحفيز على ازدراء الطموحات، وتعشّق الفقر والموت».

بعد نعت لقمان حفتو لصلاح الدين بتلك الأوصاف، واستخفافه بالعملة أصبح أمثولة وعبرة. فهو لم يقدّر عاقبة تصريحه ذاك، لاسيّما وأنّ تلك العملة قد سكّت حديثًا.

راجت تسمية ورقة الخمس وعشرين ليرة بالورقة الملعونة، بعد أن تمّ تغييب لقمان حفتو في السجن ثلاث سنوات عقابًا له على ازدرائه لها. وإن ظلّ رأيه يُتداول من باب النكتة تارة ومن باب العبرة تارة أخرى، على أنّ ذلك غالبا ما كان يجري في حدود ضيّقة وفي مجالس يفترض أنّها موثوقة. فصار يقال مثلا إنّ تلك البضاعة تساوي واحد صلاح الدين، حين يكون المبلغ المطلوب نظيرها خمسًا وعشرين ليرة، أو اثنين صلاح الدين حين يكون المبلغ خمسين ليرة.

وأمّا عبارة سجناء متّهمون بتخريب اقتصاد البلد. فأصبحت بمرور السنين توصيفًا يدلّ على عدد من الناس في البلدة، من أولئك الذين تمّ سجنهم لمدد مختلفة بتهمة العمل على انهيار الاقتصاد الوطنيّ، أو تحقير رموز الوطن.

بعد تكرار التحقيق مع عدد من الناس حول إساءتهم لعملة الخمس وعشرين ليرة، ووصفهم صلاح الدين الأيوبي بأنّه يستحقّ ذلك، من منطلق الانتقام التاريخيّ منه، وتشويه سمعته، بدأت حملة جديدة من الاعتقالات، وتجدّد اتهام الموقوفين بتخريب اقتصاد البلد وإن بصيغ أخرى والغريب أنّ بينها وبين الحملة الأولى ثلاثة عقود

بالتمام والكمال.

حين اعتمدت السلطة ورقة الألف ليرة سوريّة، ووضعت عليها صورة حافظ الأسد، تمّ بالتوازي مع ذلك إصدار ورقة من فئة الخمسمائة ليرة حلّت فيها صورة الأسد محلّ صورة الحصان التي كانت موجودة كظلّ على العملة، فما كان من النّاس إلاّ أن جعلوا منها موضوع سخرية وتندّر لاسيّما بعد رواج مقولات من قبيل «الأسد محلّ الحصان». «الحصان تحوّل إلى أسد». «الأسد حصان البلد»، «الأسد حصان أسود للفتك باقتصاد البلد». وما زاد الطين بلّة أنّ السلطة قامت في الآن ذاته ضمن حملة تجديد النقود بسكّ عملة معدنيّة من فئة الخمس وعشرين ليرة، نُقشت عليها صورة حافظ الأسد بلون نحاسي ضمن إطار فضّيّ.

بدأت موجة السخرية تتوسّع باطّراد، وعاد إلى الأذهان ما كان من أقوال وأحاديث عن قيمة ورقة صلاح الدين، وبدأ التندّر يطال فئة الخمس وعشرين المعدنية، بالتوازي مع فئتي الألف، الخمسمائة أيضًا.

اكتظّت سجون المخابرات بالمتّهمين بتخريب اقتصاد البلد، والمتّهمين بالإساءة إلى رمز الوطن، وتحقيره، وبالنّيل من هيبة الدولة. وكان أغلب أولئك السّجناء من المشمولين بمراسيم العفو التي دأب الرئيس في العهد الجديد على إصدارها، حتّى غدا لقبه غير المتداوَل شفاهيًّا هو رئيس المراسيم الشكليّة غير المنفّذة. بدا وكأنّه أصيب بحمّى المراسيم. كلّ يوم مرسوم جديد، حتّى ظنّ الناس أنّ البلد مقبل على تغيّر خرافيّ، والحال أنّ كلّ شيء كان ثابتا في محلّه، بل

ويتقهقر إلى الوراء باستمرار.

لم يجد «المساعد أوّل» بدّا من اقتراح سحب فئة الخمس وعشرين ليرة المعدنية التي نقشت عليها صورة حافظ الأسد من التداول، لأنّها لا تناسب مكانته الاعتباريّة، لاسيّما أنّ صورته تزيّن العملة الأغلى قيمة في البلاد، بحسب توصيفه. لاقى اقتراحه ترحيبًا من رئيس الفرع فاقترحه بدوره على القيادة.

تقاطع اقتراح «المساعد أوّل» مع اقتراحات مرفوعة من مفارز وفروع أخرى في عدّة محافظات بضرورة إيجاد حلّ للاستخفاف الذي تُقابَلُ به تلك الفئة النقديّة.

أثنت اللّجنة الأمنية في المحافظة على الاقتراح ووافقت عليه، وكان شعار حفظ هيبة الدولة وصيانة اقتصادها حاضرًا بين أعضاء اللّجنة الذين كان بعضهم يشكّك في بعض، مع أنّهم رؤساء الفروع الأمنية وكبار مسؤولي الدولة في المحافظة.

طلب رئيس الفرع من «المساعد أوّل» اقتراح آليات سحب القطعة من فئة خمس وعشرين ليرة المعدنية من التداول، فاستجاب بأن اقترح الوسيلة الأكثر تأثيرًا وانتشارًا، والتي عادة ما تلجأ إليها المخابرات حين تبتغي الإساءة إلى بعضهم أو تضخيمه، أو تمرير أمر أو منع آخر ألا وهي الإشاعات.

انطلقت الشائعة الأولى من بيت الوردة، وكانت فحواها أنّ هذه العملة أغلى من ثمنها بكثير، وأنّها تحتوي على مادّة الزئبق، ويمكن الإفادة منها وبيعها للخارج بمبالغ كبيرة. وأضاف بعضهم أنّه يمكن توظيفها في الاختبارات النوويّة. بعد ذلك تكفّل خيال الناس

بتضخيم الإشاعة، وتلبيسها ما شاء الله من اللبوس، وإخراجها بحلل مختلفة، فازداد طلب جامعي النقود على تلك الفئة النقدية بالذات. وصار الناس يبحثون عنها، ليبيعوها للتجّار القابلين شراءها بمبالغ أكبر من قيمتها.

اتّخذت الشائعة منحًى مختلفا وبدا واضحا أنّ صورة الرئيس فقدت هيبتها واعتبارها وبدأت تداس، بل قد أصبحت لعبة بين أيدي الناس، إذ تحوّلت اللّعبة المشهورة بـ«طير أو نقش» إلى «رئيس أو نقش». «أسد أو نقش».

لم يدم الأمر شهرًا حتّى كانت ملايين القطع النقدية من فئة الخمس وعشرين قابعة في فروع المخابرات، فقد سرت الإشاعة أسرع من أيّ إشاعة أخرى، بينما كانت حركة اللعبة ومساراتها واضحة لعناصر المخابرات، ففي كلّ بلدة أو مدينة هناك أناس محدّدون لجمع تلك القطع النقديّة وشرائها من الناس، وراحت دوائر المضاربين الصغار وتجّار العملة الواهمين تتّسع وصولًا إلى بضعة أشخاص في كلّ مدينة.

تمّ اعتقال عدد من الأشخاص واتّهامهم بالإضرار بالاقتصاد الوطنيّ، بعد أن صودرت القطع التي قاموا بتحصيلها وكان فيهم من وقع اغراؤه من عناصر المخابرات أنفسهم بإسم الشراكة وانتهى بهم الأمر أن انتظروا بضعة شهور في السجن، ثمّ شملهم مرسوم رئاسيّ وتمّ الإفراج عنهم.

سحبت الخمس وعشرون ليرة المعدنيّة من التداول، وقيل لاحقا إنّ الأمر كان إشاعة من التجّار لبثّ البلبلة بين صفوف الناس، وتمّ الإبقاء على مئات من تلك الفئة لشهور قيد التداول لإثبات كذب

الإشاعة، والواقع أنّ تلك العملة سحبت تمامًا من التداول، كما جرى من قبل للورقة التي كانت عليها صورة صلاح الدين.

موجات الهجرة

«لم يبقَ خير في هذه البلدة المنكوبة». بتلك العبارة برّر موروي رغبته في الهجرة إلى دمشق. زوّده نمرودو بعنوان لأحد أقاربه البعيدين في الرّيف، وأخبره أنّه سيقوم بالواجب.

بعد أن عادت بهو من هروبها مع عشيقها، لوحظ عليها أنّها صبغت شعرها بلون أصفر أقرب إلى النحاسيّ، وأنّها تحرص على إخراج غرّتها من تحت الإيشارب لتُظهر لون شعرها، وكأنّها تقول في سرّها إنّ الرجال ينساقون وراء الأصفر، كما تنساق الثيران وراء الأحمر.

كرّر موروي مزاعمه لأهل الحارة بأنّه كان قد أرسل بهو للعلاج في دمشق، عسى أن تتحسّن حالتها، وتستطيع التخلّي عن عكّازاتها، لاسيّما بعد أن بدأ وزنها يزداد، وبات من الضروري أن تسعى إلى وضع حدّ لذلك كي لا تلازم الفراش تمامًا، فليس هناك مَن يعينهما، هو الأعمى وهي العرجاء، وابنتاه تقومان بدور العكّازات والعيون. واحدة تلازم أمّها والأخرى تلازمه.

يشكر موروي ربّه على عودة بهو إليه، إذ كان قد وصل إلى درجة من الاحتقان أصبح معها عدوانيًا في تصرّفاته وكلماته. صحيح أنّ مدّة غيابها لم تدم سوى بضعة أشهر، إلّا أنّها كانت فترة كافية لتغيير

ابنتيه، هو يشعر من صوتهما وحركاتهما وهمساتهما أنّهما تغيّرتا.

أمّا جميلة فقد بدت وكأنّها في الثامنة عشرة، أو العشرين، مع أنّها أصغر من ذلك. إذ طالت فجأة واكتنز جسدها، وبالرغم من أنّها كانت ترتدي ثيابًا فضفاضة، لم يمنع ذلك رجال الحارة وشبابها من التعرّض لها والتحرّش بها. وأمّا الأخرى منجونة فصامتة ذات نظرات عدوانية، لا يبدو لها عمر محدّد، تارة يقال إنّها أصغر من جميلة، وتارة أخرى يقال إنّها أكبر منها. وما إن يتعرّض لها أحد من أطفال الحارة أو شبابها بكلمة حتّى تسارع إلى تسليط عيونها النارية عليه، حتّى تحوّلت إلى موضوع تسلية لبعض أهل الحارة وممّن يصفونها بالقنفذ والجربوع والشبح والعنزة الجرباء، وغير ذلك من الأوصاف التي تمعن في إيذائها.

إلى دمشق، إلى حيث بحر من البشر، وأمواج من الغرباء، يمكنك هناك أن تلغي ماضيك وتبدأ زمنًا جديدًا. لا أحد يهتمّ لما كنت عليه، أو كيف وصلت إليها. تستطيع إثبات ذاتك وسط فوضاها. قصد موروي وبهو وابنتاهما عنوان قريب نمرودو في ريف دمشق. ومعهم أغراضهم التي وضعت في ثلاثة أكياس.

«أهمّ شيء تأمين مسكن للأسرة، وبعد ذلك تسهل الأمور». يقول موروي لبهو.

حين وصلوا إلى قرية المنارة في الغوطة الشرقيّة، لم يستغرقوا وقتًا طويلًا ليبلغوا بيت أبي مأمون الكرديّ، قريب نمرودو.

- «المنارة يا رجل..! كان الأولى بهم أن يسمّوها المغارة». علّق موروي حين انحدرت بهم السيارة صوبها، ظلّ يكرّر لنفسه

بين الوقت والآخر أنّها مغارة اللصوص.

كان بلحيته غير المشذّبة وشعره المشعث مثيرًا للشفقة. تناثرت بقع جافّة على جلاّبيته المرقّعة برقعتين بارزتين، إحداهما على طرف كمّه الأيسر، والأخرى تحايلت زوجته لتجعلها جيبًا صغيرًا عند الفخذ.

ما إن لمحهم أبو مأمون الكرديّ حتّى رحّب بهم، لفتته جميلة بشدّة، لم يزح عينه عنها، وهو الذي كان قد تزوّج ثلاث مرّات، ولديه ثمانية أولاد. كان زواجه الأوّل من قريبة له تكبره بأربع سنوات، تزوّجها لأنّ والده أراد ذلك، ولم يُرزق منها بأولاد، وبعد وفاة والده اقترن بزوجتين أخريين، لم تخفّفا من شهيّته المفتوحة للزواج، فظلّ يقول إنّه ولاشكّ سيتزوّج بالرابعة قريبًا.

بيّت أبو مأمون الأمر في نفسه بمجرّد رؤيته لجميلة. بدأ بإكرام موروي، والترحيب به، كانت لغته الكرديّة ضعيفة جدًّا، حتّى أنّه لا يستطيع تركيب جملتين مفيدتين معًا، لكنّه كان يفهم ما يقال، ويردّ بالعربيّة. في البداية استغرب موروي الأمر، لاسيّما أنّ لغته العربيّة ضعيفة، يخلط فيها بين المذكر والمؤنّث والمفرد والجمع في حديث يفتقر إلى الترابط والتركيز.

كانت بهو تجيد العربيّة أكثر من موروي، وكانت عينها تنهب أبا مأمون الكرديّ، بعد أن رأت منزله الكبير الذي يشي بأنّه ميسور الحال. وسرعان ما أدركت اهتمام أبي مأمون بابنتها جميلة، فبدأت تقول إنّ هجرتهم إلى العاصمة كان الهدف منها تأمين مستقبل أفضل لابنتيهما، إذْ أنّهما في مقتبل العمر، ولا سند لهما في تلك البلدة المنكوبة.

بعد مكوثهم يومين في بيت أبي مأمون الكرديّ انفرد صاحب الدّار ببهو وعرض عليها الزواج من ابنتها جميلة، مقابل أن يعطيهم أرضًا ويعمّر لهم فيها غرفة ودكّانًا. فاتحت بهو زوجها بالأمر، فإجتاحته مشاعر متناقضة من الفرح والحزن، فقد كان يودّ لو أنّ ابنته تكمل الدراسة وتصبح متفوّقة ومشهورة، لكنّ عرض البيت والدكّان يكاد لا يقبل النقاش أو الرفض.

كان أبو مأمون يأخذ موروي معه إلى الجامع في أوقات الصلاة، وكان موروي يسايره في ذلك، لأنّه لم يكن يطيق ثرثرات الملالي وبقاءهم في كهوف التاريخ المعتمة، وسردهم لقصص لا أحد يستطيع التأكّد من مدى صدق روايتها، والتحايل بها على الناس، لإيهامهم بعوالم فردوسيّة لاحقة، خاصّة وأنّه كلّما حلّل تلك الحكايات في عتمته الدّائمة وجد نفسه أبرع من الملالي في السرد والتأثير.

في أقلّ من شهر عمّر أبو مأمون لموروي بيتًا مؤلّفًا من غرفة ومطبخ وحمام، بالإضافة إلى دكّان يشغل الواجهة وعده بأن يساعده في ملئه بالموادّ اللازمة كي يستطيع مباشرة عمله. بدا أبو مأمون مبتهجًا بإنجازه، وموروي أكثر منه بهجة؛ كيف لا وهو سيؤمّن بيتًا ودكّانًا في الوقت نفسه، وسيستطيع بعد ذلك بناء أكثر من طابق فوق بيته بغرض تأجيرها لاحقًا. شطّت به المخيّلة ووجد نفسه صاحب مال وفير.

«الدكّان يحتاج إلى رجل مكسورة كي يقف على رجله ويستمرّ» قال أبو مأمون لموروي فردّ عليه بأنّ رجل بهو عرجاء وليست مكسورة وهذا أفضل. سيكون هو الرجل واليد واللسان وبهو

العين. سيكمّلُ أحدهما الآخر في النهوض بالدكّان.

لم يخطر ببال موروي أنّه سيصبح مختار حي الأكراد العشوائيّ في قرية المنارة، ذاك الحيّ الذي تشكّل لاحقا بطريقة غريبة، حين بدأ النّاس بالتهافت عليه من البلدة والقرى المجاورة لها، مستعينين به وبصهره أبي مأمون الكردي في العثور على بيت بالأجرة أو بالرّهن أو بالشراء على أقساط. لم يدر بخلده أنّه سيصبح دلّال المنارة، ومستشارته في ذلك زوجته بهو لواسع معرفتها بكلّ الوافدين وتفاصيل أسرهم وعدد أبنائهم وبناتهم.

لم يكن يعرف أنّ دكّانه سيتحوّل إلى مكتب للزواج، ولتجارة العقارات، كان يقود الناس إلى هذه القطعة من الأرض أو تلك، فيشير إليهم بعصاه أنّ هذه هي المساحة الموجودة لدى صهره في الوقت الحالي، وأنّها مناسبة جدًّا وسعرها معقول، وكانت الخيارات القليلة المتاحة تجبر الوافدين على الرضوخ لإملاءات موروي وصهره وشروطهما.

بدأت موجة الهجرة عقب الحصار الذي أرهق المنطقة والجفاف الذي ضربها لعدّة مواسم، ما أفقد أهلها كثيرًا من موارد رزقهم ومصادر دخلهم، فوجدوا أنفسهم جائعين محاصرين في قراهم وبيوتهم، ولم يجدوا سبيلًا سوى الانتقال إلى العاصمة، إذ ثمّة فرص عمل لأولادهم الذين شبّوا وبدؤوا يبحثون عن طرق لإثبات ذواتهم ومساعدة ذويهم وتغيير حياتهم.

اشترطت جميلة على أبي مأمون الكردي أن يسمح لها بالترسيم في الصفّ التاسع ضمن نظام الدراسة الحرّة، وأن تتعلّم لدى كوافيرة

القرية. في البداية تردّد قليلا، لاسيّما أنّه ميسور الحال ولا يحتاج إلى عمل زوجته، إلّا أنّه رضخ لإلحاحها وطلبها، وشغلته مفاتنها عن التركيز على أيّ رفض أو عناد. كان يكرّر لنفسه أنّه سيستعيد شبابه في أحضانها، وأنّها ستكون جميلته التي تمنحه لذّة أسطوريّة.

كان صراخ أبي مأمون وسبّه لعمّاله يتحوّلان إلى لطف وابتسامات حين تطلّ جميلة التي لم ترضخ لطلبه منها وضع الملاءة على وجهها لتغطيته، بل اكتفت بالحجاب والعباءة السوداء، فضلا عن أنّها كانت تسحب خيط الكحل في عينيها، وتضع أحمر الشفاه المثير لجنون أبي مأمون وغيرته عليها، وإن ظلّ يكتم ذلك ويسعى لإرضائها. تلك الصبية التي كانت تبدو طفلة تحوّلت إلى أنثى شرهة تتملّك زوجها، وتملي عليه ما تشاء، فيلبّي.

تقول بهو لموروي إنّ صهره أصبح عبدًا لابنتها، وإنّه كالخاتم في إصبعها، فلا يجد في الأمر جديدا، كان قد تيقّن من ذلك منذ نجحت مساعي جميلة في الاستقلال ببيت خاصّ بها عمّره لها أبو مأمون، مثلما عمّر هو طابقين فوق منزله، ووسّع دكّانه، إلى حدّ جعله يحتاج ابنته منجونة لتساعده في إدارة المحلّ، بملاحقة الزبائن وتحصيل الديون.

تغيّر كلّ شيء في عالم موروي. أصبح لديه عدد من البيوت ودكّان سمسرة يأخذها من صهره ومن الزبائن. وهي نكبة البلدة ونعمته. لكنّه رغم كلّ ذلك ما انفكّ يصف نفسه بأوّل الضحايا في موجات الهجرة والتهجير.

بزّق ولزّق

«لو هبّت ريح قويّة لمسحت كلّ هذه البيوت الكرتونيّة من الوجود». كذا كان يجري القول بين أهل المنارة إذا عنّ لهم وصف البيوت المتراصّة عشوائيّا في الحارة التي كانوا أطلقوا عليها تندّرًا حارة بزّق ولزّق.

كان أبو مأمون قد علّق على زاوية دكّان موروي لافتة كتب عليها بخط معوجّ «حارة المهاجرين»، وهي أيضا تسمية أثارت سخرية الأهالي، فكلّ من قرأ الاسم ربطه من منطلق السخرية والهزء بحيّ المهاجرين الراقي في دمشق. وبخلاف الاسمين المذكورين كان هناك من يسميها «حارة الأكراد»، لكن تسمية «بزّق ولزّق» ظلّت الأكثر شهرة ورواجًا من بين التسميات.

ولعلّ أطرف ما قيل عن الحارة وبيوتها هو ما كان يردّده بعض المهاجرين في ما بينهم سرّا فيقول أحدهم: «كأنّ أبا مأمون يبني بيوته الشبيهة بعلب كبريت مثقوبة، ببراز أمّه حتّى أنّك قد تسقط أكثر حيطانها متانة برفسة رجل واحدة». ويجاريه آخر مؤكّدا: «بحيطان كتلك يمكنك التلصّص على الجيران والتنصّت على أحاديثهم، والأمر سيّان بالنسبة إليهم، ذاك الملعون جعلنا وكأنّنا نعيش في بيت واحد». ويضيف ثالث: «لو كانت بيوتا من الورق المقوّى لاستغرق

إنشاؤها وقتا أطول من الذي تستغرقه بيوت صاحبنا، ما إن يلصق السّقف بالجدران حتّى يبصق بيتا جديدا في وجه الحارة».

ذاك ما كانوا يقولونه، وفي النهاية تذهب كلماتهم أدراج الرّياح ليستمرّ الوضع على ماهو عليه وتتأكّد حقيقة واحدة: كلّ ما قيل وما سيقال أكثر هشاشة من جدران بيوت أبي مأمون.

يضحك أبو مأمون وهو يحدّث موروي بأنّه يحقّق ما عجزت عنه الأحزاب الكرديّة من تكاتف وتعاضد وتوحّد، مانحا الوافدين العدالة والمساواة التي يتمنّون، فكلّ البيوت متشابهة وقاطنوها جميعا قد تركوا أرضهم ومدنهم ولاذوا به، وها إنّه يقدّم لهم جليل الخدمات بدءا من تأمين المأوى، وصولا إلى السعي إلى تدبير عمل لهم ولأبنائهم وبناتهم.

يعتبر أبو مأمون أنّ جميع الوافدين مدينون له بتحريرهم من أوهامهم، إذ يتعامل معهم على أساس البيع والشراء، الإيجار والاستئجار، يُشغّل الشباب منهم في ورشات البناء التي تعمل لصالحه، ويُشغّل البنات في معامل بعض معارفه، ولا ينفكّ يتحدّث عن إسهاماته في إدخال المهاجرين الأكراد في قلب المجتمع الجديد، وتعريفهم عليه، ومحاولة إدماجهم فيه.

كان أبو مأمون يشجّع التزاوج بين أهل المنارة الذين كانوا من نازحي القنيطرة والجولان، والآخرين النازحين من المناطق الكرديّة، زاعما أنّ ذلك هو السبيل الوحيد لبلورة شخصية جديدة، للتخفيف من حدّة الضغائن الكامنة لدى كلّ طرف والتي تتجسّد في شكل عراك متجدّد بين بعض شباب النازحين وبعض شباب الأكراد.

نجحت بعض مساعي أبي مأمون في عقد عدد من الزيجات بين النازحين والأكراد، لكن لم يعمّم الأمر، ليظلّ التوجّس من قبل الطرفين قائمًا كما هو.

راح موروي يؤجّر بعض الخيم للوافدين الجدد ممّن لا يستطيعون دفع أجرة بيت، أو أخذ بيت بالرهن أو شراءه بالتقسيط، والخيمة خيارهم الوحيد المتاح، فيؤجّرهم إيّاها بسعر يتّفقون عليه، وقد يعنّ له أن يشغّل بعضهم عنده بدل دفع الأجرة. كانت الخيم تنصب بجانب الشارع الرئيسيّ، قريبا من طريق المطار، فتحجبها الأشجار عن الطريق، وتكفل لها بعض الحماية.

مرّة قال موروي لبهو مزهوّا إنّ أرض المخيّم تشبه إلى حدّ بعيد معسكرات متنقّلة، وبالأخصّ تلك التي كانت تسمّى «مخيّمات الحجّيات»، حيث كان يقصدها السائقون للاستراحة، ولقضاء ساعات من المتعة والسّمر برفقة نسائهم، ولا يخلو الأمر من إمكانية نشوء علاقات حبّ بين بعض السائقين أو الزوّار وبعض الحجّيات، ما قد يخلق حالة من الحرج والإرباك ولاسيّما أنّ تلك الفئة كانت معروفة بأنّها تُشغّل نساءها وتتاجر بهنّ مقابل المال.

في لحظة صفاء أخرى صارح موروي زوجته بتشفّيه من أهل البلدة الذين كانوا يتغامزون عليه، ويسيؤون لسمعته وسمعة أسرته، وها أنّهم يلجؤون إليه، مؤكّدًا أنّ المال كفيل بمحو أيّ ماضٍ مهما بلغ من القذارة، وأنّ سلطة الأمر الواقع تمنح صاحبها حرّيّة التصرّف، إذ للزعامة سحرها الجذّاب، ولو لم تكن كذلك لما مكنّته من أن ينتشي بسماع استجداء الناس الوافدين عليه، سواء لتأجير خيمة أو بيت أو

لتأمين عمل للأولاد.

كانت تحرّكاته محصورة في بقعة محدّدة، لذلك فقد حفظ كلّ التفاصيل والتعرّجات في الأرض والبيوت، وعرف بدقّة المسافات بين الباب والآخر، صار يعلم متى ينعطف وأين يتوقّف، ويشير بيسر إلى الزوايا وقطع الأراضي المتوفّرة للبيع أو لنصب الخيام. كان يحدّدُ بعصاه المكان المراد، ويرسم الشكل المفترض في الهواء، متخيّلًا ما سيغدو عليه المكان بعد البناء.

يسير موروي حاملًا بيده عكّازه، مسرعًا بالتنقّل من بيت إلى آخر، أو من أرض إلى أخرى، يأخذ معه الزبون الجديد، ليطلعه على تفاصيل البيت أو الأرض، أو ليحدّد له موضع الخيمة التي ينوي أن يستأجرها، وكانت حركاته السريعة مثار استغراب وإعجاب من قبل مرافقيه، حتّى أنّ بعضهم كان يقول له ممازحًا: يا عم موروي أنت تبصر أكثر منّا، مهلك علينا.

لمثل هؤلاء ممّن يعجبون لحركاته السريعة الرشيقة كان يقدّم جوابا واحدا أنّ عصاه ذكيّة، وأنّها هي التي تقوده وتحميه وتكشف له الحفر وما قد يعترض طريقه من أحجار أو موادّ، واصفا إياها بأنّها أكثر تميّزًا من عصا موسى، وبأنّها ثروته التي لا يستطيع التحرّك من دونها، ولو فعل لشعر بنفسه عاريا. ثمّ يقهقه وهو يقول إنّ العري عند الناس هو أن يتجرّدوا من ثيابهم، أمّا العري بالنسبة إليّ فهو أن أن أخرج دون عصاي. ولا ينسى التذكير بحكاية عكالو أيّام كان يلفّ وسطه بخيط أبيض ويمشي عاريًا مُدلِدلاً عضوه الضخم، لافتًا أنظار النساء إليه، حتّى إذا مافكّ أحدهم ذلك الخيط من وسطه،

شرع يبكي ويصرخ ويتراكض هنا وهناك مُحاولاً إخفاء عُريه وشاعرًا بالخزي والبرد في آن.

يروي موروي القصّة فيُسهب في تصويرها دون أن يُغفل الإشارة إلى أنّه ما من واحدة من نساء البلدة إلّا واشتهت مضاجعة عكالو والتمتّع بعضوه الضخم، ثمّ يُردف ذلك بالقول إنّه يستطيع أن يتخيّل تحسّر نساء البلدة على ذلك العضو وتحرّقهن شوقًا لملامسته، مُؤكّدًا أنّ هناك من روى له حكايات عن استغلال بعض النساء لعكالو وممارستهنّ الجنس معه، إثر استدراجه إلى بيوتهنّ بحجّة الشفقة عليه وإطعامه.

كان موروي على علم بتحرّش سائقي الميكروباصات وأصحاب المعامل والمصانع بالبنات، إلّا أنّه يظلّ يكابر ويُقسم بأنّ البنت منهنّ تُؤخذ من باب بيتها مع غيرها من البنات بشكل جماعيّ وتعاد إلى هناك بعد انتهاء العمل بالطريقة نفسها. يفعل ذلك ليُطمئن الأهل على واقع العمل ومستقبل البنات، وليشجّعهم على إرسالهنّ إلى المصانع عساهنّ يساعدن أهاليهنّ بتحمّلهنّ بعض الأعباء والمسؤوليات عنهم، لا سيّما أنّ للعاصمة مصاريفها المختلفة عن مصاريف البلدة الصغيرة أو القرى المهجورة.

كانت الطمأنة تُقدّم جنبًا إلى جنب مع الإغراء بتحصيل راتب مناسب، إذ لم يكن الشيخ الأعمى يُفوّت فرصة من دون الإشارة إلى تغيّر الحياة وتبدّل الظروف، قبل أن يبدأ لُعبة التذكير بأنّ مجموع رواتب السنة في حال عمل أكثر من فرد في الأسرة يمكن أن يساعد على شراء أرض أو دفع قسط بيت لأبي مأمون أو فكّ رهن بيت كبير

منه، فيغدو من ينجح في ذلك مالكًا لبيتٍ في العاصمة.

ما من شكّ في أنّ هجرة موروي حقّقت نزوعه القاتل إلى الزعامة والحظوة وكلّ ما كان يرغب فيه ويفتقده في البلدة، بل إنّ هروبه ببهو وابنتيه كان بمثابة خلاص من جحيم ما انفكّ يُضيّق عليه الحصار يومًا بعد يوم، حتّى كاد يخنقه. زد عليه أنّه لم يكن يستطيع العمل، وفي المُقابل كان أهل البلدة قد قطعوا عليه الصدقات منذ قبوله بإرجاع بهو إلى بيته على الرغم من فضيحة هروبها مع عشيقها.

كان الظلم الذي يشعر به أشدّ أذى من الظلمة التي يعيشها جرّاء عماه، حتّى أنّه كثيرًا ما سأل نفسه إذا ما كان في أهل الحارة من يقبل أن يزوّجه ابنته أو يتفضّل بمساعدته ورعاية ابنتيه. فينتهي إلى أنّه لابدّ من التحلّي بالقدرة على المغفرة والتسامح كي تستمرّ الحياة، وإلّا لن يكون بمقدوره الاستمرار في العيش وسيتحتّم عليه الانتحار، مُصارحًا نفسَه بأنّ العار ليس في رجوع بهو العرجاء إليه، بل هو في كلّ تفاصيل حياة المستنقع التي يحياها أهل البلدة المنكوبة بما فيها من عدائيّة وتباغض وجنون وضياع.

أبو فطيسة

كانت الرائحة الكريهة المنبعثة من فمه، سببًا في شهرته بأبي فطيسة. يقول مَن يجالسه: «كأنّه قد بلع فطيسة ميتة، وكأنّ أمعاءه مرحاض متنقّل منزوع الغطاء.» ويندر أن يجلس أحدٌ من أبناء القرية إلى جانبه في الميكروباص، بل كانوا يختارون الكراسي الخلفية. وعادةً ما كان الغرباء أو المهاجرون الجدد يتورّطون ويجلسون إلى جانبه.

كان الجلوس في الكرسي الأمامي يبثّ لدى بعض الركّاب شعورًا بالراحة والثقة والاعتزاز، وبأنّهم سادة الطريق، لكنّهم يكرهون تلك التجربة مع أبي فطيسة، لأنّهم يجدون أنفسهم في مهبّ روائح فمه، ولاسيّما أنّه كثير الكلام؛ يتابع الشخص الذي يجمع الأجرة من الركّاب، يرشده، يعطيه بعض الفكّة، يلتفت إليه ويحصي ركّابه، ثمّ يجمع النقود، وغالبًا ما يخطئ في حسابه، ويقضي الطريق في مقارنة عدد الركّاب بالنقود المجمّعة فيتوجّسُ توجُّسَ المغدور في ماله.

لا يجيد أبو فطيسة النظر في المرايا أثناء قيادته الميكروباص، تراه يتلفّت يمنة ويسرة في مقعده، يدير رأسه وينثر رائحة جوفه الكريه من حوله. كان قد رضخ إلى إلحاح السائقين عليه بوجوب تغطية رأسه بشماخ أحمر بعد أن مدحوا لهُ الأمر وبالغوا في تجميله في نظره. أقنعوه بها بعد أن قالوا له إنّ ذاك الشماخ يرمز إلى المقاومة، وإنّه

سيخفي صلعته أيضًا، ويضفي عليه هيبة ووقارًا، وبصوت خافت كانوا يخبرونه أنّه سيحجب على النّاس رائحة فمه أيضًا.

وقد تقبّل تلك النصيحة متغاضيًا عن الإهانة المبطّنة في الإشارة إلى رائحة فمه. لم يكن يشعر بهالة الأبخرة التي تحيط برأسه حين يثرثر. وتعجّب الركّاب من كيفيّة استمرار زواجه، وتندّر بعضهم بكون حاسّة الشمّ لدى زوجته معطّلة، وبكونها تعيش في نعمة معهُ بعد أن فقدتها.

كان أبو فطيسة يراقب ذهاب جميلة إلى جرمانا وإيابها منها، من أجل دورة اللغة ودورة الكوافير، فحفظ مواعيدها، وبيّت نيّتهُ في الاستفراد بها. ولإتمام ذلك أرسل السائق الذي يليه قبله، وهو أمر نادر في عرف أبي فطيسة الذي يسعى دائمًا إلى التحايل على السائقين الآخرين وأخذ دورهم ليحظى بدورة إضافيّة.

أخبر زميلهُ أنّ هناك جماعة تنتظره على مفرق جرمانا سيوصلهم إلى الكراج، وأنّه يحتاج إلى راكبٍ أو راكبين فقط، ولن ينتظر كثيرًا، لأنّ موعده قد حان. وعندما وصلت جميلة، وبمجرّد جلوسها في مقعدها، انطلق أبو فطيسة مشغّلا المذياع الذي كان يبثّ أغنية «وردة وردة ع القطن تعالي»، وأخذ يدندن من تحت شماخه معها، ملتفتًا خلفه إلى جميلة، يسألها عن أخبار دراستها.

أفقده كحل عينيها توازنه، وأسالت حمرة شفتيها لعابه أكثر. أخبرها أنّ اسمها يناسبها جدًّا، لأنّها بالفعل جميلة. وسألها عن أبي مأمون، وإنْ كان يعاملها بطريقة جيدة. ولمّا كانت جميلة تجيب عن أسئلته بإجابات مقتضبة، وهي تحاول التشاغل بدفترها، مقلّبةً

صفحاته دون تدقيق، غارقة في عالمها، وفي ما تخطّط له، لم تنتبه إلى أنّها وحدها في الميكروباص إلاّ حين انعطف أبو فطيسة باتّجاه الشارع العام. وعندما سألته لماذا لم يحمل ركّابا آخرين، أخبرها أنّه ثمّة جماعة تنتظره عند مدخل جرمانا، وأنّه بعد أن يوصلها إلى موقفها هناك سيكمل بجماعته إلى الكراج.

كان يحفظ تفاصيل الطريق عن ظهر قلب؛ انعطف منحدرًا على طريق ترابيّ بين الأشجار بحجّة أنّه سيأخذ أمانة من عند صاحب المزرعة، وهو يعرف أنّ المزرعة ملكٌ لأحد الخليجيّين، وأنّ حارسها يعمل في جرمانا نهارًا ويعود ليلًا للنوم فيها. ارتعبت جميلة قليلًا من حركته، وارتابت من أمره، لكنّها وجدت نفسها مرغمة على البقاء في مقعدها والانتظار.

توقّف أمام باب المزرعة الحديديّ، دقّ الباب عدّة دقّات ومثّل دور المنتظر، وحين لم يأتِ أحد، عاد إلى محلّه، وأخرج المفتاح. أزاح الشماخ عن رأسه قليلًا إلى الوراء، لمعت صلعته، وبانت شعرات متناثرة في منتصفها. هبّت عاصفة من رائحة فمه الكريهة على جميلة، وهو يخبرها بأنّها أجمل امرأة شاهدها في حياته. قال لها إنّه مستعد أن يعطيها ما تشاء بمجرّد أن تقبل به.

كانت جميلة مصدومة وهي تراه يتحوّل إلى ذئب يحاول افتراسها؛ لعابه السّائل على فمه، رائحته الكريهة، عيناه البغيضتان، كلّ ذلك دفعها إلى الصراخ. رفعت دفترها في وجهه، وضربت به يده حين حاول أن يلامسها، ثمّ طلبت منه أن يعود أدراجه بسرعة، لكنّهُ اقترب منها ليجلس إلى جانبها، ومدّ يده لينزع شالها. وحين لمس

يدها، شعر بالدم يغلي في جسده.

لم يعرف من أين أتته الصفعة، انقضّت عليه جميلة، وبحركة رشيقة سحبت شماخه ووضعته في رقبته، وبخروجها المباغت من باب الميكروباص سحبته خلفها، فارتطم رأسه بالباب، وسال الدم من صلعته حتّى غطّى قميصه. وحين رأى الدم على وجهه اشتدّ جنونه. حاول مطاردتها، فتعثّر وهو يركض خلفها. استغرب رشاقتَها، وطريقة هروبها منه بتلك السرعة الخاطفة.

وصلت جميلة إلى الشارع العامّ لاهثة، وفور وصولها استقلّت سيّارة وأكملت إلى جرمانا، في حين كان أبو فطيسة يمسح الدماء النازفة من رأسه، ويحاول لملمة خيبته، ومداراة غبائه. بعد ذلك ذهب إلى الكراج، وهو مرتعب من فكرة أن تكون جميلة قد وشت به، ويخطّط لكيفيّة انكاره الأمر. سيقول إنّها اعتدت عليه لأنّه لم يسمح لها بأن تمضي برفقة عشيقها الذي كان ينتظرها على مفرق جرمانا.

أبقت جميلة الأمر طيّ الكتمان، ولم تبح به لزوجها أبي مأمون، لكنّها اكتفت بالتلميح له بأنّها تتعرّض إلى تحرّشات من قبل بعض الرجال في القرية، وبأنّها ليست مرتاحة لذلك، وتريده أن يشتري لها بيتًا في جرمانا. وبما أنّها صدمته بالطلب، فقد حاولت التخفيف عنه، وإقناعه بأنّ ذلك مفيد له، كي يتخلّص ممّا يسبّبه له النازحون الجدد من أوجاع ليلًا ونهارًا. وأقنعته بأنّه سيكون سعيدًا بالتغيير الذي سيدخله على حياته، وبأنّه حين ينام معها في بيته المأمول في جرمانا سيشعر بنفسه عريسًا جديدًا كلّ ليلة.

ومن باب الضغط عليه حرمته جميلة من النوم معها، حرمته من

مداعبة جسدها، وأغوته ببعض الحركات. لبست ثوبًا شفّافًا أبان تفاصيل جسدها المغرية، وتذرّعت بأنّها تعاني من أوجاع في بطنها، وبأنّها لا تستطيع الاستجابة له.

كانت فكرة الانتقال إلى جرمانا قد خطرت لجميلة منذ الأيام الأولى لحضورها دورة اللغة الإنكليزية هناك؛ وجدت الناس مريحين، منفتحين، لا ينشغلون بالآخرين، ووجدت أنّ ذاك المزيج من الناس يمنحها شعورًا بالرضى، فلا تبدو غريبة بينهم، ولا تفترسها عيون الرجال كحالها في القرية. لكنّها ظلّت مترددة في كيفية طرح المسألة على زوجها، وإقناعه بها.

عرضت أن أبقى معها باعتباري أختها، وهكذا يطمئنّ عليها زوجها، وأبي وأمّي. وبما أنّها كانت قد اتّخذت قرارها، لم تكن لتولي أيّ اعتبار لرأي أبي أو أمّي المنشغلين بعوالمها الخاصّة وأعمالها المزدهرة ومتاهات المنارة الجديدة.

أرادت جميلة أن تغيّر حياتها وتصنع مصيرها. أرادت أن تتمرّد على عمى أبيها وعرج أمّها وتخطّ لنفسها مسارها بعيدًا عن العمى والعرج. لم يكن لديها بدّ من الإبقاء على زوجها أبي مأمون عكّازًا لها. تؤمن بأنّ المرء لا بدّ من أن يكون عكّازًا لفترة حتّى يتمكّن من التعكّز على غيره، وبأنّ الحياة مراحل مختلفة من التعكّز والتعكيز. وتبلورت لديها قناعة بفكرة العكّاز، تتّخذها شعارًا تعتمده في أيّامها القادمة.

كلّ شيء قابل لأنْ يكون عكّازا، وكلّ امرئ أيضًا مرشّح لذلك. يكتسب العكّاز قوّته من واقعيّته وانتشاره، بتوصيفات متباينة.

تختلف التسميات والفكرة واحدة في جوهرها؛ التسلّق، السلالم، العكاكيز. والبشر صنفان إمّا متسلّق وإمّا عكّاز.

جيمي في جرمانا

لم تحتج جميلة إلى فترة طويلة كي تقنع زوجها بخطّتها للانتقال إلى انتقال لجرمانا. كان جسدُها قوّتَها الضّاغطة وسلاحَها الفتّاك لإقناعه. وبين منحه له وحجبه عنه، مارست عليه ضغوطها ودهاءها وفنونها التي اكتشفتها في التمثيل، بالتدلّل والتذلّل. وبمكر الأنثى قادته إلى الضفّة التي تريد. كان أبو مأمون ينهار أمامها. ما إن تلفّ له وسطها، وتبدأ الرّقص حتّى تقوده كحيوان أليف إلى مبتغاها.

كانت الفكرة الأولى استئجار بيت، وبعدها البحث عن بيت مناسب لشرائه، وأرادته قريبًا من المركز الذي ترتاده من أجل تعلّم اللغة، وهو المركز نفسه الذي تتعلّم فيه دروس التجميل.

كانت تدرك أنّها ستحتاج إلى أبي مأمون ليلبّي لها طلباتها، ويؤمّن إتمام مخطّطها نحو شهادة البكالوريا، واكتشاف العالم الجديد الذي وجدت نفسها في بحره. وبحسب نظريّتها الجديدة التي تقتضي منها التعكّز عليه، لا بدّ من إبقائه في دوره عكّازًا لها، وهو أيضًا يتعكّز عليها، يستمتع بجسدها ويستعيد برفقتها شبابه، ينتشي معها انتشاءً يدفعه إلى الصراخ، ويعترف لها بأنّها أعادته إلى الحياة.

لجأت جميلة إلى تنويع الممارسات الجنسية مع زوجها، وبدل حرمانه بدأت تطالبه بالمزيد. كانت تطلب منه أن يضاجعها قبل

النوم وفي الصباح، أرادت أن تريه قدراته الحقيقية وتدفعه إلى الهروب منها بطريقة مختلفة، فصار يبيت بعض الليالي في القرية، يحادثها عبر الهاتف ويخبرها بأنّه مضطرّ للبقاء مع العمّال، ليستغلّ الوقت ويكمل بناياته التي يشيدها في مناطق المخالفات.

وعلى الرغم من سعادتها لغيابه وبهجتها لذلك، كانت تتظاهر بشعورها بالخيبة، وتزعم أنّها تنتظره مشتاقة إليه. وحين يذهب إليها، كان يحاول تغطية عجزه بالنقود، يحاول إلهاءها، ثم يترك لها مبلغًا مّا، وكان المبلغ يكبر كلّ مرّة، ليزيد التعمية على عجزه الجسديّ، وعدم قدرته على تلبية رغبة جميلة بممارسة الجنس.

الدرس الأهمّ الذي تعلّمته جميلة من أمّها بهو العرجاء، هو ألاّ تقع في الحبّ، وأن تبقي جسدها سلاحها، تشهره حين الحاجة، وتبقيه متحفّزًا للمواجهة، تظهر منه ما يحقّق مطالبها. كانت بهو تكرّر لها بأنّ الحبّ مزّق قلبها وذهب بجسدها، لذلك حين كانت تمارس الجنس مع الرجال المختلفين، كانت تحاول ترميم قلبها المحطّم عبثًا. وكانت تحذّر ابنتها من الانسياق وراء قلبها، لأنّها ستضيع حينها.

تتذكّر كلام أمّها لها بأنّ كلّ الرجال متشابهون، وحده مَن تحبّين يبدو لك أميرًا، وهو في الحقيقة كغيره، لكنّ ميزته أنّ عينيك تتعاميان عن نواقصه وتريانه كاملًا في كلّ شيء ومن كلّ النواحي.

كتمت جميلة إعجابها ببريندار وانبهارها به، لكنّها لم تستطع نسيانه. كانت تتذكّره كلّ ليلة، وحين كان أبو مأمون يمارس معها الجنس، تتخيّل عشيقها الأسطوريّ، ويحلو لها مطالبته بالمزيد والمزيد.

بقي بريندار بالنسبة إليها المحرّض على استكمال طريقها نحو

أحلامها، ومنحها حماية ضدّ الإعجاب برجال آخرين، وهي في قرارتها ممتنّة لذلك، مع أنّه يحزّ في روحها.

ركّزت جميلة على الدراسة، إذ كانت توقن أنّ تعلّمها يفتح لها طريق الحياة، تتعرّف كلّ يوم على أشياء جديدة، على عوالم مختلفة، على أناس مختلفين. استطاعت تجاوز شهادة الكفاءة ببساطة. ولم تعدم اللجوء إلى فتنة جسدها في بعض الامتحانات، لأنّها كانت تجريها مع «الطلبة الأحرار»، وعادة ما تكون مراكز امتحان «الطلبة الأحرار» مهملة قليلًا، لتغيّب كثير من الطلاب، وقد يصل الأمر إلى وجود عدد ضئيل في القاعة الواحدة بعد اليوم الأول من الامتحانات.

لجأت إلى سلطة جسدها أحيانًا، حين كان يراقب قاعتها مراقبون شباب. تفتح زرّ كنزتها وتتظاهر بتناسيه، في حين كان ملتقى النهدين يظهر للمراقبين الذين ينشغلون عن القاعة بمراقبة حركات صدرها. فكانت تداهمهم بنظراتها كمن يقبض على أحدهم متلبّسًا، وتطلب منهم في تلك اللحظة ما تحتاج إليه من أجوبة، وعادة ما كانت تتمّ تلبية طلبها.

عرفت بتجربتها وحدسها الأنثويّ أنّه يمكن تحقيق كثير من الإنجازات من خلال إيحاءات بسيطة تحتمل وجوهًا مختلفة من التأويل، وتساهم في بلبلة هدوء الآخر المراقب، لأنّ الرجل يتوتّر ويضعف أمام تدفّق الجسد ومداهمته، فقرّرت استخدام تلك القوّة الهدّارة حين الحاجة، من دون أن تفرط فيها، أو أن تبدّدها مجّانًا كأمّها العابثة التي أعماها الانتقام من ابن خورتو، فجلبت إلى حضنها كثيرين غيره.

لم تعتمد جميلة على سحرها فقط، بل كانت تدرس العواقب قدر إمكانها؛ تضع احتمال اصطدامها بنساء يتعاملن بمنطق قاسٍ مع غيرهنّ، يشدّدن عليهنّ، وكأنّهنّ يساهمن في بناء وطنهنّ، في الوقت الذي كانت كلّ الأفعال والأشياء تمضي في فوضى غريبة، تهندس نفسها بنفسها. لا تأبه كثيرًا للحقّ والواجب والظلم والتظلّم، تجد أنّها ولدت مظلومة وعاشت مقموعة مهمّشة ملعونة بلعنة أبويها طيلة عمرها، ولابدّ لها من البحث عن مخارج لها نحو الضوء، بعيدًا عن الماضي ولعناته، والحبّ وتبعاته، والزواج وتداعياته.

لم يكن أبو مأمون محتاجا إلى إنجاب أولاد منها، لذلك لم يسأل نفسه لماذا لا تحبل منه. وقد كان مسرورًا في قرارة نفسه، لأنّه كان يعتبرها عاهرته التي يمضي برفقتها أوقاتًا محدّدة ويعيش معها متعه المجنونة ورغباته الغريبة، وبدورها كانت مسرورة بهذه الحالة، بل كانت تحرص على عدم الإنجاب منه، لأنّها كانت تعتبره درجةً في السلّم الموصل إلى أحلامها، وعكّازًا مرحليّاً ستتخلّى عنه بعد مدّة، وتعتمد على ما تقوده إليها رحلتها وعكاكيزها.

انتقلت جميلة للتدرّب على التجميل في صالون قريب من بيتها. تعرّفت هناك إلى فنّانة مشهورة وهي زبونة دائمة في الصالون، وكانت في الوقت نفسه مقيمة في البناية المجاورة للبناية التي فيها شقّتها. كانت جميلة تهتمّ بها كثيرًا، لم تصدّق نفسها في البداية، حين وجدتها أمامها ببنيتها الضعيفة ووجها الذي ترك الزمن آثاره عليه، وأيقنت كم أنّ الشاشة مضلّلة وخدّاعة. وحده صوتها كان يحتفظ بدفئه وسحره، أمّا جسدها الشائخ فمرآة الواقع ولوحة التضليل التلفزيونيّ.

بعد عدّة مناسبات من اللقاء بالفنّانة المشهورة نغم، بادرت بدعوتها إلى منزلها، ولم تتردّد نغم في قبول دعوتها. في اللقاء تعرّفت نغم إلى تفاصيل حياة جميلة، فقرّرت أن تتبنّاها، شعرت بأنّها ابنتها التي لم تلد، وأنّ رغبتها القاتلة في الأمومة تتحقّق معها.

تفاجأت جميلة بنغم، اكتشفت فيها امرأة منكسرة حطّمتها التجارب. كانت لديها مشاعر أمومة جارفة تظهرها في مسلسلاتها، وكانت في غاية الاستغراب والتعجّب حين عرفت أنّها لم تنجب أولادًا، ورأت فيها صورة أمّها بهو بطريقة لم تكد تتبيّنها.

أصبحت نغم أمًّا مفترضة لجميلة. ووجدت كلّ واحدة في الأخرى تعويضًا متأخّرًا لها عمّا فقدته.

نغم في طريق الفنّ

انتعشت الحكايات بين جيمي ونغم. بدأت نغم بسحب خيوط الذّاكرة واستدراج شريط الماضي، وفتحت نافذة لاعترافاتها. أستعيد حكايات نغم وما أطلقته من باب العبرة على أسماع جيمي.

الدراسة في مجالنا قد تسدّ أفواه منتقديك، لكنّها لن توفّر لك العمل الذي ترغبين فيه. هذا المجال سوق مقايضة بأردية حريرية، الأضواء تعمي أكثر من النقود هنا. الدروب كلّها تؤدّي إلى بعضها، وتكون في النهاية خطوطًا في متاهة كبرى. أهمّ ما في الشاشة هو ما يجري وراءها.

الكلّيّة التي يفترض بها استقبال الموهوبين تكون حكرًا على المتنفّذين، ككلّ المجالات في هذا البلد. هاتف من ضابط كبير، أو ممّن يعملون بإمرته، هو بطاقة دخول الكلّيّة، وبعد ذلك تأتي الشركات التابعة لأولئك الضبّاط والمتنفّذين لصناعة النّجم التابع، النجم الصنيعة الذي يتفانى في خدمة صنّاعه.

هامش بسيط يظلّ متاحًا للموهوبين، يتنافس عليه كثيرون، عدد بسيط جدًّا من المحظوظين يتجاوزون تلك العتبة، لتأتي شركات الإنتاج بعد ذلك وتتحكّم فيهم، وتقصيهم، أو تبقيهم كومبارسات في سوقها.

كلّ طرف يحتاج إلى الآخر في تلك المقايضة، وتكون الصفقة جلية، وإن لم تكن مكتوبة، على كلّ من يحظى بامتيازات الأضواء والشهرة والأموال أن يسدّد ديونه المادّيّة والمعنوية لصنّاعه تباعا، وأن يلهج بالحمد والثناء عليهم، لدعمهم ومساندتهم، وأن يغلّف ذلك بشعارات عريضة ككلّ ما يجري التشويش عليه في هذا البلد. والطرف الآخر الذي يعرف بالممرّر أو الممرّق هو مَنْ يحدّد مكان استخدام نجومه المصنوعين وزمانه، وهو الذي يحدّد نوعية الخدمات المطلوبة منهم.

ثمّة من تتسلّل إلى هذا المجال عبر سلسلة من الأسرّة، تعبر من سرير إلى آخر في طريقها إلى الشاشة والأضواء، رأسمالها هو جسدها، توظّفه في طريقها إلى سوق الفنّ. وقد تتنوّع الأسرّة وتكثر أو تقلّ، وهذا يعتمد على كثير من الأمور، لعلّ أبرزها الحظّ.

هناك أيضًا فئة أبناء المشهورين وبناتهم، وهؤلاء يمكن تصنيفهم كجيل التوريث الذي اعتمد رسميًّا في البلد، بدءًا من الرأس وصولًا إلى المناصب والامتيازات كلّها.

لن تجدي مشاعر النقمة والغضب، هذه مشاعر يجب ضبطها وإبقاؤها كجذوة تدفعك إلى التميّز، لا بدّ من تمثيل الرضى والسعادة، فأنت في النهاية تمثّلين، والحياة مسلسل طويل، يتخلّله الملل والحزن والأسى والفرح والتمثيل، وكلّ ما فيه نتاج تقاطعات وأقدار تقودنا في دروبها ومتاهاتها.

بمجرّد اختيارك لمتاهتك، عليك إجادة اللعب في الميدان الذي تختارينه، هناك مَن يصل إلى التقاعد مبكّرًا ولا يهتدي إلى قوانين

اللعب، فيبقى مهمّشًا تائهًا منسيًّا. لا أعتقد أنّك ستحتاجين إلى ذلك. ستكونين مدرجة ضمن فئة التوريث في سوق التمثيل. في النهاية الناس كلّهم ممثّلون بطريقة أو بأخرى.

ومن ضمن الأعراف في هذا السوق، أنّه يحقّ لي أن أتبنّى واحدًا أو أكثر، بحسب الظروف. عادة، الفنّانات ممّن وصلن إلى تخوم الستينيّات أو تجاوزنها يخترن شبّانًا في مقتبل العمر، يجدّدن بهم بعضًا من شبابهنّ، يقضين برفقتهم أيّامًا قد تطول أو تقصر بحسب التفاهم غير المعلَن بدوره، وبعد أن يستنفد كلّ منهما الآخر، يعبر الفتى إلى السوق مدعومًا بتوصياتها، ويبقى مشتهرًا في الوسط الفنّي بأنّه صبيّ فلانة.

هي لعبة السلالم لكن بطريقة فنيّة. هو أيضًا سيغدو مشهورًا، وسيكون سلّمًا لغيره، ويستغلّ فتاة صغيرة بعد ذلك، تُعرف بأنّها عاهرة فلان أو عشيقته أو صبيّته. معظم مَن في هذا الملعب دخلوا إمّا صبيانا للسلطة، أو صبيانا للصبيان، الأجيال التمثيليّة تتوارث التمثيل على الذات والآخر، والأضواء تتكفّل بترقيع الشروخ التي يخلّفها الواقع والزمن والتعتيم على الخبايا.

سأحاول أن أكسر قوانين هذا السوق، لن أتبنّى صبيًّا مرّة أخرى، سأتبنّاك. لن تحملي وصمة فلان أو ختمَ آخر. لن تضطرّي لعبور عدد من الأسرّة، ستحتاجين فقط إلى مسايرة بعض العجائز من المخرجين الذين يستلذّون بحضور جسد فتيّ في أحضانهم، من دون أن تسعفهم أجسادهم على اختراق ذاك الجسد أو تطويعه. فالجنس عندهم محض خيالات ومشاعر، لمس لا يفضي إلى هزّ.

لغتك تتحسّن بسرعة مذهلة، كلّ الناس ممثّلون بالفطرة، لكن أنت مميّزة بفطرتك. احرصي على تعلّم خدع التجميل أكثر وأكثر، لا تثقي في الكوافيرات اللاتي ستلقينهنّ في طريقك مستقبلًا، فكلّ واحدة تابعة لشلّة، وهناك صراع شرس بين المقاتلات على الشاشة والأضواء والشهرة، حرب فتّاكة تستعمل فيها كلّ الأسلحة المتاحة، هذه تخطف زوج الأخرى، وأخرى توقع بهذا المخرج أو ذاك، المال هو القائد، والغرائز هي الحاكمة. لا تفرّطي في جسدك لأوّل عابر، فهناك محطّات كثيرة ستضطرّين فيها إلى تقديم جسدك هديّة إجباريّة، لذلك لا تكوني متهوّرة، كي لا تفقدي البوصلة.

كلّ الوصايا هباء في حياتنا. أختصر لك تجربة حياة عشتها وكنت شاهدة على تفاصيل كثيرة، عاصرت أناسًا بلغوا درجات من الشهرة ثمّ سقطوا من تلك القمم لأسباب تافهة، تبدو مضحكة ومثيرة للشفقة في آن. توهّموا أنّهم أصبحوا خارج المساءلة والمحاسبة، حاولوا التغريد خارج قطيع الفنّ والتمثيل، حاولوا تمثيل أدوار لا تناسب قدراتهم، فألقي بهم في قعر الحاجة والنسيان.

فقري فخّي، ويتمي سلطاني. سرت في دروب الحياة، متسلّحة بفقري ويتمي. تعرّضت إلى كثير من حالات الاستغلال والابتزاز، وفي كلّ مرّة كنت أكتسب قوّة ومناعة أكثر. خيباتي أكثر من أن تحصى، لا شيء يرمّم العمر والجسد. وعلى الرغم من أنّي قبرت الفقر ولعنته، مازلت أشعر باليتم ولم أتمكّن من ترويضه.

ما تزال صفة العاهرة ملتصقة بالفنّانة عند كثير من الناس، وحتّى في الوسط الفنّيّ أيضا، لكنّ الجيّد في سوق التمثيل أنّ الجميع

في اللعبة سواء، الكلّ في المستنقع نفسه. ستكون هذه الصفة ملازمة لك أيضًا، وهي صفة ملازمة لأمّك كما أخبرتني.

أمّك حاولت تحدّي عاهتها، أجبرت كثيرًا من أولئك الذين ينظرون إليها بعين الشفقة والازدراء على الركوع أمامها، أرتهم العهر على حقيقته. عرّتهم من مزاعمهم، استنزفت أجسادهم، ولم تتمكّن من تقويم جسدها ولا جبر انكساراتها الداخلية. لن تعيدي سيرتها، ولا طريقتها، لديك طريقك الخاصّة لتصنعي مصيرك بنفسك.

سوق الفنّ تحكمه القوانين الشفهيّة. غيرة، حسد، نفاق، كذب، تحايل، أجواء ملوّثة إلى درجة مرعبة. إنّ إشاعة من أحدهم بأنّ السلطة غير راضية عن فلان كفيلة بإقصائه وإبقائه سجين البطالة والبؤس والحاجة والعتمة. الأضواء للأتباع والصامتين المذعنين المشاركين بأدوارهم في إكمال مسرحيات العبث ومسلسلات الخيبة والزيف. ستلعبين في أرض مزروعة بالألغام، لا تنزعي عنك الأقنعة في تمثيلك. الأقنعة ستار واقٍ لك في رحلتك.

الخطوة الأولى في إعدادك لتجاوز عتبات هذا السوق إجراء بعض عمليات التجميل، من حيث الشكل لا تحتاجين إلى أيّ إجراء أو تجميل، اسمك فقط يحتاج إلى بعض التغيير. تحوير بسيط في حروفه. جيمي يناسب من حيث الإيقاع أكثر من جميلة. الناس مهووسون بأسماء النّجوم الأجنبيّة. ستصبحين نجمة ذات يوم. سيغدو اسمك جيمي.

أتمنّى في قرارة نفسي لو تزوّجت رجلًا تحبّينه ويحبّك، تعيشين معه حياة هادئة بعيدًا عن صخب السوق وضجيجه ومهاتراته، لكن بما أنّ

واقعك قد فرض عليك قواعد لعب أخرى، لا بدّ أن تكيّفي نفسك لمسايرته، وتطويعه، وتحويل خيباتك وهزائمك إلى انتصارات. لا يهمّ إن كنت ابنة موروي الأعمى، أو ابنة لطيفو باجاري حسبما تتوقّعين وتشكّين. الأهمّ هو أن تصبحي جيمي التي تريدين.

العهد الجديد

كان العهد الجديد نذير شؤم على زوج برازق. بدأت حملة تغييرات للوجوه المخابراتية القديمة، في محاولة لإظهار جديّة التغيير، والإيهام بأنّ شعار «التطوير والتحديث» سيطال كلّ مؤسّسات الدولة.

لم يتمّ التخلّي عنه بركنه على الرفّ، عبر تسليمه منصبًا شكليًا، بل طالته حملة الاتّهامات بالفساد، ذلك أنّه لا بدّ من التضحية ببعض الوجوه المكرّسة في الصفوف الدنيا من المسؤولين كي يعتقد الناس أنّ العهد الجديد جادّ في وعوده بالإصلاح.

لم يكن «المساعد أول» يجرؤ على التصريح برأيه فقد خشي حتّى من التصريح به لنفسه، وهو يعيد المثل «الولد ولد ولو عمّر بلد». وكان قد قرأ هذه العبارة على حيطان جامع البلدة، تحت عبارة «الدار برسم البيع». وتكرّرت عبارة أخرى «صغار الأفاعي لا تخلو من السموم». أزالها هو بنفسه فورًا، ومن أجل ذلك أوصى بدهن حائط الجامع كلّه من الخارج كي يغطّي على الجملة ويحاصر تداعياتها، ويخفّف من حجم الاحتقان، متجنّبًا الخوض في اعتقالات عشوائيّة كعادته في تلفيق التهم لبعضهم أو الإيقاع بآخرين لم يكن راضيًا عنهم.

كُتبت العبارة على جدران أكثر من دائرة حكومية في البلدة، وخاصة المدارس، ما اضطرّه إلى إصدار أمر شفويّ لمدراء الدوائر

باقتناء علبة دهان، والتفتيش اليومي على حيطان دوائرهم من الخارج والداخل قبل بدء الدوام الرسميّ، والجميع تحت طائلة المسؤوليّة.

كان تعبير «تحت طائلة المسؤوليّة» كفيلًا بإبقاء رجفة الخوف في قلوب أولئك المديرين الذين يتمّ اختيارهم بناء على مواصفات لا تمتّ إلى الكفاءة بصلة.

وزّع المسؤوليّة، لكنّه لم يتخلّص من التقارير التي كانت تصله يوميًّا عن الجمل التي يتمّ محوها بالدهان، منها ما يشير إلى التشبيه بالكلب الذي خلّف جروًا أسوأ منه، وأخرى مليئة بالشتائم.

أرّقت موجة الكتابة على الحيطان «المساعد أوّل». فأمر بانتشار الدوريات المناوبة في ساعات الليل عسى أن يتمكّن من القبض على مَن يصفه بأنّه حاقد يحرّض على الرئيس الجديد، وينتقم من الدولة.

شكّ أنّ هنالك ترهّلًا قد تسرّب إلى بنية مفرزته، فسعى إلى إقناع عناصره بضرورة الجدّيّة في المناوبات، وعدم الاستخفاف بالأشياء البسيطة التي تنذر بمخاطر قادمة، محاولًا حضّهم على القيام بدورهم، من دون جدوى، فقد كان كلّ واحد منهم مفعمًا بيقينٍ مفادُهُ أنّ سكّان البلدة لا علاقة لهم بالأمر، وأنّ هذه الغيمة من الشعارات عابرة.

كان لكلّ منهم مخططاته الاقتصادية ومشاريعه في التهريب والزراعة والنقل والتجارة، إلى درجة أنّ علاقتهم ببعض أهل البلدة أصبحت شراكة اقتصاديّة، وتبادل منافع، وإن واظبوا على نظرتهم الدونيّة لهم، وإشعارهم بين الحين والآخر بأنّهم مركز السلطة والقرار، وكان ذلك عبر إبقاء المسدّس ناتئًا تحت الحزام، متدلّيًا

بثقله، مرهبًا الناس.

أسوأ ما في تلك الموجة أنّها لم تكن بناء على توجيهاته وتخطيطه. كان يستعيد ما حدث قبل أكثر من عقدين في تاريخ البلدة، والطريقة التي تمّ تمريغ أنوف كثير ممّن كانوا يعتبرون أنفسهم وطنيّين ومعارضين وحزبيّين بالتراب. عوقبت جرّاء ذلك عائلات بأسرها، بأن حرم أبناؤها من التوظيف، وظلّ الخطّ الأحمر تحت أسمائهم ذا مفعول مؤثّر لسنوات.

كان تعبير الخطّ الأحمر كفيلًا بدوره بقطع أرزاق الناس، ودفعهم إلى البحث عن سبل أخرى للعيش، أو الهروب بطريقة مّا، لأنّ أبواب الحياة في البلدة ستكون موصدة أمامهم. وكان ذلك التعبير مصدر دخل للمفرزة في دعم تمويلها الذاتيّ. فكلّ واحد مضطرّ لتحاشي وضع خطّ أحمر تحت اسمه، كي لا يقضي على مستقبله ومستقبل أولاده وأهله. وكان ذلك سببًا لدفع رشاوى مستمرّة، موسميّة، شهريّة، ومناسباتيّة للعناصر، وكانت البسمة المتصنّعة ترافق دفع ثمن دعوة غداء وفق ما كان يقال في ترقيع الموقف، أو هديّة للأولاد، أو تبرّع لفلسطين.

الترهّل الذي استشعره كان ذريعة لتجميده، وتكليف النسناس بإدارة المفرزة إلى حين تعيين أحدهم. لم يكن قد رتّب أموره كي يتمّ التخلّي عنه بتلك السهولة. جاهد لتدارك الصدمة، ولملمة خيبته، وجمع حصصه المتناثرة في عدّة مشاريع، لكنّه لم يتمكّن من ذلك.

في اليوم الثالث من أمر تجميده، جاءت دورية مدجّجة بالسلاح من الفرع، أخرجته مكبّلًا بالقيود من المفرزة على مرأى ومسمع من

الناس الذين تجمهر قسم منهم ليستطلع من بعيد، إذ كانوا يتجنّبون المرور بجانب المفرزة، كي لا يضطرّوا إلى إلقاء التحيّة على عناصر المناوبة الذين يتسلّون عادة برشّ الماء على الشارع، وأحيانًا على المارّة من باب التفكّه، وتصنّع المزاح.

نشطت التخمينات عن أسباب اعتقال «المساعد أوّل». وانتشر نوع من الرضى بين الناس، رافقه شعور بالسعادة والتشفّي. ولم يخلُ الأمر من إظهار بعضهم التعاطف معه، على تلك النهاية، وخاصة أولئك الذين كان يشاركهم أمورهم أو يسهّل لهم تهريبهم.

ظلّ النسناس في حيرة من أمره، تخبّط ولم يعرف ما يفعل. اكتفى بانتظار الأوامر، وبدأ يتحسّس رقبته ويديه، يرى أنّ دورية ستداهم المفرزة وتقوده إلى الفرع كـ«المساعد أوّل»، ولا سيّما أنّه كان تابعه وشريكه أيضًا.

كان ذلك الاعتقال المدروس إشارة إلى الناس بأنّ تباشير الربيع الذي أشيع عنه في نشرات الأخبار وعلى ألسنة بعض المثقّفين قد بدأت تلوح، وأنّ الشابّ المتعلّم الدارس في أوروبا سيحوّل البلاد إلى جنّة، ولن يقبل بالممارسات السابقة بحقّ الناس.

بدأت أقسام الإشاعات تقوم بدورها، كالقول إنّ الرئيس جادّ في التغيير ويعمل على ذلك، لكنّ غيلان الفاسدين من البطانة المحيطة به تمنعه من ذلك. بدأت المراسيم الجمهوريّة تتكاثر، وكان الإيهام قائمًا على قدم وساق.

«الولد ولد ولو عمّر بلد»، ظلّ شعار البلدة، وظلّ يظهر بين الحين والآخر على جدران المساجد والمدارس. وانتشرت مزحة بين

الناس تقول إن أردت أن تدهن حائطًا مّا في البلدة فما عليك إلاّ أن تكتب عليه ذاك الشعار، وسيتحوّل عناصر الأمن إلى دهّانين تحت يديك.

ردّد بعضهم المثل القائل: «حين يسقط الثور تكثر عليه السكاكين». في إشارة إلى «المساعد أوّل» الذي ظلّ يرهب البلدة وأهلها لسنوات، ولم يكن تصديق إهانته بالأمر اليسير لديهم، وهو الذي طالما اتّبع ذلك الأسلوب في اعتقالاته لكثير من شباب البلدة.

انشغل الناس برئيس المفرزة الجديد. وبدأت زيارات التهنئة تتوافد عليه. أرسل معظم التجّار سكاكر وحلويات وعصائر لتهنئة المفرزة برئيسها الجديد وتأكيد الوفاء له، في حين اكتفى الرئيس بالتعرّف إلى الناس، والاستمتاع بكيل المدائح له، ولرئيسه الجديد بدوره.

دخلت البلاد مرحلة الجديد في اللغة اليومية المتداولة، فكلّ يوم كان هناك تعيين لمدير جديد على رأس دائرة أو مدرسة، كانت حمّى تقديم الوجوه الشابّة إلى المناصب متفشّية، لتأكيد فتوّة البلاد وقوّتها بشبابها، واعتمادها عليهم، وإظهار أنّ حقيقة التغيير.

لم يكلّف رئيس المفرزة الجديد نفسه عناء قراءة كتاب «المساعد أوّل» السرّيّ، ولا وصاياه ومقترحاته، وجده كلاسيكيًّا في آرائه، يعتمد على النمط التقليديّ في السيطرة على الناس، في حين أنّه كان منتشيًا بقوّته وشبابه، ويؤكّد لنفسه ولزوّاره ومهنّئيه أنّه كانت ثمّة أخطاء وأنّ القيادة تسعى إلى البحث عن السبل الكفيلة بإصلاحها وتلافيها، ولكن ذلك يحتاج إلى بعض الوقت، ويكرّر أنّ الرئيس

الجديد لا يحمل عصا سحريّة. وهي عبارة استلّها من خطاب القسم الذي أدّاه، وأعجبته لأنّها تبرّر سلفًا أيّ تقصير قادم.

أصبح جانب التمويل الذاتيّ للمفرزة بمثابة عرف مخابراتيّ شفهيّ. فموازنة المفرزة المخصّصة من الفرع محدّدة، في حين أنّ خزينة المفرزة يجب أن تظلّ ممتلئة ممّا كانوا يسمّونه تبرّعات أهل المدينة. وما إن استلم الرئيس الجديد مفاتيح التجارة والتهريب من النسناس و«أبو اللطخة» حتّى طالب بحصصه من مشاريع الآخرين وفرض عليهم نسبته فيها.

كلاب الصيد

كان القرار الشفهيّ الذي أدخله «المساعد أوّل» على أعراف المفارز القاضي بضرورة تمويلها لنفسها وتأمين مواردها ومصاريفها ساريًا، لتوفّر بذلك دخلًا إضافيًّا للفرع، ولا تشكّل أعباء عليه. وساعدت نظرية النِسَب المعمول بها في تسهيل عملية التمويل الذاتيّ للمفرزة اعتمادًا على ما تراكمه من إتاوات معلنة.

اتّفق عناصر المفرزة مع الجماعات التابعة على حفظ نسبها، وصاروا يقتطعون نسبتهم الخاصّة من الكمّية أو يضيفونها إلى المستحقّات. قُسِّمت المدينة إلى قطاعات جغرافيّة وقطاعات بشريّة بحسب المهن، لتيسير عملية الجباية، وبدأ التغاضي عن الممارسات والتجاوزات بعد تسلّم النسبة، والسماح للدافعين بتحصيل نسبهم أيضًا من الآخرين، لتنشأ بذلك حلقات استغلال متشعّبة، أفقيًّا وعموديًّا.

كانت محاولة «المساعد أوّل» في استنساخ نموذج الشيخ خربو وتعميمه متمثّلةً في تصدير شخصية محجوب، المشهور بلقبه زوج الوردة، فقد قام بتسليمه إدارة المؤسّسة في البلدة وأفسح له هامشًا للتسلّط واستغلال الناس، ليفرض هيبته ويظهر أمامهم أنّ له كلمة وحظوة عند السلطة التي تقدّر خدماته الجليلة لها، وتكافئه عليها.

بعد أن كان يكافأُ لسنوات على أعماله وتقاريره بوظيفة مؤقّتة هي عبارة عن عقود مع مؤسّسة الحبوب تجدّد كلّ بضعة أشهر، ثمّ ينتظرُ شهورًا ليعاد توظيفه، أوصى بترقيته، ليخلق منه نموذج الموالي المطلوب.

كان يبدي إعجابه بعداء محجوب لأهل بلدته، وتفانيه في كتابة تقاريره الدوريّة، وتغاضيه عمّا يدور في بيته، بل وتباهيه بأنّ بيته لا يكاد يخلو من ضيوف وزوّار، وبكون بيت الكرم عادة ما يكون كذلك. وهو يعرف أن بيته يوصَف من قبل أهل الحارة بأنّه المؤسّسة الشعبيّة، القطاع التعاونيّ بين السلطة والشعب، وأنّه مقرّ الجمعيّة، تنعقد فيه لقاءات ومشاورات، ويكون الطريق المُعبّد بالإسفلت الممدود وسط ساحة ترابيّة، إلى عتبة بيته على طول يزيد على الثلاثمائة متر، مدعاة لإفتخاره بسلطته ونفوذه.

عاد «المساعد أوّل» لكن بصفة مستشار. كان ممّن تمّت التضحية بهم في ما سُمّيَ بحملة مكافحة الفساد. وهي حملة للتعمية على أسماء متنفّذة، وتقديم بعض الصغار كأضحيات للترقيع، والإيهام بالجدّية، والإيذان بدخول عهد جديد يتّسم بالشفافيّة والنزاهة.

كان اقتياده من المفرزة مهينًا له، شكّل صدمة للناس وموظّفي الدولة في البلدة. تريّث الجميع في مناقشة حالته حتّى أشير إلى المفرزة بإعلانه واحدًا من المشتركين في دائرة الفساد، وقد طالته الحملة وستطال غيره، من أجل بثّ الترويع لدى الناس، في حين كان القصد الإيهام بطمأنتهم وزعم الجدّيّة في الاستماع لهمومهم وشكاواهم.

قيل إنّهم جعلوه يدفع كلّ ما جمّعه خلال عمله في البلدة. طبّقوا

عليه الأعراف الدارجة بينهم، وهي ضرورة أن تكون للدولة أكثر من تسعين بالمئة ممّا تحصّله في خدمتك. ويكون السداد كلّ مرّة بطريقة مختلفة. قيل إنّه أصيب بالسكّري جرّاء التعذيب الذي لقيه في السجن، والإهمال الذي عومل به.

زوج الوردة كان أحد الذين اعتمد عليهم المستشار في لعبة الأقنعة التي لعبها مع أهل البلدة. شكّك الجميع في الجميع. ألبس جواسيسه ثيابًا سوداء فضفاضة، ووضع لهم أقنعة ونظّارات سوداء قاتمة، وجعلهم يرافقون عناصر القوات المداهمة للمنازل، يشيرون إلى المطلوبين من الشباب، يتعرّفون إليهم بم أنّهم من أهل البلدة، ويكتفون بلغة الإشارة إلى أنّ هذا هو المطلوب أو لا.

كثيرًا ما اعتقلت القوّات المداهمة والد المطلوب أو أخاه، أو في بعض الحالات أمّه أو زوجته أو ابنه، للضغط عليه وإرغامه على تسليم نفسه. وكانت هذه عادة تلجأ إليها المفارز عند الضرورة، وفي تلك المرحلة اعتمدتها بشكل سافر، ومن دون أيّ اكتراث لأحد.

امتلأت حارات البلدة وشوارعها بالجنود المجلوبين إليها، كانت مظاهر التسلّح تملأ المدينة، البنادق مصوّبة إلى الناس، الجنود يخافون كلّ من يقترب منهم، لا يردّون على تحيّات أحد، يتوجّسون من كلّ حركة أو نأمة، يتلفّتون حولهم بريبة، يلبسون لباسهم الميدانيّ الكامل، كانت أشكالهم مثيرة للذعر والشفقة في الوقت نفسه.

استبعدت قيادات الكتائب العناصر الأكراد الموجودين لديها، أبقتهم في أماكن بعيدة عن الاحتكاك بالناس، كما جرّدتهم من أسلحتهم، وصاروا في حكم الموضوعين تحت الإقامة الجبريّة. تمّت

تصفية كلّ من شكّت في أمرهم. وكانت جثث المجنّدين الأكراد ترسل إلى أهاليهم، ويفرض عليهم الدفن من دون أيّ مراسيم، أو تأبين.

كان المستشار يقود حملة المداهمات بنفسه، فقد أراد الانتقام لكرامته المهدورة. وكان بنحافته الباعثة على النفور إثر إصابته بالسكّري مثيرًا للسخرية. يقمع أيّ احتمال للتودّد إليه. لا يردّ على تحيّة أحد. يتعامل باستكبار منقطع النظير. ولم يقبل وساطة أحد من البلدة لإزالة أسماء بعض الشباب المطلوبين.

استعان بخلاياه النائمة، على حدّ وصفه. أعاد بثّ الرّوح في مخبريه. أجرى اتّصالاته بهم، وأرسل في طلبهم إلى الفرع، كي يروا وضعه الجديد، ويعودوا إلى ولائهم السابق له، وعملهم معه. كان يكرّر لهم أنّ الدولة كالأب، تعاقب بعض أبنائها، قد تخطئ أو تصيب، لكنّها لا تحقد عليهم، وأنّه أحد أبنائها البارّين بها، وسيظلّ في خدمتها طيلة عمره.

خدعته لعبة الأقنعة لضرب الناس بعضهم ببعض. لم يحتج الناس إلى التخمين أنّ المقنّع هو هذا الشخص أو ذاك، إذ كان عملاء المخابرات معروفين بين أهل البلدة، وكان قسم منهم يتباهى بعمالته لهم، وقسم آخر يحاول التهرّب من الأمر ويصفه بالتهمة الملفّقة ضدّه من الحاقدين عليه.

انقضّت والدة شمالو على المقنّع الذي أشار إلى عناصر المداهمة بأنّ هناك بئرًا قديمة في البستان، وأنّ شمالو مختبئ فيها. وسارع أولئك العناصر بالذهاب إلى البئر. صاحوا باسمه مهدّدين بتفجير

البئر إذا لم يسلّم نفسه، أو سيفجّرون البئر، فما كان منه إلاّ أن خرج مبلولًا مرتعشًا. صفعه رئيس الدورية وكاد يسقطه في البئر. حين رأت والدته ذلك، وكانت قريبة من المقنّع، مدّت يدها إلى قناعه، فكشفت شخصيّته، كان أوسكو؛ دكّنجي الحارة، خمّشت وجهه، وانهالت عليه بالسباب والبصق.

حاول أهل الحارة إجبار أوسكو على الرحيل عنها، لكنّ المستشار تدخّل، وأجبرهم على التراجع عن طلبهم. هدّدهم بحرق الحارة كلّها، واعتقال شبابها ورجالها ونسائها. بقي أوسكو في الحارة منبوذًا من أهلها، وكان يعلم أنّ الناس لن ينسوا عمالته ووشايته بأبنائهم، فما كان منه إلاّ أن باع بيته وانتقل إلى دمشق في محاولة للبدء من جديد هناك، وكان يسمع حكايات عن موروي الأعمى ونفوذه المتنامي في البلدة القريبة من دمشق، فقصده طالبًا منه المساعدة والعون.

كان زوج الوردة واحدًا من المقنّعين، لكنّه كان شديد الحيطة والحذر. يظلّ وسط العناصر، لا يقف في الأطراف كي لا يغافله أحدهم ويكشف القناع عن وجهه. مع أنّ الجميع كان يعلم أنّه حتّى لو لم يكن واحدًا من المقنّعين، فإنّه أسوأ منهم، أو هو المساهم في تجنيدهم ودفعهم إلى المشاركة في إلقاء القبض على الشباب المطلوبين.

لم يحتج المستشار إلى ميزانيّة كبيرة لتجنيد عدد ممّن سمّاهم «الأدلاّء». وكان يصفهم بأنّهم كلاب الصيد بالنسبة إلى المخابرات، مع ملاحظة أنّهم ليسوا ثقات، ولا يمكن أن يكونوا أوفياء مطلقًا، فمَن يَخُنْ أهل بلده لا يكون جديرا بالاحترام من صديق أو عدوّ. ولم يكن يجهر بذاك الرأي، لأنّه تعلّم من اعتقاله أن يبقي كلّ آرائه طيّ

الكتمان، ويكرّر ما تريده السلطات العليا. و باتت تنحصر استشاراته في إحياء علاقاته السابقة، والضغط على أولئك الذين كان يعرف نقاط ضعفهم وقوّتهم، واستغلال معارفه وخبراته في المنطقة لإعادة هيبة الدولة.

لم يكن تجنيد المقنّعين صعبًا، إذ كان يتمّ إقناعهم بوعود العفو عن ذويهم من الاعتقال، وبالتغاضي عنهم مقابل خدمتهم تلك، وبالتكتّم على أمرهم وتقديس مهامهم، وفي حال لم يتعاونوا مع السلطة للإيقاع بالمخرّبين فسيكونون على لائحة الاعتقال والاتّهام. ولم يكن يتوانى عن التصريح لهم بأنّ له تعليمات باعتقال أيّ امرئ بمجرّد الشكّ فيه، وأنّ الشكّ يطال الجميع، وليس هناك أيّ استثناء، بل أنّ مجرّد انتمائهم لهذه البلدة كفيل في حدّ ذاته بإدخالهم السجن، لأنّهم ببساطة لم يحاولوا منع المخرّبين من الإساءة للوطن ورمزه.

تحطيم الصنم

من «وصايا المستشار»:

«أوصي بضرورة إرجاع التمثال القديم إلى مكانه في مدخل البلدة.. يجسّد ذاك التمثال هيبة الدولة وسطوتها وقوتها».

كاد يضحك في سرّه على النكات التي تداولها أهل البلدة عن التماثيل التي وضعت محلّ التمثال المحطّم. كان يستعيد قراءة التقارير المرفوعة إلى الفرع من قبل الجواسيس والعناصر عن حالة التمثال، في ملف مخصص باسم «تمثال الأب الخالد».

تسرّب إليه خبرُ تسجيلٍ مصوّرٍ لدى بعض الناس عن حادثة تحطيم التمثال، أراد أن يشاهده، وكان يعلن أنّ ذلك سيسهّل القبض على المجرمين، وسيساهم في تسريع العملية، مستغربًا أشدّ الاستغراب من الروح المجنونة التي تلبّست بأهل البلدة المسالمين ودفعتهم إلى ارتكاب تلك الممارسات. شعر بأنّ ما بناه لأكثر من عقدين قضي عليه في أيام معدودة، ولم يشكّ في أنّ إعادة هيبة الدولة ستحتاج إلى طريقة أعنف، وأنّ التأديب ضروريّ للدفع إلى التندّم والتأسّف على ما سمّاها بالحماقات المقترفة في حقّ الدولة.

- يبدو كمملحة صغيرة على طاولة طعام كبيرة.

- حجمه كبير لكنّه صغير في عيوننا.

-عاد إلى أصله، حين كان قردًا قزمًا.

تفتّحت قرائح الناس لابتداع السخريات منه، كان ذلك بمثابة تفجّر للرعب المزروع طوال عقودٍ. لم يجرؤ أحد في البداية على الاقتراب من التمثال، وحين حاول بعض المتحمّسين الاقتراب، قوبلوا بممانعة من بعض مَن كانوا يعتبرون أنفسهم وجهاء في البلدة، لكنّ تلك الممانعة تهاوت أمام الرغبة المتفجّرة لدى المتظاهرين بتحطيم التمثال الذي يشكّل بالنسبة إليهم رمزًا لجبروتٍ ينبغي تحطيمه.

التفّ المتظاهرون عليه في البداية ثُمّ أكملوا طريقهم نحو إحدى المفارز الأمنية القابعة في طرف البلدة، لكنّهم لم يدخلوا في مصادمة مباشرة مع عناصرها، وآثروا العودة إلى البلدة والبدء بحملة تطهيرها من رموز السلطة. وأثناء عودتهم، لاح لهم تمثاله في مدخلها وهو يلوّح بيده، فازدادت نقمتهم عليه، لأنّهُم يهتفون بموته ويلعنون روحه، وهو ما يزال منتصبًا في مكانه هناك.

تفنّن الشباب في كيفيّة تحطيمه؛ تسلّق بعضهم على كتفيه وبدأ بركوبه، ثمّ صفع رأسه، وخدش وجهه. كانت يده المُلوّحة للهباء في حركة مسرحية أوّل جزء حُطّم، ثمّ بدأت كلّ مجموعة بكسره من موضع. كان مصنوعًا من مادّة صلبة، ما تطلّب جهدًا مضاعفًا لكسره. هلّلوا حين أسقطوا يده، ثمّ هلّلوا أكثر حين أزالوا رأسه، وبدأت الهتافات المنادية بإعدامه. فَوُضعت سلسلة في رقبته لسحله والانتقام منه.

يقال إنّ أحد مجانين البلدة أخرج عضوه وبدأ يتبوّل على حطام التمثال، وكان يتنفّس الصعداء وهو يقول منشرح الصدر إنّه شعُر

براحة لا مثيل لها.

كانت مشاهد إسقاط تمثال صدّام حسين ماثلة في أذهان الناس، شعروا بالقوّة وهم يتفنّنون في تحطيم ذاك التمثال الجاثم على صدر المدينة وأهلها، ويشوّه مدخلها الشرقيّ. ثمّ بدأ الناس يشيرون إلى بعضهم بوجود صنم صغير للطاغية في هذه الدائرة أو تلك، وما كان منهم إلاّ أن حطّموا تلك التماثيل التي كانوا يصفونها بالأصنام المنصوبة في البلدة.

حمل الشباب عمود كهرباء مدبّب الرّأس كان ملقى على قارعة الطريق، وضعوه على أكتافهم، وبدؤوا يكرّرون معًا صيحات «هيلا هوب.. هيلا هوب» وهم يدقّون مؤخّرة التمثال، لكن الرأس الخشبيّ لم يؤثّر في التمثال، ما دعا بعضهم إلى التنكيت والقول إنّ عليهم أن يضعوا بعض الزيت على رأس العمود، وقال آخرون نحتاج إلى خازوق حديديّ ليشقّه إلى نصفين.

كانت أذهان الناس مسكونة بهواجس عن صور قصف محتمل في تلك الأثناء، وهم منغمسون في تحطيم التماثيل وحرق الدوائر الدالّة على سلطة الدولة، كمقرّات حزب البعث والشبيبة، وانزلق بعضهم إلى حرق المؤسّسات الخدميّة، كالمصرف والمحكمة والمركز الثقافيّ.. كان الحرق هو الوسيلة المتّبعة بعد التحطيم، وكأنّ الحرقَ وحده ما يشفي الغليل سوى الحرق، للقضاء التامّ على إرث الحقد المزروع في النفوس.

خلت الشوارع من صوره وتماثيله. وسرت في نفوس شباب البلدة قشعريرة النشوة والنصر، شعروا باستنشاق عبير الحرّيّة

المنشودة. كان ذلك شعورًا غريبًا فريدًا من نوعه، يمزج بين الرضى عن الفعل والنشوة والخشية من ردّ الفعل القادم.

وبعد أن هدأت الأحوال في البلدة، واستعادت المخابرات السيطرة عليها، لفّ أعوانها ما وُصف بجثمان التمثال، فقال الناس لقد تمّ تكفينه لدفنه. ولكنه بقي في مكانه لفترة، حتّى تبتّ السلطات في أمره، وتقرّر ما ستفعله به. هل تزيله بشكل كامل، أم تضع آخر محلّه؟ هل ترمّمه وتعيده إلى مكانه أم تضع تمثال ابنه محلّه؟ في البداية، كان الأمر محيّرًا للمسؤولين وهم يتبادلون الآراء بشأنه، وفي النّهاية رفعوا تقاريرهم إلى دمشق لتبتّ في الأمر وتقرّر بدلًا منهم.

- رائحته المتعفّنة أفسدت هواء المنطقة.

- إكرام الميت دفنه.

- لا أحد يرضى بصنع تابوت له.

- صنمٌ للفتنة منتصب.. أكرهه وألعنه..

كانت تلك بعض الأقاويل التي تبادلها الناس كنكات راجت بعد تأخّر السلطات في معالجة الموضوع الذي شغلها، وأُحتيج إلى تدخّل خاصّ بمعالجة تداعياته وتأثيراته، ومن ثمّ لملمة أشلائه المبعثرة وإعادة تجميعها.

انتشرت شائعات مفادُها أنّ انتقام السلطة من أهل البلدة سيكون أشرس من انتقامها من أهل حماة في ثمانينيّات القرن العشرين، وكان ذلك مترسّخًا في الأذهان نموذجًا تاريخيًّا قريبًا لحقد السلطة وإجرامها وانتقامها، وصورةً لفتكها بالناس عند أيّ محاولة منهم

لتحدّيها أو النيل من هيبتها. ولم يشكّ أحدٌ في أنّ انتقام السلطة من البلدة وأهلها سيكون فظيعًا.

ارفعني ولو على خازوق

«ارفعني ولو على خازوق». تؤكّد نغم لجيمي أنّ هذا هو شعار الدائرين في فلك سوق الفنّ. طلبت منها أن تكون متحضّرةً لبقةً في السهرة لتعرّفها إلى مخرج مشهور، وسيناريست متنفّذ سيزورانها ويسهران عندها.

حكت نغم لجيمي جانبًا من ماضي المخرج والسيناريست، فهُما يشكّلان ثنائيًا أخطبوطيًا في الدراما، ولهما كلمة نافذة على شركات الإنتاج الدراميّ، بحكم علاقتهما الوثيقة مع قسم الدراما والفنون في شعبة المخابرات العامّة.

المخرج الذي كان قد أرسل في بعثة إلى الاتّحاد السوفياتيّ، وعاد بدرجة الدكتوراه، استلم إدارة عدد من المؤسّسات الرسميّة، قبل أن يتركها وينتقل إلى التمثيل في مسلسلاته التي يخرجها. يوصَف بالشبح في الدراما، فليس هناك مسلسل يُنتَج من دون موافقته وفرضه أدوار البطولة لمن يزكّيهم القسم المتخصّص في شؤون الفنّ والفنّانين في الأمن.

انتشل المخرجُ الشبحُ السيناريستَ من واقعه البائس، فبعدما كان كاتبًا يصف نفسه بالمعارض، لا ينفكّ ينتقد السلطة في جلساته، وهو انتقاد نقمة على وضعه وفقره، تغيّر وأصبح ملمّعًا لها في أعماله، إثر تعرّفه إلى المخرج في قسم التحقيق، وقد زعم له حينها أنّه كان

بصدد زيارة الضابط المشرف على القسم لأخذ موافقة أمنيّة للبدء في تصوير مسلسله الجديد. روّضه بوعود الشهرة والمال.

طلب منه المخرج كتابة مسلسل اجتماعيّ يصف فيه أحوال الأدباء والفنّانين ويومياتهم وتفاصيل حياتهم، ويركّز على أولئك الذين يعتبرون أنفسهم معارضين، وينطلق من الواقع ويصفه بدقة شديدة. كان ذاك المسلسل أشبه ما يكون بتقرير أمنيّ عن أحوال أصدقائه، وقد راقت الفكرة للسيناريست فَحاول التحايل على نفسه واعتبار عمله المفترَض نقطة لصالح أصدقائه لأنّه سيعبّر عن أحلامهم وآمالهم في هذا العمل، ناهيك عن المبلغ الكبير الذي وعد به.

مارس المخرج دور الرقيب على العمل، فبدأ بحذف مشاهد واقتراح مشاهد بديلة، ومواقف جديدة، واقترح إضافة بعض الشخصيات كي يبدو العمل متكاملًا أكثر، ومعبّرًا عن أحوال شرائح مختلفة من المجتمع. وكان يؤكّد في كلّ مرّة للسيناريست الذي أصبح صديقه أنّ عليه أن يواظب على موقفه المنتقد، مع توجيه ذاك النقد إلى مواقع بعينها، كي يسبغ المصداقية على أعماله، وتكون شراكتهما تجسيدًا فنيًّا للوحدة الوطنيّة.

أضفى عليها فستانها الأسود الذي اختارته لها نغم سحرًا خاصًّا. كانت القلادة التي تغطّي صدرها تتألّق وتعكس الأضواء كأنّها بروق ونجوم تستدرج المرء إليها. لم يخفِ المخرج انبهاره بجمالها، وشاركه في ذلك صديقه السيناريست. ابتسمت نغم وهي تعرّفها عليهما، وتصفهما بالعظمة والفرادة والتميّز.

بدا السيناريست أكثر تعلّقًا بجيمي، ذلك أنّ المخرج كان يحاول

مداراة انبهاره بجمالها، وهو القادم من مهرجان دراميّ كان فيه ممثّلًا للبلد والفنّ. سألته نغم عن رحلته، فأسهب في توصيف التقدير الذي قوبل به، وإعجاب الناس في الخارج بالتطوير الذي حقّقته الدراما، ووصفه بعرّاب الدراما السوريّة.

وعلى الرغم من معرفة نغم بكلّ التفاصيل عن مشاريعه الدراميّة القادمة، وما إذا كان قد باشرها أم لا، فقد سألته كي تمنحه مجالًا أكبر للحديث عن ذاته، وهي تعرف أنانيّته ورغبته الدائمة في الاستحواذ على الكلام وعدم إفساح المجال لأحد كي يتكلّم أو يعبّر إلاّ إن كان ينوي سؤاله، أو يتدخّل مشيدًا بإبداعه وتميّزه.

تلك العادة موجودة أيضًا لدى السيناريست، لكن حين يغيب المخرج عن الجلسة، وكأنّه يقتصّ لنفسه من الاستماع الذي يفرضه عليه شريكه، ويعوّض ذلك بالهذر والثرثرة حين ينفرد بمجلس، فيبدأ بسرد حكاياته عن أيّام شقائه، ومواظبته على مواقفه المعارضة للمسؤولين الثقافيّين والفنّيين.

أخبرتهما نغم أنّ جيمي مثل ابنتها، وهي جارتها، ولديها موهبة فريدة في التمثيل، وأنّها تتقن عددًا من اللهجات السوريّة. وقالت لهما إنّها بصدد تقديم البكالوريا، وإنّها اضطرّت للزواج من رجل يكبرها تحت ضغط أهلها، لإنقاذهم من الفقر والتشرّد. وأضافت بنبرة مميّزة: «والأهمّ أنّها كرديّة».

لم تقل بشكل مباشر إنّها تريد أن تُدخلها عالم الدراما، كانت إشاراتها المقتضبة كفيلة بإثارة الرغبة في التعرّف إليها أكثر.

كان السيناريست المشهور بطريقته في خلط السَّلَطة وافتخاره

الدّائم بكونه ربّ الخلطة السحريّة، يركّب في ذهنه سيناريو لمشاهد يقحم فيها دورًا لفتاة بمواصفات جيمي.

كانت الخلطة السحريّة حجّة السيناريست لاستدراج زوّار العاصمة من الأجانب والضيوف العرب إلى بيته، وجمع بضع كاتبات مبتدئات وممثّلات حالمات بالشهرة والمال، وإحياء سهرات مميّزة، على أنغام العود الذي تعزفه إحدى صديقاته، وعلى وقع الرقصات التي تؤدّيها أخريات. وكانت تلك السهرات وسيلته لتوسيع دائرة شهرته، ودفع الزوّار إلى الاهتمام برواياته ونشرها في بلدانهم، أو السعي إلى ترجمتها وتأمين مموّلين لها.

يقول إنّه يعتمد في سيناريوهاته وكتاباته الطريقة السّحرية نفسها في خلط السَّلَطة. الفنون سلطات بدورها. يرشّ عليها بهاراته، ويأتي صديقه المخرج ليضيف إليها ما يراه مناسبًا فتكتمل الوجبة وتصدّر إلى الجمهور الذي سيستمتع بها.

اقترح السناريست على المخرج إدخال شخصية كردية في المسلسل الجديد الذي يشتغل عليه، ولأنّه يصنّف نفسه معارضًا، أراد أن يكون له السبق في إدخال اللغة الكرديّة إلى الدراما، عبر أغنية تغنّيها الفتاة. قهقه وهو يقول للمخرج: «لكنها أغنية مختلفة عن تلك التي يغنّيها ذاك الممثّل المنحدر من أصل كرديّ ويصرخ مدوّيًا بصوته: أنا عربيّ آه يا نيّالي».

راقت الفكرة للمخرج فقرّر أن يقترح الأمر على المسؤول الأمنيّ في القسم، ويستشيره في ذلك، ويحاول إقناعه بأنّ الأمر سيكون من باب الانفتاح على الآخر، وتأكيد الزعم بأن الدراما تخطّت أغلَبَ

القيود وتجاوزت عددًا من الخطوط الحمر.

لم تتكلّم جيمي كثيرًا أثناء السهرة، كانت نشيطة في تحرّكاتها وترتيبها للطاولة، ولم تشرب إلاّ بضع رشفات من كأس الويسكي الذي أصرّ المخرج على أن تشاركهم به. وكان يمازحها بأنّها لن تصبح فنّانة مشهورة إن لم تشارك في قرع الكؤوس، وتدوير الرؤوس.

سألها المخرج عن دراستها، وزوجها، وأهلها. أسرّت نغم بأنّ جيمي تمكّنت من لفت الأنظار وجذب الاهتمام، وهي التي كانت واثقة من ذلك، وأعدّت الأجواء الكفيلة بتحقيقه. غمز المخرج نغم لتضع موسيقى هادئة تسبغ على السهرة سحرًا خاصًّا، ورفع كأسه وهو يقول: «نخب جيمي، ونخب الوحدة الوطنيّة». وكانت قهقهته طاغية على الموسيقى الهادئة وهي تتصادى في الصالة.

احتاج الأمر إلى استشارة أمنية، ودراسة عن الفتاة، وتوصية من المفرزة في البلدة، بأنّها مناسبة لتقديمها كواجهة للأكراد، فنّانة تساهم في تكريس الصور التي تشتغل عليها الدولة في سياساتها الخاصّة بالمنطقة.

كانت الإشارة إلى أنّ هذه الشخصية قادمة من الشمال تعني بأنّها كرديّة، ويبقى الأمر مفتوحا على التأويل وشرح المقاصد، وكأنّ العمل مفعم بالرمزيّة، في حين أنّ القصد كان إخفاء التنوّع والاختلاف، وتقييد الجميع بقالب واحد، وإيهامهم باختلافهم وتحرّكهم في دوائر مفتوحة.

أخبرت نغم جيمي أنّ هناك عادة بدأت تدرج في الدراما وتنتشر بسرعة، وهي عادة تطعيم الدراما بالمكوّنات الاجتماعيّة الموجودة

من دون تسميتها. فقط من باب الإشارة إليها من خلال لهجاتها، أو بضع كلمات محدّدة، كالسؤال عن الحال بالكرديّة، أو إقحام أغنية فلكلوريّة يعزفها أحدهم على البزق أو الطنبور، للإشارة إلى أصله، ويكون هذا التطعيم المفترض أنّه تزيين للدراما تسميمًا للواقع والفنّ والشاشة.

أكّدت نغم لجيمي أنّ الصنّارة علقت، وأنّ الحوت ابتلع الطعم، وسيظنّ أنّه يلعب بها في الوقت الذي سيكون ملعوبًا به. الدراما ملعب الأذناب الذين يظنّون بتأثير الأضواء أنّهم قادة. الكلّ في هذه المعمعة الدراميّة يمشي وهو مُحوزَق. لا أحد ارتفع من دون خازوق. ومَن وصل على خازوق يسعى إلى أن يصبح خازوقًا لغيره. دراما الخوازيق هي السائدة في السوق. مَن لم يروّض بالمال يُروَّض بالسيف، ومَن لم يروّض بالسيف يروّض بالعزلة والإقصاء والفقر.

سلطة الإغواء

ستؤدّي دور فتاة قادمة من الريف البعيد، توحي هيئتها وثيابها بأنّها كرديّة. تتحدّث بلغة عربيّة تخلط بين المذكّر والمؤنّث في كثير من الجمل. تثير لدى مستمعيها الرغبة في الضحك، وكأنّها تحكي نكتة.

سيحرص المخرج على إبراز مفاتنها حين تؤدّي دورها. يهندس شخصيّتها بما يناسب الدور. تضع شالًا في رقبتها، تترك الزرّ الأعلى من فستانها مفتوحًا، ليظهر جانب من صدرها حين تنحني، أو تجلس.

يطلق فريسته في المدينة. يتكهّن لها بأنّها ستغدو مفترسة بعد ذلك. إنّه قانون غابة الفنّ. الفرائس في عالم الفنّ هنّ طرائد في البداية، وبعد أن يشتدّ عودهنّ، ويتمّ افتراس أجسادهنّ مرّات ومرّات، يصبحن شرسات، مفترسات يستدرجن طرائدهنّ، ويتلاعبن بها، قبل الإجهاز عليها.

تنتقل جيمي من دكّان إلى آخر باحثة عن عمل، وتحرص في كلّ بدايةٍ على التهرّب ممّن تلمح في عيونهم اشتهاءً لها. هنا يترك لها المجال ليقودها حدسها الأنثويّ، وغريزة المرأة حين تستشعر المخاطر.

تعرّف إلى مرونة جسدها في بيت نغم. مع كرع كؤوس العرق، اختلط عليه الأمر. لم يعد يعرف ما إذا كان ضاجعها، أو حضنها،

أو اكتفى بمداعبتها، واكتشاف جسدها الفتيّ اليانع. أدّت رقصة شرقيّة أدهشته. لم يكن يطيق ذاك الزعيق المُرافق للرقصات الشرقيّة الشعبيّة، وهو الذي كان يكثر منها في أعماله الدراميّة، بحجّة أنّ الجماهير تعشق التفاهة، وأنّها غبيّة تقاد بالقشور، وتفضّل الضجيج المفتعل والحركات الصاخبة المصاحبة.

موسيقى هادئة تكاد لا تُسمع. كأنّ حالة سحريّة تلبّستها. لم تكن قد شربت سوى القليل من العرق، لكنّها أحسّت بنشوة تقودها. تخفّفت من خجلها الذي لازمها منذ بداية السهرة. لم تشدّ الشال على وسطها بداية. تمايلت كخيط حرير تداعبه نسمات منعشة. أفردت شعرها الذي كان ينقاد بهدوء. وانتشت برقصها، فأيقظتهم من سكرتهم لتزيد إسكارهم.

جسّدت أسلوب أمّها في الرقص. كانت حركاتها تستوطن مخيّلتها، وعلى الرغم من كرهها لتلك الحركات سابقًا، فقد وجدتها أشدّ براعة من أيّ حركات أخرى يمكن لها أن ترتجلها. تمدّدت على الأرض في منتصف رقصتها، بدأت تموّج جسدها، ترسم تموّجاتها بما يوافق انسيابيّة الموسيقى التي تنعش روحها. تركت لكلّ عضو من جسدها أن ينتشي على مهل.

استوطنتها تلك الروح الشهوانيّة التي كانت تقود أمّها، وتبثّ في جسدها الحياة، والرغبة، والنشوة، وكانت غريزتها حينذاك تقودها إلى مَن يصف لها جمال صدرها وملامحها، بعيدًا عن عمى موروي الذي كان يشعر بسخونتها فقط، من دون أن يصف جمالها. وكانت تقول إنّ الكلام المعسول يخرج الأفعى من وكرها، ويجعلها رمزًا

للسلام، والمرأة تحتاج إلى الرومانسيّة والغزل أكثر من حاجتها إلى أيّ شيء آخر.

ماجت بجسدها مستلقيةً على طرفها، وهي ترسل نظرات داعرة إلى عيون جمهورها المنتشي. حتّى نغم التي كانت تعتبر نفسها محصّنة ضدّ أيّ نوع من أنواع الإغواء، باعتبارها ظلّت فريسة في مرحلة طويلة من مراحل عملها في البدايات ومفترسةً لفترة أطول، وجدت نفسها منساقة وراء إغواء جيمي، لأنّه كان إغواء فطريًّا، لا تمثيل فيه.

بدوره كان السيناريست يشعر بأنّه قد تعرّف إلى جسد جيمي بطريقة مّا، وأنّه تجاوز النظر إلى الممارسة، لكنّه لم يكن متأكّدًا ما إن كان ذلك صحيحًا أم تراءى له، وهو الذي كان في حالة سكر شديدة كصديقه المخرج.

انتقلت جيمي في السهرة التلفزيونيّة التي تشارك فيها، من فتاة بسيطة طيّبة إلى فتاة لعوب. كأنّ الدور الذي اختير لها في العمل هو الدور الذي يرسم لها في واقعها ومستقبلها.

توفّر لها رعاية نغم، نوعًا من الغطاء والحماية، إلاّ أنّها لا تقيها من الشرور التي تتحكّم في سوق الفنّ. ولا تكفل لها الاستمرار لفترة طويلة على المنوال نفسه. لا بدّ لها من أن تبتدع أساليبها الخاصّة بدورها، وتحسن تقدير الزمان والمكان المناسبين لتقديم التنازلات. أي أن تُبقي الإغواء مرشدها وحاميها في الوقت نفسه.

من مزايا الإغواء الأنثويّ أنّه يوهم بالسهولة، في حين أنّه يستعصي على السيطرة. ما إن يحاول المرء تطويعه ومحاولة القفز ما بعده، حتّى يشعر بأنّ كلّ شيء يتبدّد، ويجد نفسه يعكّر نشوة الإغواء

وسحره. تكون حاله أشبه بحال مَن يحاول القبض على جرعة ماء في كفّه، والاحتفاظ بها، في حين أنّ الماء يندلق ويتسرّب من بين أصابعه، ولا يكاد يبقى له إلا البلل، أو قطرة عالقة تنحدر بدورها إلى مستقرّها.

سيحرص المخرج على إبراز الوحدة الوطنيّة في عمله. سيخصّص جملة تقولها الشخصيّة التي ستؤدّيها جيمي، بالكرديّة، وهي تمثّل الاتّصال بأهلها في الريف، رافعة صوتها، كمن يصرخ، فتلك هي العادة المصاحبة للاتّصالات الواردة من أماكن بعيدة.

تبدأ بسيطة وتنتهي متجبّرة متحكّمة. تنزع عن وجهها قناع البساطة والبراءة، لتضع أقنعة أخرى تظلّ مرافقة لها في حياتها الحقيقيّة أيضًا. سيكون الدور الذي يختاره لتؤدّيه هو المعلّم التاريخيّ لها، يفوق تأثيره فيها أيّ تأثير آخر. من النظرات الشهوانيّة التي تتبعها أثناء بحثها عن عمل، إلى تمثيل الحنان، وصولًا إلى الإغواء وشهقة السرير، ثمّ استبداد الأنوثة، ولعبة التجبّر والسيطرة.

جسدك ليس ملكك في عالم التمثيل. عليك أن تتقمّصي الدور، وتنسي شخصيّتك الحقيقيّة في عتمة البيت وعزلته. سيتناوب على تلبيسك وتجميلك وتجهيزك عدد من المساعدين، في مرحلة الإعداد للدور. يؤدّون عملهم برسمك بما يلائم دورك المحدّد. عليك أن تتركي لهم شؤون إدارة تفاصيلك.

تقاطعت كلمات المخرج مع كلمات نغم، حين كانت تسرد لها وصاياها، أو جانبًا من خبرتها وتجربتها في عالم الفنّ. تتذكّر أنّها كانت تنعت الفنّ غالبًا بالهابط. وتكرّر بأسى لنفسها، وكيف لا

يكون هابطًا في أجواء كهذه..!

ستحفظ جيمي الوصايا وتحاول الالتزام بها، مع إفساح المجال لغريزتها كي تقود تصرّفاتها وحركاتها في كثير من الأحيان. وما ستحرص عليه أكثر من أيّ شيء آخر هو الإبقاء على نيران الإغواء مستعرة، وإبقاء جمر الإيحاء بالوصال متّقدًا في العيون، لكن مع فصل بين السلطات التي تمسك زمامها بيدها، تشريعيّة وتنفيذيّة وقضائيّة، كما جاهدت نغم لتعليمها.

كان تقسيم نغم للسلطات مختلفًا عن غيرها، تقول إنّ الوقائع شرّعت لها أساليبها، وقضت لها باتّباعها، وما عليها إلاّ تنفيذ رغباتها وسياساتها. وقد ابتلعت السلطة التنفيذيّة عندها السلطتين الأخريين وقضت عليهما، وأبقتهما وجوهًا للقباحة، وهياكل للزينة فقط.

نكتة الإيثار

كان بريندار؛ بطلي المشتهَى، قد ترك المدرسة باكرًا، قبل أن ينهي المرحلة الابتدائيّة. لم يتحمّل ما كان يصفه بغباء المعلّمين واستغباء المناهج له، يقول إنّ السوق أعظم مدرسة في الحياة، وإنّ المجالس مدارس. وهو بذلك يوازي خرّيج أهمّ جامعة في العالم، لأنّه نهل علومه واكتسبها من مدرسة الحياة وتجاربها.

لم يفقد حسّ السخرية. كان يقهقه بصوت عالٍ حين يتذكر تلك الحكاية الواردة في منهاج أحد الصفوف الابتدائيّة عن الإيثار. وما كان يضحكه أكثر طريقة تفاعل المعلّم معها، وتكليفه لعدد من التلاميذ بتمثيل المشهد وإخراجه. ويؤدّي حركات ممسرحة، وهو يحكيها لجذب انتباه التلاميذ وجعلهم يعيشون الحكاية ويشعرون بها.

يصف أبطال تلك الحكاية بأنّهم ثلاثة أغبياء بلغوا درجة خطيرة من العطش، ربّما كانوا في صحراء، أو ما شابه، فقدوا حياتهم، لأنّ كلّ واحد منهم آثر أن يشرب غيره قطرات الماء التي قدّمت إليه، وهكذا قضى الثلاثة نَحبهم ولم ينجُ منهم أحد.

يؤكّد أنّ هذا غباء وليس تضحية أو إيثارًا. لا بدّ من حبّ الذات، وبعض الأنانيّة لا يضرّ ولا يسيء. كانت القطرات المقدّمة

لهم ستنقذهم، وتلك اللحظات كانت فارقة في حياتهم، وبينما كان كلّ واحد منهم منشغلا بتكريم الآخر، فقدوا حياتهم تباعًا. من أين لهم القوّة والجلد كي يجهدوا أنفسهم بالحديث وهم ينازعون الموت، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة!

كيف لأمثال تلك المناهج أن تخرّج أشخاصًا أسوياء! يقول ذلك ويضحك، ثمّ يضيف: كانوا يعلّموننا الإيثار في المدرسة، والأنانية في الواقع. الجوع الذي كان يفتك بالناس لم يكن يترك أيّ مجال للإيثار، بل كان يحرّض على ابتكار وسائل الاحتيال وتجويع الآخرين، أو سلبهم بعض ما بحوزتهم.

يتذكّر بريندار كلمات أبي محمود الذي كان يحنّ عليه، ويعامله معاملة رجل محترم، وكان يقول له إنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يخترع الشرور، يتفوّق على الشيطان نفسه في ابتكاره الأذى والإيذاء، وتربيته لوحوشه الداخلية وتهيئتها لمواجهة عالمه، يفعل ذلك وهو يخوض حربه الضارية ضدّ نفسه وكلّ من حوله، ضدّ ماضيه وحاضره ومستقبله، ضدّ أمكنته التي عاش فيها وتنقّل بينها.

تعامل بريندار مع «المساعد أوّل»، ولم يصبح مخبرًا لديه، كان يغتاظ من عناصره، ويبغضهم أشدّ البغض، لكنّه كان يصف تعامله معه بالشراكة، ويعتقد أنّه قد تجاوز مسعاه في توظيفه كمخبر حقير عنده، بل كان شريكًا له، وإن كانت الشراكة مجحفة في حالتهما.

ظلّ بريندار محتفظًا بعواطفه لجميلة، وكان يقدّر في موروي سلاطة لسانه، ويجد ذلك سلاحه لمواجهة الظلم الذي يطاله والغمز الذي يتعرّض إليه، يحترم فيه أنّه لم يصبح مخبرًا أو عميلًا، مع أنّه كان

من المرشّحين لذلك، وكان من الحلقات الضعيفة التي يقع اختيار «المساعد أوّل» عليها.

لم يكن موروي يحتاج إلى مزيد من الازدراء، فلطالما وضعته زوجته بهو في مواقف محرجة كثيرة، تغاضى عنها وتحمّلها نتيجة وضعه الخاصّ، ولم يكن ليوقع نفسه في مستنقع التجسّس على الناس، مع أنّه كان يعشق التلصّص باستراق السّمع، وكان يحاول تعويض عماه قائلًا إنّ قوّة العينين توزّعت على بقيّة الحواسّ، وإنّ لديه أذنًا مرهفة السمع، ولسانًا طويلًا، وعضوًا دائم الانتصاب مصوّبًا إلى أمّهات مَن يذكره بسوء.

ظلّ شعور الوحدة ملاصقًا لبريندار، فكان الشباب من حوله يتناثرون، كأنّهم يتبادلون نكتة الإيثار في ما بينهم، إيثار بطريقة معاصرة، لا من باب تفضيل الآخر على الذات وتقديم قطرات ماء له، بل من باب الهجرة والذهاب إلى المجهول.

كان أبناء جيله ومَنْ بعده يتساقطون على درب الزمن تباعًا، يلوذون بأرصفة الطرق في المدن الكبرى، ويبحثون عن الماء في ما وراء الحدود. فالبلدة تضيق عليهم وبهم. تقهر لديهم الحلم وتبقيهم سجناء أوهام صغيرة، وممارسات شعروا ببلادتها وعبثيّتها.

اختار درب الهجرة أيضًا، لكنّه لم يستطع الابتعاد كثيرًا. اكتفى بدمشق التي لجأ إليها موروي، وكثيرون من بعده، وكان يسمع عن تلك القرية المشكّلة بالقرب من العاصمة، القرية التي هندسها بطريقته. وكان أشدّ ما آلمه هو سماعه لخبر تزويج جميلة من رجل يكبرها بكثير.

ضاع ما جمّعه بريندار من أموال التهريب مع «المساعد أوّل» بطريقة مؤلمة، بعد أن طبّق عليه قانون التهريب التاريخيّ، فليس للنظام من صديق أو حليف. الجميع إمّا أتباع أو أزلام أو أدوات لا غير.

كان ذاك التاريخ منعطفًا في حياته. تمّ اعتقاله من جملة مئات الشّبان الآخرين. تفاجأ بالحقد الذي كانوا يكنّونه لهم. فتّحوا عينيه على حقيقة هويّته ووجوده. عُذّب بوحشيّة كغيره، وكان أحيانًا يُعذّب أكثر من غيره لأنّه محسوبٌ على شلّة «المساعد أوّل»، وعلاقتهما معروفةٌ للجميع.

كان السجّانون يطلبون منه ومن غيره أن يبصقوا على صور رموز الكرد، وأن يشتموهم. يجبرونهم على سبّهم، وإن رفضوا أو عاندوا ضاعفوا من التعذيب والعقاب. لذلك كان معظمهم يتعرّض إلى تعذيب وحشيّ مضاعَف.

هناك لم يعد الإيثار نكتةً تقال، أو كذبةً تروّج، كما كان عليه الأمر في المناهج الدراسيّة البائسة. كان بعض الشّباب يتبرّعون بدلًا من آخرين خانتهم أجسادهم فخارت في حفلات التعذيب المستمرّة. يذهبون وهم يوقنون أنّهم قد لا يعودون. وكان التشويه شغلهم الوحيد هناك.

لم يتشوّه بريندار جسديًّا، تحمّل التعذيب وتعافى من جراحه بعد أسابيع، وخرج مشمولًا بمرسوم العفو الرئاسيّ الذي صدر بعد شهور. كانت الحيرة تنهبه وتسكنه. لم تفارقه الصّدمة مُطلقًا. نأى عن الجميع، وآثر الوحدة، والتفكير في ما جرى ويجري. لم تدفعه تلك

التجربة القاسية إلى النّدم على أيّ فعل، بل نبّهته إلى حقيقة وجوده وهويّته. أراد أن يمنح نفسه فرصة للابتعاد كي يرى واقعه ومكانه بشكل أكبر، وكي يخفّف من القهر الذي يستوطنه.

لم يستطع البقاء في البلدة، وفقَد روح المرح التي كان يمتاز بها. وباعتباره وحيدًا، لم يتمّ اقتياده إلى الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، لكنّ الإذلال الذي عاشه في سجنه فاق أيّ تصوّر. كان السباب الذي يطال أخته المفترضة وأمّه الراحلة أشدّ إيلامًا من التعذيب نفسه. مع أنّه لم تكن لديه أيّ أخت، لكن مجرّد كيل الشتائم بتلك القذارة كان يؤذيه. وكانت عيناه تدمعان حين يتمّ شتم أمّه، وشتم قبرها أيضًا.

وعلى الرغم من اشتهار البلدة بكثرة الشتائم بين أبناءها، دون أن تخلّف ذاك الأذى في النفوس، إذ ترد في سياق المهازحة والتودّد، فإنّ شتائم عناصر المخابرات كانت جارحة إلى درجة مؤلمة، ولم يستطع تشبيهها بتلك التي كان يتبادلها الناس في السوق ببساطة ومحبّة.

شعر بالمرارة تتفاقم في روحه، وبالعجز يتعاظم في كيانه. تغيّرت نظرته إلى كلّ ما حوله. أقرّ لنفسه بحقيقة أنّ ما تعيشه البلدة هو احتلال منظّم ممنهج، وأنّه كان غافلًا عن الواقع وحركته، يتعاطى ببراءة مع المخابرات والشرطة التي تثابر على إذلال الناس وإبقاء الخوف مستوطنًا فيهم متغوّلًا يفتك بهم.

هناك تعرّض إلى محاولة التجريد من كلّ شيء، من الثياب، والقيم، والأخلاقيات معًا. أريد له أن ينسلخ عن كلّ ما كان يربطه بواقعه وبلدته وأهله وتاريخه، وهو الذي لم يكن متعصّبًا لأيّ انتماء، وكما لم يكن يدرك من قبل أبعاد وجوده أصلًا. كان عالمه مقتصرًا

على الوردة وبناتها، ومقيدًا بالتهريب ودهاليزه، بالسوق وتجارته، وبأجواء السهر والتسكّع. اكتسى كلّ ما حوله بالسواد، طغت العتمة على كلّ شيء. سكنه وحش ينهش أحشاءه.

أقرّ لنفسه بأنّ السجون مصانع الوحوش، أو المخصيّين. لم يشأ أن يكون وحشًا ولا مخصيًّا. أراد أن يمنح نفسه فرصة للتداوي والتعافي والابتعاد. وهيهات له ذلك!

اللقاء

إنّها الثانية عشرة والنصف ليلًا. مطر غزير لا ينقطع. يتناهى إليه زعيق من الشارع العام القريب، عاهرة تشتم نادبة حظّها، لاعنة كساد السوق وعزوف الزبائن عنها. لا أحاول أن أستطرد في وصف الحالة، ولا نبش الدواخل، واستنطاق الزمن، سأنتقل إليه؛ إلى بريندار ي وأتقمّص أحلامه وأوهامه.

في وحدته يحاول أن يتسلّل بأفكاره وخيالاته إلى البيوت من جدرانها، يتخيّل حال غرف النوم. شخير جارته يُسمَع من خلف الجدران، على الجانب الآخر يلهبه تأوّه جارته الأخرى. يستعين بيديه ليسكت صهيل الرغبة في جسده. لمح في سيّارتها عضوين اصطناعيّين بحجمين مختلفين، من تلك الأنواع التي تشتغل بالبطاريّة، ويمكن التحكّم في سرعة حركتها أيضًا.

يفكّر كلّ ليلة في عرض صداقته عليها في اليوم الموالي، لكنّه يحار في المقدّمات وسبل المصارحة. ويؤجّل الأمر إلى وقت آخر. وهكذا يمضي مستمرّا في تساؤله مَا إذا كان الأمر سيقتصر لديها على الاكتفاء بالعضو الاصطناعيّ، وتهميش البشريّ، واعتباره غير موجود، وتزبيل الرجال، على طريقة شربيكي التي أقسمت -بعد أربع حالات طلاق- أنّ كلّ الرجال زبالة، بل حاويات زبالة متنقّلة،

وأنّها لو اضطرّت إلى سدّ ثقب جسدها بالبارود فلن تلجأ إلى رجل أبدًا.

يظلّ المنزل المقابل له مضاء طيلة الليل، يتناهى إليه أنين خافت بين الساعة والأخرى، يتخلّله صراخ أحيانًا، كمن يستغيث من سقطة، أو يندب عزيزًا مفقودًا.

حين يخلع الليل رداءه يعود الناس إلى نفاقهم النهاريّ المعتاد. يستريحون من عناء مواجهة الذات، وقسوة الوحدة، وصراع الدواخل. كلّ امرئ يعود إلى غربته عن ذاته في محاولة للاندماج مع المحيطين به. يحاول مجاراة اليوميّ ومداراة الأسى المزمن لديه.

تعرّف إليها في بار الفندق الذي عمل فيه فترة مؤقّتة. جمعتهما الغربة والوحدة والوحشة والشوق إلى البلد. بادر إلى التعريف بنفسه عند التحيّة، وفق العادة التي لم يكن يلتزم بها عادة. وحين بادلته بذكر اسمها، كان لصوتها جرس موسيقيّ، ولاسمها إيقاع تردّد صداه في الذاكرة.

كثيرًا ما رأى صورتها تتصدّر أغلفة المجلاّت وصفحات الجرائد، مع أخبار مقتضبة عن أنشطتها وتحرّكاتها، أو حوارات معها. كانت نجمة في كلّ شيء. أنيقة في لقطاتها، كلامها مُدوزن محسوب، وابتسامتها معبّرة، في عينيها كبرياء، تتوهّج نضارة وتجدّدًا.

بدت مُحبطة، مُحطّمة من داخلها، لا مبالية في مشيتها، ببنطال جينز بسيط وكنزة سوداء قاتمة. لم يستطع الحزن الذي يغلّفها ويغرقها أن يخفّف من حضورها اللافت. بل زادها سحرًا وأناقة. كانت عفوية في حركاتها، لا مبالية بكلّ ما يجول حولها، تتحرّك بخفّة ورشاقة، مرتدية حذاءً رياضيًّا تتهادى به.

يشكّل السواد المحيط بعينيها دائرتين يشعّ عبرهما بريقٌ أخّاذ. نظرتها متحدّية، لكنّها مشوبة بالانكسار والإحباط.

يضحك من غبائه السابق، حين كان يطلق أحكامه العامّة دون تحسّب، كان يكتفي بالأحكام المسبقة التي يتلقّفها من خبر في صحيفة أو إشارة في قناة، أو إشاعة في الواقع. هذا في ما يتعلّق بالأخبار والمشاريع المستقبليّة والممارسات والسلوكيّات الماضية. أمّا في ما يتعلّق بالملامح والسمات فكان يحكم على شخص مّا من خلال شكله ولباسه بأنّه كريم أو حقير، داعر أو نبيل، جبان أو شجاع، وغير ذلك من التصنيفات الجاهزة المبوّبة في ذهنه، كما كان يحكم من خلال حركة مّا أو إيحاء بكلمة، يتمادى في تأويلاته وتحليلاته الغرائبيّة، ليوصل نفسه ومَن معه إلى قناعات أو نتائج غريبة، متغيّرة باستمرار. وكان من السذاجة أن يصف ذلك بالفراسة المتوارثة.

حاول أن يسيطر على استغرابه، أخبرها بأنّها أشهر من أن تعرّف بنفسها، وأنّ نجوميّتها تسبقها في كلّ الأمكنة. كان ذلك كفيلًا برسم ابتسامة على ثغرها، وتلألؤ عينيها. أعادت بحركة خفيفة حقيبتها اليدويّة الصغيرة إلى يدها اليمنى. تذكّر خاتمة أغنية لفيروز حينذاك، ودّ لو يصارحها بها، أو يطلب منها أن تغنّيها له بصوتها الشجيّ الساحر، لكنّه كرّر في قرارة نفسه البيت الشعريّ متخيّلًا موسيقاه: «نسيت من يده أن أستردّ يدي.. طال السلام وطالت رفّة الهدُب». على الرغم من أنّ السّلام لم يطل، ولا طالت رفّة الهدب، بل كان صريعَ صورةِ ماضٍ يوجّهه ويتحكّم فيه.

يقول لنفسه: «هنا، وفي هذه المرحلة، كلّنا متساوون في الغربة.

الغربة عادلة في ظلمها. هي كالطغاة تساوي بين المظلومين، وتعدل في القتل والاظطهاد. تصيبنا في مقاتلنا، تنزع عنّا البسمة والبهجة. تنتزع هدوء دواخلنا، وتبقينا متأهّبين دومًا لخطر وشيك قادم، ونحن ندري أنّنا في أتونها مُستنزفون».

تقدّم منها مدّعيًا أنّه يفسح المجال للعابرين، كي لا يقال عنه إنّه يتصرّف بهمجيّة في مدينة ترتدي أقنعة الحضارة والمعاصرة والحداثة. كان يودّ التقرّب منها أكثر، أن يتفحّص ملامحها، أن يستمتع بنبرة صوتها، ويغرق في لون عينيها، هي التي كانت تظهر كلّ مرّة بحلّة جديدة مثيرة، ترسم من خلالها ملامح الموضة القادمة للأشهر الموالية.

يواصل رسم البسمة المعبّرة عن التودّد والتقدير لها، يحاول أن يبدي نظراته إليها بريئة مراوغة.

البراءة مراوغة في كثير من الأحيان، يستطيع المرء عبر تمثيلها الوصول إلى الكثير من الأماكن الحسّاسة، وتحقيق الكثير من المرامي التي يصعب تحقيقها عبر سبل أخرى. البراءة انسلال وتغلغل وتملّك، وهي من الأسلحة المؤثّرة في حرب الحياة.

«الحياة حرب يا بني». يتذكّر هذه الكلمات ترنّ في أذنيه. يجاهد للتخلّص منها، والتصرّف بعفوية حقيقيّة لا متكلّفة، لكن يصعب عليه ذلك، هو القادم من بلدٍ زرع فيه نظرية المؤامرة من قِبل كلّ شيء على كلّ شيء. أصبح كائنًا بوليسيًّا كغيره دون أن يدري، ينظر إلى الأمور من معيار الأمن والتآمر، يدقّق في خلفيّات الأحداث، يحيلها إلى جذر تآمريّ. وقد شكّل هذا التفكير عبئًا عليه في الفترات الأولى، إلى أن أرغم نفسه على التخفيف منه، محاولًا ضبطه أو الحدّ

منه وحصره في الغرباء الذين يتعرّف إليهم، استبدل بنظرية المؤامرة نظريةً من اختراعه أسماها مسافة الأمان.

تقوم نظريته الجديدة على إبقاء مسافة أمان دائمة بينه وبين الأشخاص الذين يتعرّف إليهم، وحاول أن يجعل افتراضات النظرية سارية على علاقاته السابقة أيضًا، وجد فيها راحة له ولغيره، كان يتصرّف بموجبها، ويبقى قريبًا بعيدًا، لا يقطع تلك الشعرة التي تحفظ له وللآخرين نوعًا من الخصوصيّة والغموض. شعرة الربط، أو همزة الوصل، الفاصل الواصل بينه وبين الآخرين.

البراءة المراوغة، مسافة الأمان، أقنعة المواقع والمواقف، أسلحته في حرب الحياة. كان يضيف باستمرار بعض التجديد والخصوصيّة إلى الوصايا التي تمّ زرعها فيه، ويجاهد للتخفّف منها والتحرّر من إتلافها لروحه.

حاول أن يوجد شيئًا مشتركًا بينهما، ولم يكن ذلك يسيرا، لكنّه لم يعدم الوسيلة للتقرّب منها تقرّبًا عفويًّا. سألها عن مشاريعها القادمة، خمّن أنّ الحديث عن المستقبل قد يكون أقلّ إيلامًا من الحديث عن الماضي، وربّما يحمل في طيّاته التفاؤل والأمل، لكنّها قلبت شفتيها بنوع من اليأس الموغل في الإحباط.

أدرك أنّ هذه المحاولة قد فشلت، ولا بدّ له من سؤال آخر، من مراوغة أخرى. رأى ألاّ يسألها، بل أن يحرّض فيها رغبة الاكتشاف والسؤال، لأنّها تشعر بمركزيّة مطلقة في قرارتها، وترى في الآخرين وحركتهم الدائبة استمرارًا لمركزيّتها وإكسسوارًا لحضورها.

تحدّث عن حياته الماضية بتكثيف، ودّ أن يحرّض فيها الفضول

للتعرّف إليه أكثر. ذكر أنّه معجب بكثير من أعمالها. وأنّها تظلّ رمز الأنوثة والجمال في عيون الشباب من جيله ومن الجيل الذي قبله. حدّثها عن نفسها بصيغة الغائب. انتقد بعض غريماتها ومنافساتها. لفت حديثه عن أعمالها ومنافساتها انتباهها، لكنّه اكتفى بذلك، وادّعى أنّه يهتمّ بحديث المخرج المتصابي الذي كانت برفقته، خاصّة وقد انتبه لمحاولته الاستفراد بها، أو فتح حوارٍ هامس معها، بينما كان مشغولًا بردّ التحيّات والمجاملات. توجّه بحديثه إلى الجميع، وكانوا ستّة أشخاص جمعت بينهم المصادفة على أعتاب السجّادة الحمراء.

حاول أن يقدّم خدماته الممكنة لهم، بدأ بإيلاء الاهتمام للمخرج الذي زعم الانتقال إلى دفّة المعارضة، لأنّه مَنْ يدير دفّة المشوار، وقد أدمن قيادة الجماعة، والانتصاب في المركز. دغدغ مشاعر العظمَة فيه، أخبره بأنّ أعماله تشكّل إرثًا وطنيًّا في الدراما، وأنّه يستحقّ أن يكون مخرجًا في هوليوود، لأنّ لديه نظرته المجدّدة دومًا، والمختلفة عن الآخرين الذين ينحصر جلّ همّهم في تقليده.

سلسال ذهبيّ رفيع يلمع في رقبته، ويظهر من فتحة القميص، إذ ترك ثلاثة أزرار مفتوحة، في تشبّه منه بأبطال السينما، وبالمراهقين الذين يقلّدون الموضة، كان شعر صدره الأشيب يغطّي السلسال الذي يبدو ضيفًا غير مرغوب فيه في تلك المنطقة، وكان التنافر بيّنًا في تركيبة ثيابه، وترهّل جسمه. يرتدي بدوره حذاءً رياضيًّا، وبنطالاً أبيضَ من الكتّان، وقميصًا حريريًّا مزركشًا تركه منفلتًا فوق الحزام. تزيّن يده ساعة ضخمة لا تناسب جلده المنكمش. يبدو أنّه في صباه كان أطول ممّا هو عليه حينها. أمّا شعره الرماديّ فقد تركه

دون صبغة، كي يجتذب به أولئك اليافعات المهووسات بتاريخه، والطامعات في تسلّق ظهره، وإن اضطررن إلى الاستلقاء له على ظهورهنّ، لأنّ طموح الوصول إلى النجوميّة يفرض عليهنّ كثيرًا من الاستلقاء، وهذا مُتفشٍّ ورائجٌ في الوسط الفنّيّ المنعوت من قِبَلِ المشتغلين فيه بأنّه متفسّخ متهتّك موبوء.

إثر ذلك، التفت إليه وطلب منه بعد رسم بسمة على شفتيه أن يبقى على تواصل معه. كانت تلك الحركة إيذانًا بقبوله بين رعيّته، حسب ما ظنّ، وحسب ما حرص الآخر أن يوهمه. أخذ بطاقته، وكتب له رقمه وعنوانه. شكّل تبادل العناوين فرصة ليسألها عن عنوانها أو رقمها، بعد أن كتب لها رقمه وأعطاها إيّاه، واطمأنّ إلى أنّها حفظته في هاتفها.

لم يكن المخرج يظهر دون رفقة امرأة ساحرة. كانت برفقته شابّة فاتنة تبدو أسيرة لرغبتها في الشهرة، وهي تتأبّط ذراعه، ولا تفارقه. تبدو عليها سمة الغرور، ترقص عينها باحثة في كلّ مكان، كأنّها تنبّه الآخرين إلى أهمّيّة مَن ترافقه، وإلى أهمّيّتها المستقبليّة ونجوميّتها الموعودة. بدا عليها أنّها تعرف قوانين اللعبة في ذاك الوسط، وهي استغلال كلّ طرف للطرف الآخر بحسب الحاجة، ثمّ الانتقال إلى أطراف أخرى، فكُلُّ واحد بالنسبة إلى الآخر محرمة ينتهي دورها بحسب الفعاليّة، قد تكون صالحة مرّة واحدة أو بضع مرّات. أمّا هي فكانت مقرّبة منه وتعيش دور تلك الفتاة التي تمشي معه. لم يرد الخوض في التأويلات أيضًا، كان يؤجّل غريزة التأويل إلى حين الانفراد بنفسه ليلًا، كي يسترجع اللحظات والدقائق والتفاصيل،

ويخطّط لما يمكن أن يبادر به.

منحه المشي بشكل ثنائيّ فرصة رائعة لمرافقتها، استمتع برؤيتها عن قرب، ومن كلّ الجهات، كان يوهمها أحيانًا بأنّه يفسح الطريق لقادم أو عابر كي يؤخّر نفسه عنها خطوة، لعلّه يستمتع بمنظر مؤخّرتها، أو جسمها من الخلف، كان يتبلبل بين تفاصيلها الجماليّة، ولا يستطيع التحرّر من نظرته السابقة القارّة في ذاكرته عنها، يتخيّلها في أحد أفلامها تمسك الشرشف وتحاول أن تغطّي به صدرها المكشوف، أو تسدّ الباب لتخلع ثيابها، والكاميرا تتبعها من رجلها حتّى الفخذ، وتبتعد بعد ذلك إلى مشاهد أخرى، وتبقيه في لهفة وتخيّل لما يتبع تلك الحركة من إغواء وسحر وإغراء.

كان يدسّ سموم المدح والتعظيم في ثنايا روحها المحبطة. لاحظ أنّ حالتها تغيّرت قليلًا، وأنّ هناك نشاطًا مّا تسرّب إلى مشيتها، ارتسمت ابتسامة على محيّاها، وتراقص الشوق من عينيها إلى نجوميّة كانت تتخيّلها في محنة الأفول. حاول أن يرسل إليها كثيرا من الشيفرات. حرص أن يبقي جسرًا من التواصل بينهما، مع حرصه الأكيد للإبقاء على مسافة الأمان الواجبة، فاكتشاف الآخر أو كشف وسائله قد يشكّل سببًا للابتعاد عنه والنفور منه في بعض الأحيان، وخاصّة في البدايات.

بعد دقائق من الحديث الذي سرّب إليها فيه الكثير من المدح والتمجيد بماضيها وتأثير جمالها -بشكل محسوب طبعًا- والتأكيد على استمرار تألقها وتأثيرها، انسلّ إليها نوع من الابتهاج، ولا سيّما أنّ الإطراء فخّ للنساء، ودرب للوصول إليهنّ.

تلقّى المخرج مكالمة قرّر إثرها المغادرة بعدَ أن شدّد عليه بوجوب التواصل معه، وبالغ في تعظيمه، وتحدّث له عن روح الأمكنة، وعظمة الأشواق إلى تلك الأرواح المفارِقة، الأرواح التي تسيّر الحياة وتتحكّم في المصائر، منتهيًا بالتأكيد على ندرة أعماله ونكهتها الخاصة.

سألها عن مخطّطاتها القادمة، كانت حائرة وحزينة. لمح في عينيها تيهًا وبحثًا عن نوع من الأمان. بدت له غامضة بشكل غير معقول، وفي الوقت نفسه مكشوفة بطريقة عجيبة، تثير في النفس مشاعر متناقضة، مزيجًا من الشفقة والإثارة والتوجّس والإعجاب.

قرّرت الذهاب إلى الشقّة التي استأجرتها حديثًا، ذكرت له موقعها، وطلبت منه بحركة مراوغة بريئة أن يبقيا على تواصلٍ، حيّرته تلك الحركة، وبما أنّه من مغرمي تلك البراءة المراوغة، ومقترفيها، فقد حار أكثر، ولم يتمادَ في تأويله. ولا سيّما أنّ المخرج أيضًا قد أعلن له عن رغبته في التواصل معه. قال لنفسه إنّ هذا ليس إلاّ نوعا من الإتيكيت بين الناس لكنّ كلّ واحد منهم في الحقيقة لا يتوقّف عن إهمال الآخر في غمرة المشاغل والالتزامات.

توادعا وسيل من الأسئلة المتلهّفة يجتاحه، بركان من الشوق الكامن لجميلة يتفجّر في داخله. نغم جسره النفسيّ إلى جيمي.

ابتسم وهو يتخيّل ردّة فعل نجلاء فتحي حين تسمع خبر لقائه بنغم التي تعبدها. ونجلاء فتحي هي فتاة طيّبة في الحارة، ابنة البقّال شيخان، وقد أطلق عليها هذا اللقب لأنّها كانت تصرّ على شبهها بنجلاء فتحي، حتّى صار الجميع ينادونها بهذا اللقب. يتخيّلها وهي توصي بلهفة جميع مَن يسافر إلى العاصمة بإيصال سلامها وحبّها إلى

جميع الممثّلين والفنّانين، وكأنّه سيكون في استقبال الذاهب إلى هناك لعيادة طبيب أو أيّ عمل طارئ، وفدٌ كاملٌ من الفنّانين.

أخبرها بشيء من اللؤم أنّه سيكون موجودًا لفترة هناك، ومتفرّغًا تمامًا بعد أسبوع. ودّ أن يبلغها بذلك رسالتين، الأولى معلنة أخبرها فيها بأنّه في خدمتها إذا احتاجت إلى أيّ شيء، أو إذا خطر لها خاطر فسيكون في استقبالها. أمّا الرسالة الثانية المضمرة، وهي الأهمّ بالنسبة إليه وإليها، فهي أنّه سيكون بعد فترة على أهبة الاستعداد والتفرّغ، إن هي أرادت.

ولأنّه أدرك أنّهما في مدينة ينشغل فيها المرء عن نفسه، وفيها تتفشّى الغربة في كلّ الزوايا والأركان، فقد راهن على منسوب الغربة والوحدة لديها، ولا سيّما أنّه قد مرّ أكثر من شهر على وجودها في المدينة التي تتبدّى موحشة كئيبة بدورها.

وعلى الرغم من رغبته الشديدة في البقاء معها، أو في إبقائها معه، فقد غالب نفسه، وهدّأ إلحاحه، كي لا تخشاه، خاصّة وأنّ هذه النوعيّة من البشر تتوجّس كثيرًا من الآخرين، وتبقي نفسها في دائرتها المحيطة بها، تحسّبًا لأيّ طارئ مداهم. ولديها أيضًا مسافات أمان واجبة، وحقول ألغام موقوتة تفصلها عن الآخرين، وتبقيها في مأمن عن الاحتكاك اليوميّ المُضرّ بنجوميّتها.

مسافة الأمان التي يلهج بها، نظرية يمارسها ويلتزم بها كثير من الناس في تعاملاتهم الحياتيّة. أدرك ألاّ جديد تحت الشمس، وأنّ ما يأتيه قد أتاه من قبله كثيرون، لكن تبقى المحاولة ملح الأرواح، والرغبة في الاكتشاف جمرة مستعرة تقضّ المضاجع.

جبل الأشواق

يحكي بريندار أنّه كان ينتظر الإشارة ليبحر مع المبحرين في قوارب الموت.. وأنا معهم.

قهقهتْ عندما سمعت استقباله الشعريّ لها، وترنّمه بجمالها. ارتمت في حضنه وقالت: «لن أعفو عنك يا شاعري بهذه البساطة، سأخلع عنك الأردية كلّها، سأغطّيك ببردة الأشواق».

سلاطة لسانها أخرجتها من دائرة الحماية، ولم يعد جمالها قادرًا على تأمين الغطاء لها. هي متعلّقة بدمشق بشكل رهيب، دمشق بالنسبة إليها جبل الخلود، المدينة الكاملة التي تسكنها، لكنّها لم تعد قادرة على البقاء هناك.

«المدن نسكنها، لكنّ دمشق تسكنني. ياسمينها معرّش على روحي بخضرة دائمة، وعبق فوّاح». كرّرت ذلك أكثر من مرّة، كأنّها كانت تؤكّد هذه الحقيقة لنفسها.

أمضيا ساعات في سرد الذكريات. هي من النوع الذي يعشق المشي، وهو مشّاء بدوره.

أخبرها حكاية طريفة حصلت معه، حكاية متعلّقة بالمشي ودمشق وبفتاة تعرّف إليها هناك. هو يعيد رسم المشاهد والاعترافات والتخيلات. يعترف لنفسه بأنّه أراد أن يبثّ بعض البهجة في روحها

ليستمتع بارتسامة البسمة على شفتيها الكرزيّتين. حكى لها معاناته حين ودّع فتاته تلك الليلة الماطرة.

بعد أن جُبنا شوارع دمشق بضع ساعات، فاجأنا المطر التشرينيّ بجماله وسحره. آثرنا الاستمرار في المشي، والاستمتاع بليل دمشق الماطر. كانت تغنّي لي أغنية من التراث الشاميّ، تتغنّى بعبق الشام وسحرها، تناجيني وتتأوّه: «آه يا أسمر اللون.. حبيبي الأسمراني..». وأنا أتذكّر تغنّجها ودلالها حين تلوّيها وغنائها.

يدها تدفئ يدي، تتسرّب قطرات المطر، تمتزج مع الشوق المتجدّد، تثير فينا الشهوة والمتعة. كان مطرًا مُسكِرًا. أغرقني تمامًا، وحين أوصلتها إلى زاوية الخطر وفق ما كنّا نسمّيها، حيث ينبغي أن أعود من هناك كي لا يراني أحد الجيران، حضنتها تحت الشجرة، اخترت نقطة معتمة كي ألتصق بها أكثر وأشعر بها مضمومة في حضني. تلبّسني توق المرعوب من الفراق. أضواء سيّارة قادمة من بعيد غافلتنا، وأجبرتني على إفلاتها من بين يدي، ابتسمت متظاهرة بالسعادة، قائلة إنّ السيّارة أنقذتها، وإلاّ لكنت قد كسرت عظامها بضغطي عليها وأنا أضمّها.

نزلت من طلعة شارعها، اخترت إكمال المشي، لا حبًّا في المشي هذه المرّة بل رغبة في العثور على زاوية أفرغ فيها مثانتي. كان حرّاس كثر يملؤون الحارات ومداخل البنايات هناك. المنطقة محفوفة بالمخاطر، ومثانتي لا تمهلني الكثير من الوقت. ارتأيت إفراغها رويدًا رويدًا وأنا أسير بتؤدة وهدوء. نفّذت الأمرَ، وكأنّ المثانة كانت تتولّى مهمّة التفكير. انسلّ خيط دافئ في بحر البنطال الغارق

في ماء المطر. امتزج البول بالماء. أدفأني لكنّه لم يكن لينتهي. وصلت إلى مدخل أحد البنوك، تظاهرتُ بإدخال البطاقة لأستكشف الحساب، وفتحت السحّاب ليقفز ما تبقّى وينسلّ إلى داخل البنك. ارتعشت رعشة طويلة نسبيًّا مقارنة برعشة البول المعتادة. ابتسمت وأنا أقول لنفسي: «هذا غسيل أموال، وهذه العملة الصعبة أُضيفت إلى رصيدي عندكم».

حكى لها الواقعة فارتسمت بعض ملامح البهجة على محيّاها. ثمّ فجأة قهقهت وهي تقول: «الذاكرة خطيرة ومراوغة وهي ملاذٌ آمن لنا في ملاجئنا، ومصدر قُوتنا وقوّتنا».

أخبرها أنّ كلّ شيء كان مختلفًا في تلك الليلة، فقد رجع كديك ينفض الماء عن ريشه إلى المنارة التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن مركز المدينة.

كأنّني انتقلت من قارّة إلى أخرى. طريق المطار موحش كئيب. هادئ إلى درجة مرعبة. كانت حاويات الزبالة مقلوبة في منتصف الشارع العام في البلدة، ينبعث منها الدخان. ورائحة الإطارات المحروقة تعمّ الأجواء. آثار فوضى وخراب تُغرق ساحة البلدية الصغيرة. فوارغ الرصاصات تملأ الأرض. كانت رائحة الموت ورعب التدمير في كل شيء.

كأنّ المشهد خارج من فيلم رعب. لم يكن في الشارع أحد غيري. سارع السائق بالعودة، لم ينتظر أن يحمل معه أيّ راكب، لأنّ الجوّ كان ينذر بفجيعة. دخلت الشارع الفرعيّ، احتميت بالعتمة، واستعجلت في سيري. وأنا أهمّ بدخول البيت، حيّاني جاري من

وراء نافذته، أخبرني على عجل بسرّ الهدوء المخيّم على البلدة. إذ مرّت إحدى الدوريّات وأطلقت النار بشكل عشوائيّ في الشارع، فقتلت رجلًا وابنه أمام محلّ الحلوى.

بعد تلك الليلة بدأت رحلة التشرّد بين مدن البرزخ.

الذاكرة تستدرجنا نحو بقاع مؤلمة. أحاول التخفّف من ثقلها وعبئها. أبحث عن بعض المواقف المبهجة التي من شأنها إسعافنا في تبديد الحزن الذي وجدنا أنفسنا غارقين فيه ونحن نتذكّر لحظاتنا السعيدة.

في غمرة السعادة تجتاحنا الأحزان، وفي بحر الحرب يمكن التعثّر بمشهد يبعث الأمل والتفاؤل. الجبل كان ملاذنا وملتقانا. دمشق كانت ملحَ لقائنا. تفاجأت بنفسي متعلّقًا بها إلى ذاك الحدّ.

كان الوضع مختلفًا بالنسبة إلى كثيرين، فدمشق تستوعب الكلّ، وتغربلهم. لديها مصفاتها المنقّية، تحتفظ بمَن يستحقّ، وتلقي بالآخرين في بردى. تكتّمت دمشق ولم تسلّم مفاتيحها كاملة لغزاتها، ظلّت تقاوم بمدنيّتها وعراقتها وامتصاصها للصدمات، وترويضها للوافدين والمحتلّين.

تذكّر تفاصيل اللقاء في بيروت. يقول إنّ الجبل احتضننا وأطلق فيض أشواقنا المستعرة وآلامنا الكامنة. الجبل عشقنا، وهي التي يلتصق بها الجبل كصفة ملازمة لسلالتها وبني جلدتها، منحدرةٌ من حصون الجبال ومتعلّقة بفرَادة الجبال ورسوخها وحمايتها، وأنا أيضًا يشكّل الجبل لي تاريخًا من التجذّر والوجود، ولا سيّما ونحن نردّد أنّه لا صديق لنا سوى الجبال، نلوذ بها كلّما داهمنا عدوّ أو وباء أو خطر.

شكّل الجبل لكلينا حماية تاريخيّة وتحصينًا مرحليًّا وأمانًا مستقبليًّا.

تجرّعنا معًا أشواقنا. مهّد الجبل لصنع ذكريات جديدة، تكون فيها دمشق زائرتنا البهيّة، وفاتنتنا المشتهاة. حضنتها بكلّ وجع المشتاق. «تمهّل». قالت لي، وهي تضغط جسدها على صدري أكثر.

صمتت الألسن وباحت الأجساد بشكواها ونجواها وأشواقها. كان كلّ ما جمعنا قبل ذلك، الملامسات السطحيّة والقبل السريعة المسترقة، والمداعبات من تحت الطاولة، أو اختلاس قرصة شوق من الفخذ أو المؤخّرة أو الصدر. في الجبل تفجّر بركان الجسد، وألقى بحممه على الروح. انتفضنا مرّات ونحن نتهاوى تحت سياط اللذّة. كانت المدينة بأضوائها المتلألئة التي تلوح عن بعد تلقي بالنشوة والسّعادة في طريقنا، وتسفر لنا عن جمالها الفضّاح، وكان ماؤها الذي يعكس الأضواء ويتكتّم على كثير من الأسرار منطلقَ مخاوفنا من الغد وما يليه.

-أختم بكَ رجالي يا ساحري.

-أختم بكِ دائرة الجمال التي اكتملت الآن. سأحصّن القلب والروح أمام الرعب القادم.

كان وعدًا ككلّ وعود العشّاق في لحظة الذروة والنشوة.

أعلم علم اليقين أنّها لن تكون آخر مَنْ أمارس معها الجنس، وأنّي سأبدأ بعدها برسم دوائر كثيرة، تختلف في الحجم والنوع عن الدائرة التي كانت لها وحدها، ومثّلت فيها المركز وجميع الخطوط، كما كنت أعلم أنّها ستُسحَر برجال آخرين، تفتح لهم زاوية مواربة

من قلبها تمهيدًا للإبحار معهم في رحلة الجسد، رحلة البحث عن الياسمين الدمشقي المنشود.

وعود العشّاق بروقُ الخريف، أو رعود الربيع. بقدر ما تبدو مفصليّة وحاسمة، فهي تمضي بسرعة. قد تحرق أحيانا، لكنّها تكتفي بالضجيج وافتعال الحالة معظم الأحيان.

لم يذهب الصباحُ السكْرَة والنشوة اللتين عشناهما حتّى الانطفاء. بثّت الشمس فينا رغبة جديدة، أنضجتها رائحة القهوة، وقطفنا ثمارها أمام النافذة على مرأى من الغابات والأشجار المحيطة بنا. كان الجبل يتواطأ معنا. يسحرنا وننقاد له.

بدونا كسكّيرين عربدا في ملاهي المدينة حتّى الصباح وأضاعا طريق البيت. تزوّدنا للقحط القادم بصُرَر ذكريات نحملها على ظهورنا كأنّها صلباننا نقاطع فيها الألم واللذّة، الغربة والنشوة. نحمل أسئلتنا ونسيح بها في المدن.

الأسئلة تحرّض العقول على البحث عن إجاباتٍ لها. وهذه الحياة مغامرة على كلّ حال. غامر أو غادر. مقولة مختصرة، ولكنّها تحدّد لك خطوط التقدّم ومجالات المناورة.

جرح مفتوح

أعود إلى تخيّل الاعترافات وبناء صروح حكاياتي على أساسها. أرسم لبريندار أفكاره وأستدرجه إلى عتمتي وأبوح لنفسي بما أفترض أنّه سيبوح به لنفسه ولي.

أحمل جرحي المفتوح وأمضي به إلى غدي المجهول. اسمي الجريح؛ بريندار، صدى لهويتي المجروحة. لم أبحث لنفسي عن تبريرات لما قمت به، كنت أختار ما أصادفه في طريقي. أصبحت شريك زوج برازق برغم احتقاري له، وتأخّرت حتّى اكتشفت احتقاره لي أيضًا. كانت مشاعرنا إزاء بعضنا متبادلة، المصالح جمعتنا وربطت بيننا.

دخلت متاهة الوردة وبناتها، استمتعت برفقتهنّ، ولستُ نادمًا. الندم اغتيال للماضي وتنكيل عبثيّ بالذكريات. ظننتُ أنّ الحياة ستمضي على الوتيرة نفسها، كنت في السوق سيّد نفسي، أو هكذا تخيّلت. أعلم أنّ هناك مَن كان يصفني بعميل «المساعد أوّل»، ومع الزمن اكتشفوا أنّي كنت شريكه، أو ربّما بقي بعضهم على شكّه أو ما تبدّى له يقينًا. كنت أتعاطى مع الأمور والأحداث ببساطة، لم أكن أتغلغل في طيّاتها، بقيت نزيل الهوامش، ولم أبحث عن الأبعاد الخفيّة والخيوط اللامرئية، تلك التي تحرّك الأحداث وتتحكّم فيها.

غياب الجوّ الأسريّ وضعني في دوائر من الضياع. كنت أبحث عن ذاتي وسط ركام السوق وآفاته. ظننتُ أنّني أتمكّن من ليّ ذراع الجميع بمغامرتي وعنادي. انتقلت في سلسلة من التعلّق أدّت بي إلى متاهة مفتوحة على جروحي الغائرة.

ما الذي قد يعنيه اعترافي لنفسي أو للآخرين وقد حدث ما حدث، وأنا الآن في انتظار القارب لأبحر إلى جرح آخر، لعلّي لا أكون فيه سجين اسمي وهويّتي وشكلي؟ ما الذي يجنيه المرء من اعترافاته سوى إثارة مزيد من الآلام؟ أتراني أتخفّف من أعبائي وألقي باعترافاتي هنا على شاطئ الأسى والهزيمة والانكسار لأمضي إلى الجهة الأخرى مطهّرًا جروحي ومداويًا أحزاني؟

يستعيد مرة أخرى تدرّجه وتنقّله من سوق الهال وضغوطاته، من نشاطه ومرحه، وسهراته وأنسه إلى سوق الجنس ودهاليزه، ثمّ الانتقال إلى سوق السلاح.

إن كانت المجازفة أساس الوجود في السوق السوداء فإنّ اليأس أساس ركوب البحر إلى الضفّة الأخرى. كنت ضمن مَن يوصَف ببحّارة البراري والسابحين في الجبال. اليوم أنا البضاعة التي تنتظر الشحن والتحميل. مجرّد رقم لا غير. المعادلة التي كنت أعتقد أنّها بسيطة ولا تحتمل أيّ تعقيدات حين كنت أظنّ نفسي وسيطًا ولي عمولة مناسبة كلّ مرّة، تغيّرت الآن، رقبتي تحت رحمة سكاكين مهرّبين متنفّذين هم بدورهم مساعدون لآخرين في الفتك بالناس ونهبهم.

كأنّي بدأت أفسد الأشياء بالبحث عن جذور خفية لها، أو دوائر متخيّلة قد تفضي إليها! ما كان كان، ولن يغيّر الاعتراف أيّ شيء.

كانت جميلة حلمي الذي أفسدته الأيّام، وعكّرت براءته. لم أشفَ منها بعد. أتابع أخبارها وهي تتصدّر الشاشات، إعلانات مسلسلاتها المثيرة تضعها في واجهة المرغوب فيهنّ. لا يهمّ أين ستمضي بها رحلة الشهرة، ولا كيف سيتمّ توظيف اسمها كفتاة كرديّة وجدت لنفسها حيّزًا في أعمال دراميّة. ستظلّ بدورها سجينة انتماء لم تعشه يومًا، ومكبّلة بهويّة يراد لها أن تكون كوّة للتعتيم على الهويّة نفسها.

شكّل السجن صدمتي الكبرى مع ذاتي ومع عالمي. أنا مدين للسجن بترميم جانب من شخصيّتي برغم تدميره لجوانب أخرى. ربّما يشعر بعضهم بالاحتقار تجاهي، أو بشيء من السخرية، وهو يسمعني أقول إنّني مدين للسجن، وربّما يحتقرني آخرون لأنّني لا أعلن عن ندمي على ما ساهمت به مع «المساعد أوّل» من عمليات تهريب. ما الذي قد يعنيه لي إعلان الندم؟ سيكون جرحًا آخر يفتك بي وينخر روحي.

منظارنا إلى الأمور يختلف من مرحلة إلى أخرى، ولا أجد نفسي مضطرًّا إلى تبرير أيّ عمل قمت به، أو أقوم به. أمضي خلف قلبي الجريح. إنّهُ صورة اسمي ولعنتي.

غليان

تسمّر أهل المنارة أمام نشرات الأخبار، كانت المشاهد الواردة من بلداتهم تثير لديهم شعورًا يستبطن نقيضه، يملؤهم شعور بالبهجة والفخر، وتجتاحهم رعشة وهُمْ يسمعون الهتافات، ويتمنّون لو أنّها تتحقّق، لكنّهم في الوقت نفسه يودّون أن تبقى المنارة هادئة، بعيدة عن الاحتجاج أو التظاهر. فهم يدركون أنّ كثيرين من أهلها من النازحين والفلاّحين، سيبقون على ولائهم للنظام، ولن يفكّروا في تحدّيه والثورة عليه.

كانت المظاهرات التي تنقلها الفضائيات من البلدة تثير الذعر في قلب موروي، يرتجف، يقول إنّه لا يريد سماع جنون أولئك الشباب الذين لا يعرفون ما يريدون. وكان صهره أبو مأمون يثور غاضبًا ممّا يوقع الناس أنفسهم فيه من تورّط، ولا يهدأ، يجري الاتّصالات مع قريبه نمرودو ويخبره بضرورة التحرّك لنصح الناس وثنيهم عن تهوّرهم.

أراد موروي أن يثني أولئك المتردّدين الذين كانوا يترقّبون حصول أيّ تطوّرات ليقرّروا البقاء في المنارة أو النزوح إلى مكان آخر، عن رغبتهم في الرحيل والنزوح. ذكر لهم التقدّم الذي أحرزه بعض الكرد في البلاد على صعيدهم الشخصيّ والعمليّ مستشهدا

بحالته وحالة ابنته جيمي التي تفوّقت وأصبحت مشهورة في العاصمة، و أيضًا أصبح هو غنيًّا بعد ما عاناه هناك.

سعى إلى تذكيرهم بأيّامهم السوداء في قراهم، وتحريض الحقد الباطن لديهم عبر استثارة ذكريات الأسى والفقر والجوع في قلوبهم، ودفعهم إلى التشبُّث بالمنارة التي حظوا فيها بنوع من الأمان وجمع كلّ واحد منهم بعض النقود، وتلمّس طريق الغنى والتملّك وتأمين مستقبل أفضل لنفسه ولأولاده بدلًا من تضييع العمر في البلدات المنكوبة والقرى المهجورة.

حذّر من انتقام النظام وبطشه، وذكر لمستأجريه أشكالاً شتّى من العقاب اعتمدها النظام سابقًا في البلدة التي اعتبرها مارقة ويجب أن تعاقب حارمًا أهلها من أبسط مقوّمات العيش مضيّقًا عليهم في البناء، والتعاملات الحكوميّة، ومجرّمًا إيّاهم جماعيًّا. ترافق ذلك كلّه مع دخول مظاهر مسلّحة إليها، واحتلال القطعان العسكريّة المجلوبة من الداخل لكثير من الأماكن العامّة والساحات والمدارس.

لم يلتفت إلى ما قاله ابن نورة الخبّازة من أنّ النظام تحسّس الخطر، وسارع إلى التخفيف من ممارساته العقابيّة وفكّ بعض القيود التي أثقلت كاهل أهل البلدة، فسمح ببعض الأمور البسيطة، في محاولة منه للحدّ من الاحتقان، لأنّه كان يرى الكرد نقطة مرشّحة للتفجّر وبؤرة خطر عليه، لذلك يحاول التحايل عليهم وتقييدهم مرّة أخرى.

تحدّى ابن نورة الخبّازة موروي وصهره أبا مأمون الكرديّ وقال:

- ألا تذكر أنّ النظام حين بدأت المظاهرات في دمشق ودرعا، التفت إلينا، وحاول استدراجنا إلى شراكه من جديد، أصدر

بضع قرارات من شأنها إعادة بعض الحقوق المستلبة، أصدر قانون الجنسية، وحصل بموجبه كثيرون من المجرّدين من الجنسيّة على الهويّة السوريّة. لكن ذلك لم يمنع خروج المظاهرات وتنامي الاحتجاجات، واستقى الناس دروسًا وعبرًا من تجارب ووعود كاذبة سابقة.

- يا ابن الخبّازة.. إنّهم يتصارعون على السلطة، وسنبقى أتباعًا؛ إنّهم لا يرسمون لنا في الصورة غير رجل الكرسيّ وحسب.

- يا عمّ موروي.. لا تتعامَ.. افتح عينك..

جاءت جملة «افتح عينك» عفو الخاطر، لم يخطّط ابن الخبّازة لجرح مشاعر موروي، أو الإشارة إلى عماه، بل أورد الأمر في سياق التنبيه، ولم يحاول تبرير تعبيره، بل كتم بسمته وأكمل فكرته:

- إنّهم يصفوننا برجل الكرسي، وهذا للتقليل من شأننا، والتأكيد على تبعيّتنا لغيرنا، وقد يفهم من ذلك أننا الأرجل التي حافظت على الكرسي في الفترة التي عصفت رياح الحرب به، لكن لا بأس سيكون لنا قرارنا، ولا يجب انتظار أن تُمنح لنا حقوقنا.

- لقد دفعنا ضريبة كبرى ولم نجنِ إلاّ الدمار والاستعداء والتخوين، إلى متى سنبقى وقودًا في حروب الآخرين.

- البلاد تغلي والتغيير قادم، ولن يجدي الانتظار والفرجة، علينا المشاركة في رسم مصيرنا، وعدم انتظار صدقة. علينا أن نمارس السياسة ولو مرّة واحدة في تاريخنا يا موروي، ولكن

ليس بالطريقة التي تظنّها أنت وصهرك. علينا أن نترك أدوار أرجل الكرسي، فلسنا عكاكيز لأحد.

طوبى لكم

أتذكّره في حالة الضياع التي سبقت هجرته التي كانت في الواقع هروبًا معلنًا من البلدة وألسنة أهلها..

كان يكرّر لنفسه أنّ البلدة المنكوبة تحوّلت إلى سجن كبير، حين برّر رغبته في الهجرة منها. كيف سيبرّر هجرته من بلدته الجديدة التي أصبح وجهًا من وجوهها، ومرجعًا للنازحين من أهلها، وهل سيقتنع بتركها بعدما أصبح سيّدًا وحظي بما كان يفتقده من التقدير؟

يتذكّر مواجهته مع «المساعد أوّل» حين طلب منه أن يكون عينًا له على أهل البلدة، وكم أضحكته تلك الكلمة. إذ ردّ عليه بأنّه يحتاج إلى مَن يعينه. فصحّح المساعد بأنّه يريده أذنًا له، ولا سيّما أنّه يتخلّل مختلف المجالس، وهو كثير التجوال، ولمّح له إلى بهو التي يعرف تفاصيل علاقاتها، وما توصَف به من كرَم من قبل شباب الحارة.

شعر بالإهانة تلسع روحه وتجلده، لم يرد أن يفقد ما تبقّى من احترام الناس له، وشفقتهم عليه، بأن يشتهر كمخبر عليهم، أو ناقل لأحاديثهم وأقوالهم إلى «المساعد أوّل»، وهو الذي كثيرًا ما كان يكرّر أنّ العهر الحقيقيّ هو تجسّسك على أهلك وأبناء بلدك لصالح الغريب.

لم يصمد لقب الحافظ أمام ألقابه الأخرى، كان يكره ذاك اللقب،

فهو يحيل إلى المساواة بين العميان وجعلهم طائفة واحدة، يلقّب كلّ أعمى بالحافظ، في إشارة إلى أنّهم يحفظون القرآن ليكون وسيلتهم للتكسّب والارتزاق، وهو ما لم يكن ينطبق عليه، لأنّه لم يستطع حفظ القرآن، ولا الارتكان إلى انتظار الصدقات.

كان لقبه الصامد كورو أو كويرو، ويعني الأعمى بالكرديّة.

يراقب النازحين وهم يحزمون أمرهم وحقائبهم، ويقرّرون الانتقال والنزوح إلى مكان آخر، هدفهم هذه المرّة ما وراء الحدود. يلعن موروي واقع الفقر الذي يجد الناس أنفسهم فيه، يبغض الفقراء الذين ليس لديهم أيّ شيء يخافون عليه، يلقون بقجاتهم على ظهورهم ويرحلون إلى أراضٍ جديدة كلّ مرّة.

كهررة تنقل صغارها بأسنانها، وتعضّ عليها برفق، يفعل النازحون بأبنائهم الذين يتنقّلون بهم بين الأمكنة والحدود.

يتذكّر موروي حالته حين كان في البلدة فقيرًا معدمًا، لم يكن أحد يحترمه، كان لسانه السليط ينقذه جزئيًّا من استهزاء الجميع به، لكنّه لم يكن يضمن له أيّ حماية أو احترام، كان لاذعًا، والسباب الذي يطلقه من دون تحسّب يكفل سدّ الأفواه عن لوْك سيرته وسيرة بهو أمامه. كان كلّ ما حوله يشعره بنقصه ودونيّته، وفي المنارة بات كلّ ما حوله يشعره بالرضى عن ذاته وإنجازاته.

يؤكّد لنفسه أنّ عيوب الفقراء بادية للعيان، وفاقعة، في حين عيوب الأغنياء تظلُّ صغيرةً غير مرئيّة، تحجبها الأموال عن الأعين، فبريق الذهب المتخيّل يبرّر لهم سيّئاتهم وأعمالهم، أمّا الفقراء يتشدّقون بالشعارات كي يسدّوا النقص الموجود لديهم.

يمعن النظر إلى نفسه في مرايا الآخرين وفي أحاديثهم عنه إذ تترجم صورته في عيونهم، صورة جلاّبيّته المكويّة، بلونها الفاتح، ولحيته المشذّبة وكوفيّته النظيفة، وكلّها من علامات فرض احترامه عليهم، وانتزاع تقديرهم له، والشعور بالنقص أمام هيبته وهيئته، وربّما إثارة الحسد حتّى من عماه.

كيف يتخلّى عن امتيازاته، وقد أصبح من قادة المكان الجديد وسادته؟ أسعفته موجة الهجرة وبلورت وجوده، كوّنت له شخصية جديدة، وضعته في مرتبة لائقة به وبما لديه من مهارات، وفق ما يحلو له أن يسمّيها. إلى أين سيمضي وكيف له أن يحقّق إنجازات كالتي حقّقها في بلدته الجديدة ؟

يصرّح بقناعة أنّ الرّاكض خلف المال لا دين له، دينه الوحيد هو الانسياق وراء المصالح والمكتسبات. والحديث عن الأخلاق والقيم في عالم المال والأعمال بمثابة الحديث للعميان عن الألوان. يحكي بمنطق الأغنياء، يرفض استخفاف الفقراء بكلّ شيء، ومساهمتهم في تعريض البلدة للدمار بمطالبهم التي يراها مستحيلة وسخيفة في الوقت نفسه.

كانت بهو في ما سبق تصفه بالضرير القبيح حين تستاء منه، لكن بعد أن انتعشت أعماله، وتراكمت أمواله، أصبحت تحترمه أكثر، تهتمّ بمنظره وثيابه، وتطلب منه زيارة الحلاّق للاهتمام بلحيته وشعره كلّ أسبوع.وهو بدوره نسي توصيفه لها حين كان يستاء منها بالقحبة العرجاء، بل بات يناديها بأمّ جميلة، ويحرص على ذلك حتّى في ذاكرته وداخله.

هنا هو أبو جميلة، أو الخال موروي، في حين كان هناك ينعَت بالأعمى فقط، ولا يتكلّف الناس مشقّة التعريف باسمه، كانت عاهته التي لم يخترها بطاقة تعريف يشتهر بها، والتعريف يكون من باب التحقير، حتّى أنّ الأعمى بات اسمًا له، ولم يكن الناس يتحرّجون من وصفه به وقوله على مسامعه بطريقة فيها من البراءة والبساطة ما يجعل الأمر محسومًا، ولا يقبل أيّ نقاش.

انتزع احترام النازحين رغم أنوفهم، تفوّق عليهم وهو الأعمى، قادهم في رحلة نزوحهم، صمّم لهم بيوتهم، أقرضهم الأموال، ورهن لهم البيوت، ساهم في تشغيل أبنائهم وبناتهم، غيّر عاداتهم، عمّم ما كان يعاب عليه من تشغيله لزوجته وبناته، دفعهم إلى اختلاق مبرّرات له في أحداث ماضيه، ولوم أنفسهم على ما كانوا يعيبونه عليه.

أمّا الوافدون الجدد منهم وخاصّة أولئك الذين قدموا من الأرياف النائية فقد اعتبروه مثالًا للنجاح في الغربة، كانوا يستشيرونه في أمورهم ومشاكلهم الحياتيّة، وقد يستعينون به في مناسبات الخطبة والعزاء، ليكون المتحدّث باسمهم، أو المفاوض والحكم في الوقت نفسه.

يدرك موروي أنّه حين تتخلخل الموازين وتتشكّل عوالم جديدة، تنقلب الأدوار، فقد يصبح أحد المهمّشين زعيمًا أو قائدًا، وقد تغدو له الكلمة العليا، والقول الفصل، في القضايا المستجدّة. لذلك كان هو أحد إفرازات الخلخلة الحاصلة سابقًا، ولا يضمن أن يستمرّ محافظًا على امتيازاته في الموجة الجديدة المفاجئة الداهمة. ويبدو أنه

كان مصيبًا في تخوّفه الدائم.

يتابع الأخبار التي تصله من هنا وهناك. يستمع إلى وشوشات الناس، يكتفي بالتحذير من القادم. يفكّر في بهو التي باتت تسكر بمجرّد أن تشمّ النقود، وتنتشي بأن تنثرها على جسدها، ترقّص صدرها وتغنّي لنفسها وهي تمارس متعتها في لمس النقود وعدّها. تقول إنّ لذّة النقود تفوق لذّة الجنس. تكرّر المثل القائل: «ضع الفلوس على طيز الخنزير يصير وزير».

ابنته جميلة ما تزال تشفق عليه بين الفترة والأخرى، لكنّه لا يستطيع أن يفرض عليها أيّ شيء، وهي التي استقلّت بحياتها وعملها، وقد كانت أساس قوّته المكتسبة. بهو تثقل عليه وتزيد همّه بثرثرتها، فلا هو قادر على أن يكون لها السند والقدم كي تتعكّز عليه وتمشي، ولا هي قادرة على أن تكون له العين التي تحلّل ما وراء الملامح والوجوه والأحداث والتفاصيل. فقدا تكاملهما السابق. وقعا في فخّ الارتباك، وارتهنا لمحنة النزوح المفاجئة.

أنا منجونة أغيب عن ذاكرته وواقعه.

بيوته التي لم يستكمل أصحابها ثمنها بعد تخلو تباعًا من قاطنيها، لا يطالبه كثير من المغادرين بنقودهم التي رهنوها لديه، ولا بتلك المبالغ التي دفعوها أقساطًا له، يحسب غالبيتهم أنّهم لو استأجروا بيوتًا لكانوا دفعوا ما يماثل تلك المبالغ أو أكثر. بينما يحسب موروي الخسارة التي يمنى بها، وهي تلك الأموال التي كان ينتظرها، لا تلك التي تحصّل عليها في إنشائه لقريته الموصوفة بعالم بزّق ولزّق.

أصبح عصبيًّا لا يطيق سماع أيّ شيء، كسر الراديو الصغير

الذي يستمع إليه، فالأخبار تفجعه وتحزنه. كره أصوات الشاحنات الكبيرة المتهافتة على البلدة، وهي تنقل أثاث النازحين وتعود بهم إلى مدنهم وقراهم هناك من حيث نزحوا.

يكيل الشتائم للنازحين الهاربين، يقول إنّ أثاثهم الذي يشحنونه ليس سوى خراء عفن متيبّس، ويتعجّب لاعتبارهم تلك الصناديق الخشبيّة المتهالكة والأدوات التعيسة أثاثًا يتشبّثون به، ويظنّون أنّهم يملكون أشياء قيّمة. يلعن جهلهم ويحسد في قرارة نفسه قناعتهم.

يبغض ذاكرته التي تعيده إلى أيّامه الماضية، حين لم يكن يملك إلاّ عصاه، وكان ملح المجالس، ويمنح أبسط الأشياء قيمة كبيرة، وحين أصبح ثريًّا وجد الأشياء تفقد قيمتها، وما عاد شيء يعجبه سوى الذهب الذي يظلّ محتفظًا بألقه وسحره وتأثيره.

لم يرَ لمعان الذهب ولا بريقه إلاّ أنّه يشبّه الأمر بالنشوة الجنسيّة التي عاشها، وهو يتخيّل ألوانها المحسوسة، وتلك طريقته في اختيار الألوان، كلّ لون يختار له حالة شعوريّة أو حسّية، لكلّ لون مذاقه المميّز عنده.

لم يعثر لما يشعر به على أيّ لون في ذاكرته الحسّيّة ولا الشعوريّة، تعثّر بنتف من المرارات في ماضيه، وهي كثيرة، واظب على تناسيها، لكنّها كانت أقوى من محاولات التناسي تلك، وظلّت متجذّرة في أعماقه وذاكرته.

ها هو على تلك الأرض الصلبة حيث صمّم خريطة القرية الجديدة بالإشارات التي رسمها بعكّازه، وجعل شوارعها مناسبة لحركته، فكانت أشبه بمتاهة، لا حيًّا محاذيًا للعاصمة، متاهة ليس

فيها أيّ مراعاة للتهوية أو الإضاءة بعد أن فرض تقسيمه ووزّع قطع الأرض بحسب حركته وذاكرته راسما أشكالًا للمكان ومحتفظا بخريطته الخاصّة في ذهنه ليستطيع التنقّل ببساطة وأريحيّة من دون أيّ عناء.

تنامى لديه بغض بهو التي اقترحت همسًا أن ينزحوا كغيرهم من النازحين إلى أحد الأمكنة التي يلجأ إليها الهاربون، ليبدؤوا من هناك، ولا سيّما أنّ لديهم أموالًا تكفيهم للتأسيس والانطلاق، لكنّه لم يتحمّل سماعها، لأنّها كانت تهمس بفكرة لم تقتنع هي نفسها بها، وهي التي كانت تشعر أنّها أصبحت بدورها مستشارة الحارة ومرجعيّة نسائها.

وبعد أن كانت الأرض صلبةً، بدأت تتزلزل تحت قدميه، شعر بالتصدّعات والتشقّقات تجتاح بيوته، هل هي انهيارات متخيّلة؟ هل هي أوهام وكوابيس؟ ما الذي يجري؟ أيعقل أن ينهار عالمه كلّه في لحظة واحدة؟ أيّ غول مجنون فتك به وغافله؟

أخذ المكان الشّبيه بالمتاهة يفقد معالمه، جدران تتهاوى من هنا وهناك، أسوأ كوابيسه تتجسّد أمامه. لم يكن يحسب حساب العواصف الجوّيّة ولا الأعاصير، كان يجد متاهته راسخة رغم معرفته بأنّها من دون أسس عميقة ضاربة في الأرض. فالطوابق التي راكمها من دون أيّ أساس متين مكتفيا بالاعتماد على الأرض الصخريّة أخذت تتهشّم كأنّ هناك قوّة تدوسها من الأعلى.

يشعر بنفسه حكيم زمانه، يظنّ أنّه يطلق العبر والحكم في كلّ الاتّجاهات، يتنقّل بين البيوت، يدقّ بعكّازه الجدران، يرفس الأبواب

المشرعة على الفراغ والفوضى، يصرخ مطلقًا شتائمه على الجميع، يجتاحه شعور بالخيانة، ويبحث لذلك الشعور عن لون مبتكر جديد، فلا يجد غير لون العمى.

كأنّما أصبح وحشًا، حين يضرب بعصاه على أيّ موضع فإنّه ينسفه، خلع ثيابه، ألقى بها من حوله على مواقع البيوت مناديا ساكنيها النازحين عنها، شاتما ومطالبا إياهم بأقساطه المتبقّية، وهو يقهقه ويدور حول نفسه ملوّحا بعصاه مهدّدًا ومتوعّدًا.

تتهاوى البيوت من حوله، وهو يدور في الساحة التي تطلّ عليها الأبواب، تلك الساحة التي أسماها ميدان أبي جميلة. تتطاير الشظايا بقربه. لا يكترث لشيء، يكمل رقصته الوحشيّة، ويقهقه، ويصرخ. يشير بعصاه إلى جهة الصوت من الأعلى، يرسم إشارة السخرية والاستهزاء، يرفع عصاه كمن يرفع إصبعه الوسطى أو السبّابة مؤكّدًا لغريمه أنّه قد نال منه وفتك به.

يلعن الجميع، يصرخ بأعلى صوته: «أنا المبصر الوحيد بينكم أيّها العميان».

عين المستشار

موشيه دايان هو لقبه الجديد، استعذبه أكثر من «المساعد أوّل» الذي كان يشير إلى صفة وظيفية لا غير، مع ما كان يرافقه من هالة سلطوية في البلدة، ورعب يبثّه بين الناس عند ذكْرِه. والمستشار صفة ينعتق عبرها من الجانب الوظيفيّ إلى ساحة أرحب، لا تكون لديه مهامّ محدّدة، في الوقت الذي يكون مكلّفًا بدراسة كلّ شيء، سواء المستجدات، أو الأحداث والوقائع، وإبداء الرأي فيها، ورفع مقترحاته وتوصياته إزاءها.

لطالما كان معجبًا في قرارته بموشيه دايان، وقد أشار إلى ذلك في كتابه السرّيّ، ووضع ملاحظات تشير إلى الأحرف الأولى من اسمه، كي لا يتورّط في كتابة الاسم الصريح. وإذا ما انكشف أمره فقد يُتّهم بالعمالة والخيانة، لذلك أبقى الأمر من أسراره الدفينة التي يستلذّ بها وحده، مع ما للسرّ من بهجة تدغدغ أسطورته الشخصية عن ذاته.

وضع ذاك الشريط على عينه المقتلعة. كان يزيد من شبهه الشكليّ بموشيه دايان، وكان العنف الطاغي على سلوكياته يزيده قربًا منه. تخلّى عمّا كان يسمّيه اتّزانًا في السابق، لم يعد يكترث لمظهر السلطة الناعم، وقناعها الحريريّ، ولا للتحيّات البليدة أو الابتسامات والمجاملات البائسة بعد سنوات من التقنّع. وكشّر عن شخصيّته

التي كان يحرص على إخفائها.

لم يعد ينظر إلى نفسه في المرآة، ساعدته الصلعة التي اجتاحت رأسه على ذلك، فلم يعد في حاجة إلى تصفيف شعره أو تسريحه، وقد رسم الشريط الأسود الذي يغطّي عينه اليسرى خطًا باديا ملفوفا على رأسه، لكنّه لم يكن ليأبه له، بل كان هاجسه متمركزًا حول تصفية حساباته.

مع ارتفاع بعض الأصوات في أطراف البلدة، وتسرّب أخبار عن كتابات على جدران المدارس، وبعض المؤسّسات الحكوميّة، شعر بأنّ عليه أن يتهيّأ للعهد الجديد الموالي، ويحاول التلوّن معه، وقرّر أن يكون تلوّنه بإظهار مزيد من العنف والشراسة في الدفاع عن سيّده، وفرعه، وعدم الاكتفاء بالمتابعة والمراقبة عن بعد، بل المشاركة باليد واستعادة اللياقة في استعمال زاده الأمني، وحسّه المخابراتيّ.

استعاد خيوط المكيدة التي تمّ تدبيرها قبل عقود في البلدة، عندما تمّ تلطيخ العلم الوطنيّ بالحراء وكتابة شعارات تهتف بحياة الملاّ مصطفى بارزاني، وحياة الأكراد، وتدعو إلى موت العرب وطردهم من البلدة، ووصف النظام بالمحتلّ، وقد مثّلت تلك المكيدة ذريعة للنظام كي يفتك بأهل البلدة. وظلّ ذلك قائمًا ومعمولًا به لعقود.

تذكّر كذلك ما وصفها بالمهمّات الخاصّة التي نفّذها، ولا سيّما تلك التي عبر فيها الحدود إلى الجهة الأخرى، وقام بتصفية ذاك الشيخ المتمرّد الذي ناصب نظامه العداء، وكان بؤرة تجييش ضدّه، وورقة مؤجّلة الاستعمال بيد النظام التركيّ. كما انتشى وهو يتذكّر إجهازه على أبي محمود وعلى تلك العجوز التي ما يزال يحقد عليها

حتّى بعد خنقه لها.

شعر بالامتلاء حقدًا وعنفًا، رضي عن ذاته وشعر بتفوّقه على محمّد طلب هلال، وعلى رئيس الفرع وعلى رئيسه نفسه، وجد في تماهيه الشكليّ والسلوكيّ مع موشيه دايان ما يحقّق نزوعه إلى ما يصبو إليه من تأثير. بدأ يضيق ذرعًا بالعمل المكتبيّ، وتحليل الأخبار والمعلومات، ورسم السياسات، ورفع التوصيات.

كانت الإبر التي يتعاطاها تمنحه شعورًا مضلّلًا بالقوّة، يجد نفسه فتى في مقتبل العمر، يقفز من نقطة إلى أخرى، يتخلّى عن توجّسه السابق، يطمئنّ إلى إنجازاته، يحاول تناسي تلك المرحلة التي يصفها بزلّة الشاطر، ويعتبر نفسه ذلك الشاطر الذي زلّ، وكان رقمًا يمكن التخلّص منه في معادلة التصفيات التي رامت السلطة عبرها ترميم جلدها، وترقيع بنيانها.

لن يقع في الفخّ السابق نفسه، لن يرفع أيّ توصية من شأنها أن تنطبق عليه بأيّ شكل من الأشكال. سيكون وفيًّا لنزوعه نحو إرواء براكين حقده على كلّ شيء. لا يعرف من أين ينهل حقده كلّه، لكنّه يدرك أنّ ذلك يشحذ همّته ويحافظ على وجوده.

لن يكتفي بالاستماع والقراءة والمراقبة والمتابعة كما كان. سيشترك في العمليات الخاصّة كسابق عهده. وعلى الرغم من تحذيرات زملائه له، خاصّة وهم يعرفون أنّه لن ينجز شيئًا في تلك العمليات، فإنّهم سايروه، وقبلوا بمشاركته الشكليّة معهم.

تفاجأ بنفسه يستصعب استعمال السلاح. وجد المسدّس ثقيلا على خصره، فوضع حاملة له وعلّقه على صدره، تحت الجاكيت،

وكانت مفاجأته أكبر حين وجده أثقل وهو في يده. يحاول تلقيمه وتصويبه، لكنّه لم يستسلم للمفاجآت، بل اعتبر الأمر صدمة أوّليّة طبيعيّة بعد عودة متأخّرة إلى العمل الميدانيّ، وسخر من نفسه لأنّ يده أصبحت ناعمة كأيدي الضبّاط، وهو الذي كان في قرارة نفسه يسخر من أيديهم الناعمة كأيدي الفتيات المدلّلات، ويتعجّب كيف يمكن لصفعاتهم على وجوه المساجين والمعارضين أن تكون مؤثرة ومؤلمة.

كان مظهره بين العناصر الشّابة يثير السخرية المكبوتة لديهم. فبذلته المدنيّة، والشريط الأسود الذي يغطّي عينه يجعلانه أشبه بمهرّج يبعث على الضحك ولا يرعب أحدًا. كان يعتبر نفسه رمزًا لامتداد السلطة والنظام، وتكريسًا لبنية الدولة التي نهضت على أكتاف رجال المخابرات. وقد جعلته معاصرته للعهدين يكرّر أنّه مخضرم كرئيس فرعه، وأنّه لا غنى للدولة عن أبنائها الأوفياء.

كان يحمل إبرًا احتياطيّة معه، بالإضافة إلى أدوية إسعافية، يختار من كلّ صنف حبّتين كي لا يثقل جيوبه، ولا يظهر أنّه حمّال أدوية، ولا عبئًا على العناصر التي تتطلّب الخفّة والمرونة والسرعة في الحركة والمناورة.

كم كان يكره منظر الدواليب المشتعلة في الشوارع ليلة النوروز، ولا يستطيع كظم غيظه ولا كتم غضبه من ذلك، وكان يتذرّع بالجانب الصحّيّ، وبأنّ الدخان يلوّث الأجواء، وفي الحقيقة تُفقده رمزية تلك النيران رشده رغم محاولته ربطها بما هو انبطاحيّ، لا بما هو ثوريّ.

يتذكّر مقترحه في التحايل على يوم 21 آذار، وإعلانه يومًا للاحتفال بعيد الأم بعد حادثة مقتل أحد الشباب في دمشق للمطالبة بالحقوق الكردية، وكيف وجد ذلك الإعلان تنازلًا موارَبًا من السلطة. كان حينها مندفعًا في توصياته، ولم يكن قد فهم لعبة التنازلات التي تلجأ إليها سلطته في مختلف المراحل، وهي تُسبغ شعارات الانتصار على الهزائم المتلاحقة، ولم يكن حسّه السياسيّ قد تغلّب على الأمنيّ بعد.

عاد إلى تقريع ذاته وكتب في دفتره «وصايا المستشار»:

«أوصي بضرورة تفعيل القبضة الأمنية وتسعير تلك النيران الشرهة ليعود عنصر المخابرات إلى سابق عهده في التصفية والفتك والتنكيل بمَن ظلّ يصفهم بأنّهم أعداء البلاد. هؤلاء هم أعدائي الشخصيّون ويجب التخلّص منهم».

مرّت الدوريّة بحلقة أطفال متجمهرين حول دواليب أوقدوها في منتصف الساحة التي كانت تسمّى ساحة الرئيس. أمر سيّارة الإطفاء المرافقة لهم بإخماد تلك النيران، وأمر الأطفال بالعودة إلى بيوتهم، وهدّدهم بأنّه سيعتقلهم ويضعهم في دواليب صغيرة ويجلدهم، وقد يحرقهم أيضًا إذا ما تمادوا في بقائهم، ورقصهم وغنائهم بالكرديّة هناك.

ترجّل من السيّارة وبدأ يكلّم الأطفال ويتوعّدهم، وإلى جانبه عنصرٌ آخر يحمل بندقيّته ويغطّي أنفه بمحرمة كي لا يستنشق دخان الدواليب الأسود الذي كان يغطّي سماء الساحة. ندّت عن أحد الأطفال صرخة احتجاج مفادُها أنّه لن يذهب إلى البيت، وأنّه

سيبقى في الساحة وسيغنّي، حتّى لو أطفؤوا النيران.

صفع المساعد أقرب طفل إليه، فوقع على الأرض، وكاد يقع بين ألسنة النيران، لكنّ أحد الأطفال سنده وسحبه، وكان ذلك إنذارًا للآخرين الذين ارتعبوا وانفضّوا رويدًا رويدًا، وابتعدوا قليلًا عن مركز احتفالهم الناريّ. وجدوا في اللحظة التي انطلقت فيها المياه من سيّارة الإطفاء بطريقة انفجارية لحظة مناسبة ليصرخوا ويهتفوا بالكرديّة.

ظنّ أنّ الأطفال يسبّونهم، عادت إليه ذكراه القديمة، حين كان يجالس بعض الأكراد، ويمازحهم دومًا حين يتكلّمون معًا بالكرديّة، لحثّهم على التكلّم بالعربيّة في حضوره، وحتّى في غيابه للتمرّن عليها وتحويلها إلى عادة يوميّة.

التقط البندقيّة من يد العنصر المحاذي له، وجّهها بنوع من الترويع إلى الأطفال، كي يحضّهم على سرعة الهرب، لكنّه تفاجأ بأنّ هناك بضعة أطفال لم يهربوا، ونظروا إليه نظرة تحدّ تستبطن وصفه بالوقاحة والصفاقة وقلّة الأدب. لقّم البندقيّة وهو يشعر بأنها تكاد تقع من يده لثقلها. وأثناء ذلك أصابته حجرة رماها أحدهم عليه، ثمّ حجرة أخرى أصابت عينه السليمة، شعر بدماء حارّة تنزّ منها. ظنّ لوهلة أنّ الحرقة التي أصابت عينه هي نتيجة الدخان الملوّث المنبعث من الدواليب المحترقة، ثمّ ما لبث أن وجد أنّ رؤيته للأطفال والساحة تضيق وتزداد عتمة، وكان قد لقّم بندقيّته. أصبحت الطلقات في بيت النار، لم ينتظر أمر الإطلاق من أحد وأصرّ أن يروّض أولئك الشياطين.

وبردّ فعل تلقائيّ منه، ضغط على الزناد، دفعه الضغط إلى الوراء، سقط على مؤخّرته، حاول أن ينهض من جديد، كانت بندقيّته قد انحرفت باتّجاه سيارة الإطفاء من دون أن يشعر، استمرّ ضاغطًا على الزناد، فاقدًا قوّته وعينه وعقله في الوقت نفسه رافضا أن يسحبه عناصر الدورية إلى السيّارة وهم يجرّونه إليها جرًّا ليهربوا من الجموع التي بدأت تحتشد تاركين النيران مشتعلة.

عبث

على أيّ شاطئ أستلقي الآن؟ مَن هؤلاء الذين يحيطون بي؟ هل انتشلني أحدهم من عتمتي المنشودة تلك؟ أأسامحه أم ألعنه؟ مَن روّض شياطين البحر والبرّ؟ مَن قد يروّض شياطيني الداخليّة الهائجة؟

تصلني صرخاتهم من منحدر بعيد، تتناهى إليّ من قاع معتم بارد، هل أرجعوني إلى دائرة العبث التي هممت بمغادرتها وتحطيم قيودها؟ أنفاسه قريبة جدًّا منّي. أشعر برائحة عرقه تجتاح جسدي، أكسبته ملوحة البحر طعمًا لذيذًا غريبًا.

مفارقة عبثيّة أخرى تحيط بي وتغرقني، لطالما تمنّيت لو أنّه يغرقني أو يغرق فيّ ويحتضنني، وكم تمنّيتُ أن يداعب نهدَيّ اللذين يبدوان أقرب إلى ورَمين خبيثين ويظهران أنوثة مغدورة. ها أنا في غرقي أستعيده، وقد التصق بي زمنًا لا أدري كنهه وسرّه ومدّته.

يبدو أنّ أفكار العودة إلى الحياة عبثيّة كأفكار توديعها، أو الخروج من دائرتها العبثيّة.

هل هو حقًّا مَن كان يجري لي تنفّسًا اصطناعيًّا ويضغط على صدري وبطني ويحرّك جسدي في محاولة لإسعافي؟ حسبي من غرقي إطباق فمه على فمي، وتلمّس أصابعه لجسمي، وعلى الرغم من عدم

شعوري به، أظنّ أنّه سيكون جسري إلى ذاتي مرّة أخرى.

أستعيد ما كان يجب عليّ أن أعيشه، لا ما عشته في واقع الأسى والقهر والجنون ذاك. أستعيد مرآة ذاتي المغدورة. أغمض عينيّ على ذاك الضعف الذي يهدّني، ويهدهدني، ويبقيني على صلة بعتمتي الماضية وعتماتي التي تلوح في الأفق.

أسأل نفسي لو أنّني أعدت تركيب الحكايات وبناء واقع متخيّل انطلاقًا من تلك التي كان ينبغي أن تكون، تُرى أيّ واقع حكائيّ كنت سأنسج!

يقف أبي أمام جثّتي الممدودة، ينظر إليّ بعينين مفتوحتين، يلوّح بعصاه، يشقّ جلابيّته، يصرخ صرخة مدوّية يردّد البحر صداها. يعيد هندسة جزيرته الخاصّة، ويكون عميد اللاجئين فيها. يبني كهوفًا تشبه بيوت المنارة التي كانت أشبه بمغارة حقيقيّة.

تلقي أمّي بعكّازاتها في الهواء، تقف على قدميها، تركض حولي بطريقة دائرية، تخلع تلك القماشة التي كانت تضعها كشال، وتبقيها في عنقها، لتوهم مَن يراها أنّها انزلقت من غير دراية منها، أو أنّها ستعيدها لتغطّي بها شعرها فورًا، ترتقي صخرة قريبة منها، ترفع يديها إلى السماء وتشهق بعمق، ثمّ تبدأ بالتمايل، كأنّها عشبة ناعمة تحرّكها رياح خفيفة.

تحوّلت هزّات خصرها وحركات صدرها وهي تؤدّيها مستلقيةً على الأرض إلى مشهد آخر يتمّ عرضه بصيغة مختلفة، كأنّ هناك مَن أعاد تصحيح اللوحة السابقة، مع بعض الإضافات والتحسينات، وقام بتعليق إطارها من جديد بطريقة عموديّة.

في الخلفية تتقاطع ملامح جميع مَن عرفتهم ولفّقت لهم حكايات واعترافات..

هل حان موعد الانتقام؟!

أنا منجونة التي لم يُعرف لها عمر محدّد، الغارقة في عتماتها، الهاربة من حكاية إلى أخرى، أقف على عتبة متاهة جديدة.

يبدو أنّني عدت إلى دائرة النار ومسرح العبث. إنّها العتمة من جديد.

- لن تنتهي -

المملكة المتّحدة - إدنبرة
حزيران 2016

الفهرس

ترويض الشياطين 7
وشوم 13
بيت الشعب 21
بيت الكرم 27
بيوت 33
سمسرة 37
جسر 41
الخنجر 45
عيون وبنادق 55
التحفة الأثيرة 59
كوخ الخواجة 67
العناد مراد 75
نظرية النسب 81
البؤر المعتمة 87
الرجل البصّاق 95

سجناء 101
موجات الهجرة 109
بزّق ولزّق 115
أبو فطيسة 121
جيمي في جرمانا 127
نغم في طريق الفنّ 133
العهد الجديد 139
كلاب الصيد 145
تحطيم الصنم 151
ارفعني ولو على خازوق 157
سلطة الإغواء 163
نكتة الإيثار 169
اللقاء 175
جبل الأشواق 185
جرح مفتوح 191
غليان 195
طوبى لكم 199
عين المستشار 207
عبث 215

نبذة عن المؤلف

هيثم حسين: كاتب وروائي سوريّ كرديّ، من مواليد الحسكة، عامودا 1978م، مقيم في المملكة المتحدة/ إدنبرة. عضو في جمعية المؤلّفين في بريطانيا، وفي نادي القلم الإسكتلنديّ. وفي رابطة الكتاب السوريين. تخرّج في معهد إعداد المدرّسين - قسم اللغة العربي في الحسكة سنة 1998م. يكتب زاوية أسبوعية في صحيفة العرب اللندنية منذ سنوات، يكتب مقالاً أسبوعياً في مجلة الشروق - دار الخليج الإماراتية منذ 2012. عمل مراسلاً متعاوناً لشبكة الجزيرة نت (القسم الثقافي) لسنوات منذ 2012 - 2017م. مؤسّس ومدير موقع «الرواية نت». اختارته مجلة «العربي» الكويتية سنة 2013 لتحكيم مسابقة القصص القصيرة التي تديرها بالتعاون مع البي بي سي- هيئة الإذاعة البريطانية.

الأعمال المنشورة:

-في الرواية: «آرام سليل الأوجاع المكابرة»، ط1: دار الينابيع، السويد 2006، ط2: دار النهرين، دمشق 2010. «رهائن الخطيئة» ط1: دار التكوين، بيروت - دمشق 2009. ترجمت إلى اللغة التشيكية، وصدرت ترجمتها التشيكية في براغ 2016م، كما ستصدر ترجمتها الكردية في وقت قريب. «إبرة الرعب» منشورات ضفاف

بيروت، الاختلاف الجزائر 2013.

- النقد الروائيّ: «الرواية بين التلغيم والتلغيز»، ط1: دار نون، سوريا 2011. «الرواية والحياة». صدر ككتاب مرفق مع مجلة الرافد الإماراتيّة في شهر مارس 2013م. «الروائيّ يقرع طبول الحرب»، دار ورق، دبي 2014. «الشخصيّة الروائيّة.. مسبار الكشف والانطلاق» دار نون، الإمارات، 2015.

- الترجمة: «مَن يقتل مو..؟» مجموعة مسرحيّات مترجمة عن الكردية للمؤلّف بشير ملا. دار أماردا، بيروت 2007.

بريد المؤلف الإلكتروني: heysem1@gmail.com

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm